العراوى

رواية

خيرى شلبى



العراوى

العراوى

رواية

خيرى شلبى



دار المستقبل العربى

تصميم الغلاف والإخراج الفنى
للفنـــان : الحســن أبو السعود

الطبعــة الأولـــى ١٩٨٦

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــــرة

(١)

الخميرة

أينما توجهت فى أى مكان فى بلدتنا فأنت معرض للقاء بعمك « أبو سماعين » أعرف أنك فى أعماقك تضن عليه باللقب . لكن لأنك من عقلاء البلدة فانك تخلع عليه فى أريحية تدل على شهامتك وحسن تربيتك وكرم أصلك . ولأنك أيضا ابن ناس فأنت تنهض عن مقعدك طوعا ، وتقول له بكل أدب وتحفظ ـ خاصة ان كنت ابن مدارس ـ « تفضل ياعم أبو سماعين » ، وقد تأخذ بيده لتجلسه مكانك . صحيح أنك فى الأصل ربما كنت تزمع القيام قبل وصوله ، ولكن مجرد أن تقول له تفضل مكانى شيء يحمد لك فى أنظار كبار السن وما أكثرهم فى بلدتنا .. أنت ضامن أنهم بعد انصرافك سيقولون على الملأ : « شوف أدب الواد .. حتى أبو سماعين وقف له واحترمه .. ياسلام على الأخلاق » .

ولأنك ابن أصل فأنت على حياء كبير ، يحلو لك أن تظهره فى هذه اللحظة فحسب كأجلى ما يكون ، اذ لاتكاد تنهض متخليا لـ « أبو سماعين » عن مكانك حتى يغزو الاحمرار وجهك الكريم ، ثم تبالغ أنت فى إخفاء عينيك إمعانا فى الحياء كأنك ترفض انتظار شكر على واجب ، وحقيقة الأمر أنك تهرب من وجه « أبو سماعين » تجنبا للتورط فيما لا طاقة لك به . أنت عارف وأنا عارف أن الجميع يتعمد اظهار الحياء المفتعل حتى لا يتجاوز « أبو سماعين » حدود الذوق . لذكائك سوف تبادر بالانصراف فورا ، متجاهلا قدر الامكان وجه

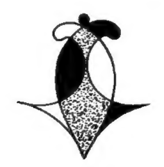
« أبو سماعين » . فأنت عارف وأنا عارف والجميع عارف أن « أبو سماعين » لا يكاد يحس بحركة كرم تتخذ معه حتى يبادر باستغلالها فى الحال على نحو غريب ، اذ يندفع فى صياح شجى كأنه يبتهل الى الله بأوراد وصلوات غامضة وهو فى الواقع يمتدحك ويثنى على أصلك الكريم الذى من المؤكد أنه لا يعرف شيئا عنه ، ويدعو لك الدعوات الحارة ، فيما تكون قد ارتسمت على وجهه حركة انتظار واجفة زاعقة مستغيثة مستميتة تكاد تقول لك : « ما تهرش بقى وتخلصنى .. إيدك على الحسنة » ، فى حين تكون يمناه قد ظهرت من كم جلبابه وراحت تتحرك نحوك تنتفض انتفاضات متتالية تهم بالأخذ .

انت عارف وأنا عارف أنه سوف لن يغفر لك هذه الكسفة أبدا ، فرغم انه يتوقعها ويتلقاها باستمرار ، فانه — فى خفة وذكاء عجيبين — سرعان ما يدرك انك لن تعطيه . فيلمُّ نفسه على الفور بسرعة بهلوانية رهيبة ، وسرعان ما يتذرع بمظهر الوجاهة فإذا هو يشيعك بالسلامة ولكن بودّ مبالغ فيه بنبرة كأنها تغرس فى ظهرك اللعنات ، ثم يستوى جالسا القرفصاء كالعادة ، دافنا ذقنه بين ركبتيه موحوحا ، يفرك يديه فى انتظار أى شيء . يشرد لبرهة طويلة تسبح فيها عيناه السوداوتان نحو لا شيء . فان علق أحدهم على تصرفك بقوله : « شايف المدارس بتعلّم ازاى ؟ » ، يشوّح هو فى وجوه الجالسين قائلا باستخفاف : « ياعم .. أخلاق إيه وبتاع إيه .. خليها على الله » ..

يتبادل الجميع نظرة يكتمون بها ضحكاتهم التى تريد الانفجار ، اذ هم يعلمون مقدما أن « أبو سماعين » سوف يقول هذا . أما هو فلا يعبأ بنظرات أو ضحكات ، فهو يعرف أن الجميع قد باتوا يضنون عليه بالاحسان فيما عدا قلة من أهل الخير . كذلك يعرف أننا جميعا نعرف أنه يأخذ الاحسان ليشترى به الأفيون ويشرب الشاى بدون انقطاع . لكن الله يفتح عليه يوم السوق حيث تمتلىء بلدتنا بالأغراب الذين لا يعرفون عنه شيئا ، إذ أنه هو الذى يستقبلهم عند دخولهم أرض السوق والشروع فى فرش بضائعهم ، ليلقى فى ترحيبهم قصائد مدح

واستبشار يتفاءلون بها وبه وإن كرهوا منظره ، إنهم فى الأصل يريدون أن يتفاءلوا بأى سبب كان ، ولذا فانه يختار لكل واحد ما يناسبه من العبارات التى تتفق مع قاموس المهنة او البضاعة المعروضة للبيع ، فاليوم الفل بدأ على جناب الله ، ونهاركم أبيض بالصلاة على النبى وآله الكرام ، روح إلهى ربنا يفتحها فى وشك دنيا وآخرة .. وقد يتصدى لك فى الطريق محييا مجرد تحية يستفز بها عطفك ، وقد يجلس بجوارك فجأة دون أن يتكلم ، ويظل جالسا دون حراك حتى تنتبه اليه فتعطيه المقسوم فينهض ويختفى ، ليظهر بعد حين فى مكان آخر ..

تراه يوم السوق منتعشا ، يمشى كنخلة طويلة محنية الهامة قليلا ، واليدان متدليتان بجواره بعد أن تخلص من المنح العينية ، من عجوة وبرتقال وأرغفة وأشياء أخرى غريبة . يكون فى العادة قد باعها . ان له لزبائن معروفين يوردون له القروش أو الدخان اللف او حتى السبارس ويورّد لهم ما تضيق عنه جيوبه ، خاصة يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع ، أو أيام الوقفة والأعياد ، هذه مواسمه الكبرى ، حيث يطلع القرافة ويلف على زوار الموتى ، فيجلس أمام كل مقبرة فى مواجهة أهلها ويندمج فى بسبسة وغمغمة مضغومتين فيما يهز الرأس مع النغم . ويؤكد البعض انه لا يقرأ شيئا ، لكنه من حين لاخر يرفع عقيرته بعبارة قرآنية شديدة الوضوح توهمك انه مستمر فى قراءة صحيحة . يعود فى الظهيرة محملا بأجولة ملآنة بالأرغفة والقرص والفطائر والتمر والخروب والذرة المشوى والبلح والجوافة وربما قطع لحم مدسوسة فى أرز ، ناهيك عن جانب الكعك وحده وهو حصيلة تفوق ما تصنعه لنفسها أكبر عائلات البلدة .



(٢)

الخمـــــــارة

فى قبلى البلدة يقع « حى الخمارة » ، ذلك الحى المهيب الذى يقطنه ــ من أوله الى آخره وعلى امتداد مسافات وشوارع وحوار لا يستهان بها ــ عائلة العمدة « محمد عبد المنعم أبو سيف » ، الذين يختلط علينا الأمر فى التمييز بين الولد منهم وعمه ، أو بين العم وصهره ، كلهم متشابهون الى حد التطابق التام : لذلك فانت ترى الكبير منهم صغيرا دائما ، كما ترى الصغير منهم كبيرا ، غير ان تتالى الرؤيتين بصورة دائمة لا تنقطع جعل أهل البلدة يصرون على رؤية الكبير منهم صغيرا مهما علا شأوه . والأمر لا يكلف أهل البلدة سوى اعتذار رقيق مستهبل يقوله الواحد منهم بعد ان يكون قد انتقم وصغّر الكبير وهزأه : « عدم المؤاخذة ياحاج .. افتكرتك فلان ابن أخيك .. أو تصورتك ابنك » . وقد تعوّد « السوايفة » أن يبلعوها ولكن فى استعلاء يكشف عن شعور عميق بالعدوان .

قديما كان الحى كله يسمى باسمهم ، ولكن حليفهم أو صديقهم الخواجة « جلانتى أبناء عم وشركاه » ــ تجار القطن ــ افتتح فى الحى خمارة وجدت ترحيبا وتشجيعا من أقارب لهذه العائلة يقيمون فى البندر ويعملون سماسرة فى جلب الأقطان للخواجة . لهم مراكز كبيرة فى جهات متعددة ، يندر أن تمر دورة انتخابية للبرلمان دون أن يكون فيه نائب أو أكثر من عائلة « السوايفة » عن دوائر بعيدة يسيطرون عليها . كان لهم حشد لا ينفد من الأفندية الشبان لا ينقطعون عن زيارة البلدة للسهر فيها والسفر الى البندر مساء بالكارتات تجرها الخيول المطهمة أو بالأتومبيلات أو لا يسافرون مطلقا هم وراحتهم . يشربون

الخمر فى الخمارة مع بعض علية القوم من أهل البلدة الذين يتمسحون فى عائلتهم بغية كسب أو جلب مغانم او استدرار سلطان ، ومع تجار خواجات ، ومسئولين كبار فى المدينة لبواعزومة لقضاء أمسية فى الريف .

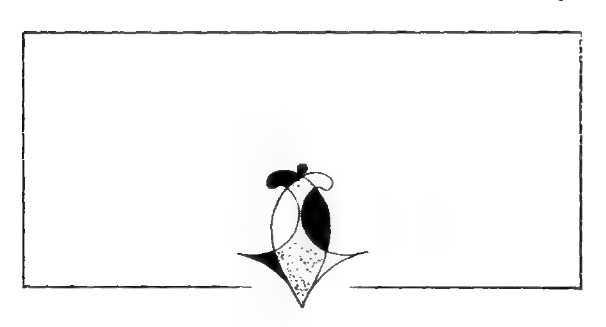
اجتذبت الخمارة عددا كبيرا من الشبان من أبناء الموسرين ملاك الأراضى والتجار ليس حبا فى سكر ، أو سعيا وراء الفشخرة الكذابة ، بل لمجرد تحدى شبان عائلة العمدة وإشعارهم بأن فى البلدة من يباهيهم . وقد سلب الخواجة « جلانتى » ما سلب من أرض وأموال ثم اختفى تماما بعد أن تحزَّبت الأمور ، إذ قد فوجىء بأن فى البلدة مئات من الشبان الأزهريين المعممين ، والأفندية المتعلمين ، أخذوا يهاجمون الخواجه باستمرار كلما رأوه ، فأحس بانه لا هو ولا السوايفة بقادرين على صد هؤلاء الشبان عن معاكسته وتكبيده الخسائر كل يوم ، خاصة ان هؤلاء الشبان لا يفعلون شيئا يمكن ان يحاسبهم عليه حاكم ، لا يتعرضون له بالضرب ولا بالشتم بل ينصحونه بكلام ، يقفون فى الطرقات المؤدية الى الخمارة لتعطيل الناس عن الذهاب اليها بصنعة لطافة ، بأساليب متعددة ، حسب حجم كل شخص يعطلونه ، ربما بالاقناع العقلى ، أو كلمتين رقيقتين ، او البستفة المستترة أو السخرية والتهزىء والتجريس .. ياويل السكران عند عودته مساء يترنح ، لقد بات لا يحمل هم سكره بقدر ما يحمل هم الفضيحة التى سيمنى بها اثناء عودته .. قد يفعلون به الأفاعيل حتى يحولونه الى مسخة يبقى بعدها « مثلة » على عار يجر أذياله لشهور طويلة .

يقولون إن الخواجة « جلانتى » قد حسبها ، فوجد ان حالة البلاد قد اعتراها تخلخل مفاجىء . ففى البلدة شبان يقطعون عليه طريق المؤامرة القانونية لنزع ملكيات المدنيين له بشرب طويل الحساب . وفى كل مكان يذهب اليه حتى فى القاهرة ظهر له من يعاكسه بشكل أو بآخر .. فجمع امواله وترك الخمارة واختفى . وكان مدينا لعمالها بأجور باهظة فأخذوا الخمارة « مخلص حق » شغلوها لحسابهم شهورا طويلة جمعوا فيها ــ بالكاد ــ أجورهم فى ذمة

الخواجة . ثم استيقظوا ذات صباح ليفتحوها فوجدوها كومة هديم تسرى فى باطنه نار . من يومها لم تقم للخمارة قائمة فى بلدتنا .

هكذا يقولون فى بلدتنا ـــ هى حكاية أسمعها كل يوم بل كل ساعة فى دارنا كأنها من بين المعلومات التاريخية التى يريد أهلى تزويدى بها لسبب غامض بالنسبة لى .

رغم زوال الخمارة منذ سنين تسبق وعيى بقليل ، فان « السوايفة » لم يفلحوا بعد ذلك فى اعادة اسمهم للحى أبدا . ظل الناس كلهم فى بلدتنا يطلقون على منازل هذه العائلة جميعا فى كل الخارطة التى تضمهم اسم الخمارة .. رايح فين يافلان ؟ رايح الخمارة .. جاى منين يافلان ؟ جاى من الخمارة ـــ فنعرف انه حى السوايفة . من طريف ما يسطنى فى أهل بلدتى انهم رغم نبذهم للخمارة وسحقهم لها بكل احتقار لم يأنفوا بعد ذلك من ترديد العبارة التى كانت من قبل تقشعر منها الأبدان : رايح الخمارة أو جاى من الخمارة هذه العبارة التى كانت كفيلة باسقاط قائلها فى قاع الحياة الى الأبد ، أصبح الجميع يرددونها مفخمة مبروزة ، كأنهم يسجلون باستمرار ايقاع شىء جميل فعلوه جميعا وأقام بينهم مزيدا من جسور الود .



(٣)

عزبــــة العبيــد

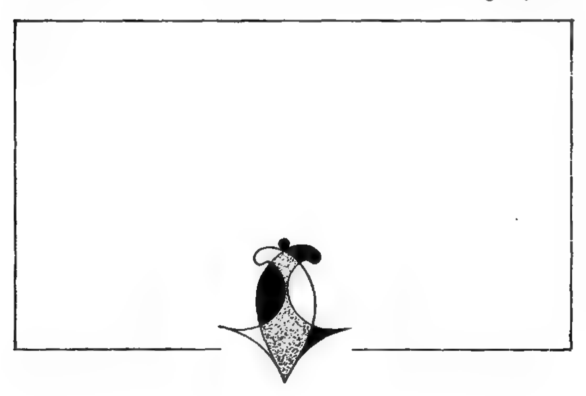
على مرمى حجر من الخمارة ، فى وسط وسعاية متاخمة لقصر العمده المكون من دورين ويمتد على مساحة ثلاثة أفدنة تقريبا ، وفيه بدروم تصك شبابيكه الأرض ، يستخدمه كحبس لمن يتم القبض عليهم من المجرمين ـــ اى من اهالى البلدة ـــ وبانتهاء سور القصر الكبير يبدأ الشارع العمومى او شارع داير الناحية ، الذى يتكون من مجموعة قصور صغيرة وبيوت متناثرة وقطاعات متضافرة كلها لناس ينتهى اسمهم بلقب أبو سيف . فى وسط هذه الوسعاية ـــ التى هى ملك للسوايفة وتستخدم كجرن لحصيدهم ـــ توجد قناة رفيعة تنتهى فى الخلاء المتاخم للحقول ، على شاطئها تقوم « عزبة العبيد » ، مجموعة من البيوت الطينية الواطئة الغائصة فى منحدر من الأرض يسكنها رهط من السود كانوا يعملون خدما وأجراء من قديم فى هذه القصور ، ولسنا ندرى أبفعل انقلاب الزمن أو بفعل تمرد العبيد حدث ما حدث اذ حل البيض محل السود فى خدمة القصور ، فشكلهم رقيق ، وابناء الفقراء منهم كثيرون . وقد بلغت الرفاهية فى بلدتنا بأهل قصورها حدا كبيرا ، فبلغ عدد الفقراء والمعوزين ـــ فوق زيادة ـــ الى حد رخصت فيه الخدمة ونشأ فى بلدتنا من يسمونه « بالتملى » ، وهو أدنى من الأجير بدرجات كبيرة ، إذ أنه يتطوع لخدمتك ـــ مؤديا جميع الخدمات ـــ دون اتفاق على أجر أو انتظار لمقابل ، فقط له الشرف الكبير فى حمايتك . وكانت قصور أبناء السوايفة قد بدأت تستحسن الخدم البيض مثلهم ، حيث اللون الواحد للبشرة ستارا يخفى وراءه الكثير من الأسرار .

إنعزل سكان « عزبة العبيد » فى عزبتهم ، وتسيدوا على أنفسهم ، وأصبحوا متخصصين فى بيع الفسيخ والطماطم والخضروات غير الطازجة . ومنهم ضاربو دفوف وعازفو أرغول ، ومنهم « نظيمة المهدية » المغنية الشهيرة ذات الصوت الجرسى الرنان ، التى لا هى سوداء تماما ولا بيضاء تماما ، لكن صوتها أبيض منطلقا حامى الحد ، يجز فى الاحساس كالسكين المسنون ، فيكاد المستمع يشعر بقشعريرة تنزف الدم فى داخله بلذة فائقة . تغنى فى الحقول وفى الأفراح تزف العرائس . وجهها مكشوف فى الغناء ، لا تخجل من اى لفظ قد يخدش حياء العروسين ، لوثوقها من أن هذا يوقظ مهجة العروسين . الكل فى البلدة يشتهيها بينه وبين نفسه ، ولا يحب المشاركة فى الحديث عنها درءاً للتهمة التى قد لا يعلم بها أحد سواه . والكل يدعوها للغناء فى اتفه المناسبات ، ويشعر بسعادة غامرة اذا غنت فى بيت احد من عائلته فما بالك لو غنت فى بيته هو ، يضمن أن صوتها الملىء بالدلع والترددات سيصنع احتفالا كبيرا ، ولسوف ينسل هو ومعظم الرجال الى غرف الحريم لرؤية وجهها ، طامعا ان يرى معانى الأغنيات الجنسية التى تغنيها وقد تجسدت على ملامح وجهها ، يخيل اليه أنه سيرى تفاصيل ما يسمع . ورغم أن وجهها يظل يتطوح ويهتز وسط النبرات وهى ممسكة بالدربكة ، يتمايل جذعها ، فان الجميع ، حتى نحن الصبية ، نتخيل أننا قد رأينا كل شىء ، وأنها بغنائها شرحت لنا كل شىء .

الكل يشتهى « نظيمة » لكنها ــ فيما يقال ــ لا تشتهى سوى « أبو سماعين » المعفن ، ولا أحد يدرى كيف تحتمل هى عفونته . لكن الجميع يؤكدون أن الأفيون « يعمل عمايله » فينسيها مظهره ومخبره ، وأنها ــ نظيمة ــ تحبه بعبله ، بل من أجل كونه هكذا . قيل ايضا أن « أبو سماعين » قد أدمن الأفيون ــ فوق ادمان ــ ليرضى شراهتها ومتعها . وقد كانت هذه الأقاويل مجرد اشاعات فى أول الأمر ، لكن الخفراء الذين يمسكون الدرك أكدوها ، وجيران المغنية أيضا أكدوها ، وبعض الشباب الذين يسرحون بعقولنا فى الأجران كل مساء

يؤكدون لنا باستمرار أن هذه الأغنيات التى تغنيها « نظيمة » ألفتها خصيصا على « أبو سماعين » أى أن كل هذا الغناء خطيا لوده ، ففى كل أغانيها غربة ، وحبيب يعيش بعيدا عن أهله ، وقلب يتمزق على البعد ، وفيها أيضا فراق كثير كما فيها مواقعات جنسية والهة . يؤكد كل ذلك منظر « أبو سماعين » حين يستمع اليها تغنى ، تكون تلك اللحظة هى الوحيدة التى يمكن أن ينسى خلالها الأفيون الى حين .

فى « عزبة العبيد » يبيع « أبو سماعين » حصيلته من الشحاذة ، ثم ينطلق مجرجرا ساقيه فى سرعة ولهوجة ، يعدل التلفيعة حول رقبته ، وهى حائلة اللون مجهولة العمر لا تنفك عن رقبته صيفا أو شتاء . من المألوف أن تلتقى به احدى النساء المتعبات فى الطريق ، فتنظر اليه نظرة غيظ قائلة : « آه ياخايب ياناايب .. مش قلت لك ابقى هات وانا اشترى منك ؟ » . فيعلق السائرون قائلين فى لهجة ذات معنى انه مرغم على البيع فى « عزبة العبيد » لأن نساءها يعرفن كيف يحتلن عليه ويأكلن عقله .



(٤) عزبـــة صبـــاح

من « عزبة العبيد » ينطلق « أبو سماعين » الى « عزبة صباح » الواقعة على ترعة خلاف شرق البلدة . بينها وبين شارع داير الناحية جرن كبير يملكه مناصفة عائلتان كبيرتان يتصاهران على الدوام ويتشابهان فى كل شيء : عائلة القطان وعائلة صباح ، أما عميد العائلة الأولى فقد كان يشتغل بتجارة الأقطنة ويمتلك من ورائها أرضا وفلاحة وأولادا كثيرين نشطين ، وحين مات ذات عام بعيد كان قد اطمأن الى مستقبل كل أولاده ، اذ خلف أرض عريضة يفلح فيها الفلاحون منهم ، ودكانا كبيرا لبيع الأقمشة والأقطنة يديره بعضهم ، على حسه وحس الأرض تعلم ابناؤهم الذين فى مثل سني فى مدارس البندر بمصاريف ثقيلة ينوء بها كاهل أهلنا . واما عميد عائلة صباح فكان تاجرا شاطرا ، وكان مثل صهره وقديا يرشح نفسه فى الانتخابات ويتنازل للمرشحين المكتسحين فيدينهم بجمائله ويصبح من رجالهم فى البلدة ، كان مدمن مشروعات ، افتتح ماكينة للطحين فوق هذه الأرض على ترعة خلاف ، وأقام حولها بضع دور صغيرة لمن يشتغل فيها من اسطوات وعمال . ثم باع الماكينة لشيخ البلد الذى نقلها الى مكان آخر ، فافتتح صباح مزرعة للدواجن ، أحاطها ببيوت جديدة كثيرة ، سرعان ما استوطنها تجار البيض . وقد فشلت المزرعة ، ومات صباح الكبير ، وزحف على ارضه ملاك جدد ، ومع ذلك بقيت هذه البقعة الملتحمة بشارع داير الناحية تسمى باسمه : « عزبة صباح » ، وظل يسكنها تجار البيض ، بل وسكنها رهط من المدرسين والبقالين وتجار الحبوب .

واضعا احدى يديه فى سيالته والأخرى طليقة ينطلق « أبو سماعين » مخترقا « عزبة صباح » ، يدخل ثالث زقاق من ازقتها الكبيرة المتشابكة المتشابهة ، يطرق باب بيت « السيد الشيال » . هو فى الأصل تاجر بيض ، ورث هذه المهنة أبا عن جد ، ويؤكد دائما أن أباه هو الذى أغرى « صباح » الكبير بفكرة المزرعة ولكنها فشلت لأن « صباح » ادارها بنفسه مجنبا أهل الخبرة . يشترى « السيد الشيال » البيض من ولدان ورجال وسيدات يلفون البلدة صبح مساء يحملون سلة فى أذرعهم ويصيحون : « ياللى حداها بيض » ، فى يد كل منهم كيس طويل من القماش العبك ملآن بالقروش الفضية وانصاف الفرنكات والبرايز والشلنات ، الخمس بيضات بقرش تعريفه وأحيانا ست بيضات ان كان بيضا صغيرا . من حارة واحدة قد تمتلىء السلة ولا يفرغ الكيس . خبراء فى فحص البيض ، اذ يمسك أحدهم البيضة ويثبتها على قبضته المضمومة معرضا اياها لوهج الشمس ناظرا فيها ، فاذا الشمس تخترق سطح البيضة وتجعله كالستار الشفاف يتبين من خلاله صفار البيض واضحا جليا ، فيعرف ما اذا كان بالبيضة كتكوت أم مجرد صفار ، فاذا كان بها كتكوت فمعنى ذلك أن البيضة « مكسرة » أى أن ديكا اعتلى الدجاجة ولقحها قبل أن تبيض ، فحينئذ يأخذها المشترى ، أما أن كانت مجرد صفار فمعنى ذلك ان الدجاجة باضتها دون تلقيح ومعناه أيضا أن تصبح مرشحة للأكل دون المزرعه ، ويمكن لصاحبتها ان تشترى بها خيطا أو شايا وسكرا من أى دكان .

كل هؤلاء يبيعون حصيلتهم « للسيد الشيال » ولغيره من بقايا عائلته المتناثرين فى كل مكان ، حيث يرصها بحكمة فى قفصين هائلين مثبتين على حامل كالعصا يضعه فوق حماره المتين البنيان ويركب فوقها ، منطلقا الى مدينة دسوق ليبيع للمتعهدين الكبار ، الذين يبيعون بدورهم لمزارع الدجاج .

« السيد الشيال » شخص خلقى ، أخلاقه فى أطراف مناخيره ، معرضة للانهيار فى كل لحظة لأى سبب ، حيث ينزل عن حماره ويروح يجعر بصوته

المبحوح المشروخ ، يسب ديك التخين فى البلد ، وبأقذع الألفاظ وأقبحها يشتم من داس له على طرف ، ثم لايلبث فى الوقت المناسب ان يركب حماره وينخسه برفق وحكمة حتى يسرع فى السير دون برطعة قد تكسر البيض ، قبل ان يتطور الشتم الى خناق بالأيدى . لكن الخناق بالأيدى لا يحدث أبدا ، لأن أهل البلدة جميعا يعرفون أن داء الأفيون وراء عصبيته وانعدام أخلاقه ، فيسخرون من غضبه ولا يقيمون لشتائمه وزنا ، بل ربما استفزوه ليستزيدوه منها ، لا يحدث التشابك بالأيدى أبدا الا بينه وبين زوجته « بدر » فهى الوحيدة التى تعمل عقلها بعقله وتقف قصاده ، تبادله الشتم والضرب بالبونية والروسية وعصا الأقفاص إذا لزم الأمر ، ويفرجان عليهما « عزبة صباح » كلها فى كل يوم ، تهدده بالطرد من الدار التى هى فى الأصل دارها ، لكن الخناق دائما ينتهى أن تأخذ « بدر » نفسها وتذهب غاضبة الى دار أبيها « ابراهيم الحلفاوى » فى « عزبة العلمين » على شاطىء بحر السبيل شمالى البلدة ، وبعد ساعتين على الأكثر يعود بها « الحلفاوى » ، حيث يتناول اصطباحة الأفيون والشاى فى العصرية مع صهره « السيد الشيال ، ثم يترك ابنته وينصرف عائدا الى داره مصهللا . يوصله

(السيد الشيال) الى شارع داير الناحية حيث يمشى سائبا يتوكأ على عصاه ، يعود على اكثر من دكان ليشترى ورقة دخان او يلهف كوب شاى على الواقف ، يبيع فى السر قطعة حشيش لعزيز يعزه ، فى مثل هذه اللحظة يكون مصهللا جدا ، يتحول وجهه المعروق الأبيض إلى ابتسامة كبيرة بغمازتين جميلتين وأسنان دقيقة مفلوجة تفصل بينها مسافات ، يكون دائم المصمصة بلسانه ، وشفتيه ، وفيما هو يلف سيجارة بروح يعتذر عما بدر منه فى الصباح من سب وشتم ، فوالله لم يكن يقصد ، والدنيا كانت حر ، وحال السوق واقف ، ثم يحلف ايمانات مغلظة أن القطعة التى باعها لك هى من أجود صنف ، وبأقل سعر مع ذلك من أجل خاطر العيش والملح والعشرة ، يدلل على صدقه فى الحلفان قائلا : « عيب وأنا باشيل ميه وأمشى بيها فى الطريق .. دانا رأسمالى كله ميه » ،

ويقصد بذلك انه يحمل بيضا هو عبارة عن كمية من الماء متكور فى القفص ، ولو كان لاسمح الله كذابا ، لا يراعى ضميو لتكسر رأسماله وسال فى الطريق .

يصيح « السيد الشيال » من الداخل صيحة جهورية جهمة كأنها مقدمة لعراك حاد : « مين اللى بيخبط فى الساعادى » ، وهى عبارة يقولها على الدوام لدى سماعه لأى طرق على الباب ، يقولها ليهب الطارق . ويرد « أبو سماعين » من الشارع قائلا : « سا الخير ياابو السيد » . وعلى الرغم من انه يكون قد عرفه من صوته ، فانه ينظر من خرم كبير فى وسط الباب ، واذ يتأكد من ان « أبو سماعين » وحده ليس معه أى وجه غريب فانه يصيح فيه مع ذلك بنفس النبرة العدوانية الممرورة : « عايز إيه ياأبو سماعين ؟ » . فيسرب « ابو سماعين » ورقة القروش الخمسة من خصاص الباب ، حيث يلتقطها « السيد الشيال » ، وبعد برهة طويلة يصيح من الداخل : « اتكل على الله بقى ياجدع » فعلى « أبو سماعين » لحظتها ان ينظر تحت عقب الباب ، ليجد ورقة السلوفان الملفوفة فى ورقة أخرى كبيرة قد اندفعت متسربة من تحت الباب الى أرض الشارع ، فيتناولها « أبو سماعين » ويدسها فى سيالته أو فى فمه ، ويستدير عائدا .

يمر على أماكن القعدات المعروفة . أول قعدة تقابله فى شارع داير الناحية هى دكان المعلم فرحات الترزى ، حيث يجلس رهط من كبار السن ينتظرون حلول صلاة الظهر أو العصر أو المغرب ، ويتحدثون فى السياسة والحرب العالمية الدائرة على أرض بلادنا دون ذنب لنا فيها ، وتعلوا أصواتهم إلى حد العراك . بمجرد رؤيتهم لـ « أبو سماعين » تصعد رائحة الشاى إلى أنوفهم ، يدفع كل واحد قرش تعريفه ، يذهب ولد فيشترى من دكان « احمد » ابن عمتى « خديجة » قرطاسا من الشاى فى حجم أصبع الموز ، وآخر من السكر فى حجم خساية . « أبو سماعين » يسحب وابور الجاز من الشباك الواطىء ، يعطيه نفسا ويشعله ، يمصمص البراض والأكواب الزنك بالماء من القلة يضع البراض ذا اليد السلكية المستطيلة فوق النار ، حين يغلى الماء يلقمه الشاى ويتركه حتى يخرط ، يهز

البراض برفق ، والشاى يغلى ثم يفور ويهبط ليغلى ويفور ثم يهبط ، ورائحته النفاذة تنعش الأنوف خاصة اذا كان شايا من ماركة البنت الفلاحة أو أبو قفلين ، أخيرا يضع حفنة من السكر فى براض آخر نظيف ، يصب فيه الشاى من البزبوز الذى يخر الشاى فى صوت رتيب أليف مسكر يختلط بون الوابور برائحة الشاى برائحة الجاز المشتعل ثم يملأ البراض بالماء من جديد فوق نفس التفل ويضعه على النار ليخرط دورا ثانيا ، ويروح يصب الشاى من البراض النظيف فى كوب وراء آخر تعلو الرغوة البنفسجية وحيث توزع الأكواب على الجالسين فيشفطون بصوت عال يتلمظون فى استمتاع ، فى حين يملأ لنفسه كوبا ويروح يرشف منه على مهل حتى يلحقه بكوب الدور الثانى ثم الدور الثالث ، كوب الدور الثالث مقدس لدى الجميع ، فهو حلو الختام ، شاى خفيف وسكر ثقيل بعد شاى ثقيل بسكر خفيف . وتكون اسارير « أبو سماعين » قد انفرجت فيما هو منكمش على نفسه القرفصاء ، اذا ضحك زم شفتيه ومطهما صائحا : « هوهو .. و .. ه » ثم يضيف بعد برهة فى نشوة : « فليحيا اللى زرعه » فيعرف الجميع انه يقصد نبات الأفيون . أما ان كانت الأفيونة منعدمة أو مغشوشة فان هم الدنيا كلها يتجمع فوق رأسه فيروح ينفخ من حين الى حين فى تنهد عميق يصيح خلاله : « الله يلعن أبو اللى زرعه .. كان راجل حمار ابن كلب » ، فيضحك الجميع .

بعدها ينطلق « أبو سماعين » الى قعدة أخرى ، ربما كانت دكان معلمى « سعد الله » الترزى ، او محمود البقال ، أو مصطبة ورشة المعلم رشوان النجار ، أو رصيف دكان الحاج على تاجر الحبوب البخيل ، أو رصيف دكان القطان . غير أنه اذا اختفى ليوم أو بعض يوم فقد تجده قابعا فى « عزبة العلمين » على شط بحر السبيل الآخذ فى الجفاف .



(٥)

عزبـــة العلمــين

إسمها الأصلى « عزبة السبيل » وتقع فى المدخل الشرق للبلدة . الكثيرون من اهل بلدتنا لا يعرفون شيئا عن تاريخها ، والذى يعرفه القليلون عنها عرفوه من « أبو سماعين » الذى يبدو انه ملم بكل شيء فى الحياة ، والذى تعلم منه شبان البلدة أضعاف أضعاف ما تعلموه فى المدارس والكليات ومع ذلك لا يقرون له بفضل بل يضنون عليه حتى بلقب ياعم ..

« عزبة السبيل » هى أقدم مكان فى قريتنا التى نمت من جديد بعد ان كانت قد اندثرت منذ عهد الفراعين . فقريتنا التى تقع فى قلب شمال الدلتا وتسمى « شباس » كانت ضمن مجموعة قرى فرعونية قديمة تسمى كلها بنفس الاسم : « شباس » لا يميز بينها سوى صفات تتميز بها كل « شباس » عن الأخرى ، فهذه « شباس الملح » لاشتهارها بالملاحة الكبيرة فى أرضها ، وهذه « شباس السوق » لقربها من المدينة وقيام السوق فيها باعتبارها أكبر القرى المجاورة لها ، وأما شباسنا فكان اسمها « شباس الخط » لوقوعها فى مفارق طرق توصل الى جهات عديدة ، غير انها كانت عبارة عن مجموعة تلال مهجورة وابنية قديمة متهدمة يقال انها كانت معاصر للجعة من حقول الشعير العريضة المترامية حولها . الشيء الوحيد الذى لم يعرفه « أبو سماعين » هو معنى كلمة « شباس » لكنه أكد أنه اسم فرعونى قديم ربما كان معناه الكفر او المحلة أو ما الى ذلك .

« شباس الخط » كانت تختلف عن غيرها من القرى المجاورة بكثرة عدد المسيحيين فيها ، حيث كان هناك ــ منذ عهود بعيدة ــ جانب كبير من البلدة

يضم عدة شوارع يسكنها عائلات مسيحية ، غير أنها كانت تتضمن فى قلب حواريها بيوتا لأفراد مسلمين ، وكانوا يغيثون بعضهم بعضا عند الملمات ، ويتبادلون المساعدات فى شغل الحقل . وقلما كانت تثور خلافات بين الطرفين ، وان نشب عراك حول رى أو تجاوز حدود أو اعتداء بقرة من هنا على زرع من ها هنا أو حتى بسبب الأطفال ، فان المعركة سرعان ما يخبو أوارها قبل أن يندلع ، وتصفى بقاياها فى أى دكان أو على أى مصطبة ، ولابد أن تظل البلدة أياما بعدها تتحدث فى الخلاف باعتباره نكسة شيطانية كاد غبارها يعكر صفو اللبن ، ولابد أن يكون « أبو سماعين » حاضرا عند تصفية الخلاف ، يمط بوزه ويدفع من بين شفتيه ضحكته الشهيرة قائلا : انه لا فرق بين مسلم ومسيحى فى هذه البلدة ، فيضيف أحد كبار السن قائلا : « طبعا طبعا وفى بلدتنا هذه بنوع خاص » ، حينئذ يشفط « أبو سماعين » شفطة الشاى ويضيف فى حسم : « وعند الله ذاته سبحانه وتعالى » . ثم يبدو عليه انه قد احس بأن هذا القول لم يرض بعض الجالسين ، فاذا هو يرسم على وجهه مسحة الواثق من كلامه ، وما ان ينفض مجلس الصلح حتى يصهلل « أبو سماعين » ويحكى عن بلدتنا فيقول كلاما غريبا نسمعه منه لأول مرة . نسأله نحن صبيان الدكان ورهط من الجالسين لماذا لم يقل هذا الكلام فى مجلس الصلح ؟ فيشوح قائلا : « انهم بهائم لن يفهموا من كلامى شيئا ، انهم لا يفتحون آذانهم الا لكل معمم حتى ولو كان جاهلا ، ولكل افندى حتى ولو كان أميا » .. ثم انه يندمج فى تكملة الحكاية بجدية كأنه يؤدى واجبا عزيزا عليه ..

حين كانت بلدتنا هذه مجموعة تلال مهجورة وأخصاص بناها من لهم أراض فى زمامها ، كان الرومان يحتلون الديار المصرية ويضعون على كل بلدة حاكما منهم . وكانت الديار المصرية مسيحية وكذلك الرومان ، لكن الكنيسة المصرية كانت أم الكنائس على الاطلاق وصاحبة السيادة والكلمة العليا ، وكل الكنائس فى أنحاء الأرض تابعة لها خاضعة لكلمتها . وكانت الكنيسة الرومانية تفهم الدين المسيحى على نحو مختلف ، ولست أذكر ان كان « أبو سماعين » قد قال لنا

أسباب هذا الخلاف ونسيته أم انه لم يقله أصلا ، إلا أننى أذكر جيدا قوله بأن الكنيسة الرومانية ركبت رأسها وقالت كيف تكون دولتى هى السيدة المحتلة وأكون أنا خاضعة للكنيسة المصرية ؟ وهيأ لها وهم القوة أنها قادرة على اخضاع الكنيسة المصرية لرأيها ومشيئتها ووجهة نظرها . ولكن كيف لها ان تفعل والدماغ المصرية ناشفة خاصة فيما يتعلق بمسألة الكرامة والوطنية والعقيدة ، إن الوطن عند المصريين هو العقيدة إن كنتم لا تعلمون .. هكذا قال « أبو سماعين » مرارا وتكرارا وهكذا كان فعل المصريين آنذاك ، حيث فشلت الكنيسة الرومانية فى اقناع علماء الكنيسة المصرية برأيها فلجأت الى القوة والارهاب ، وأطلقت قوات الاحتلال يدها فى البلاد ذبحا وتقتيلا ، وكان يخيل اليها ان قتل ثلاثة او اربعة من كل بلد سوف يلقى الرعب فى قلوب المصريين ، ويؤدى بهم إلى الخضوع للروح الوثنيه الرومانية ، وفاتهم أن هناك مثلا قديما يقول : « أن تحويل جبل عن موضعه أيسر من تحويل قبطى أو مصرى عن عقيدته » . وقد صدق المثل ، فكان المصرى يضع رأسه فى حبل المشنقة ورقبته على حد المقصلة ولا يفرط فى عقيدته ، لدرجة أن قوات الاحتلال الرومانى أعدمت من الرجال والنساء والشباب ما سد عين الشمس بالجثث وصبغها بلون الدماء . « شباس السوق » وحدها أعدموا منها تسعة أعشار الرجال ، ومن يومها أصبح اسمها « شباس الشهداء » نسبة الى عدد شهدائها المهول .

ننبهر جميعا حين يقول « أبو سماعين » هذه المعلومة ، بل تقشعر أبداننا الصغيرة وترتسم الدهشة على وجوه الجالسين ممن لا يعتبرهم « أبو سماعين » من البهائم نقول جميعا فى نفس واحد : « ياسلام .. بقى شباس الشهداء دى هى شباس الشهداء اللى جنبنا دى ؟ » يرد فى ضحكة انتصار : « ايوه اللى جنبنا .. الى بينا وبينها أربعة كيلو متر بس » . ويستمد من دهشتنا للاستماع حماسا جديدا ، فيستأنف الحكاية ..

المعلم « عبد الملاك حنا غطاس » كانت له أراض كثيرة فى زمام « شباس

الخط » ورثها عن أجداده . وكان مستنيرا ، وملما بحقيقة الأوضاع فى البلاد ، وكان مع ذلك فلاحا قراريا ، ولئيما جدا ، هزب من عصر الشهداء الى هنا ، واختار قطعة من اراضيه على بحر السبيل وزرعها كلها نخيلا بمساحة عشرة افدنة ، وظل يرعاها وبحر السبيل يسقيها بغزارة ، حيث أقام على شاطئه ساقية كبيرة اسمها الكباس لكبر طارته عن طارة الساقية واحتياجه لدابتين بدلا من واحدة ، وهو ايضا بشعبتين بدلا من واحدة . قبل ان تلمع نظرات الدهشة فى عيوننا يشير « أبو سماعين » بيده خلف ظهره قائلا : « ولا يزال هذا الكباس يسمع الى كلامنا الآن على شاطىء بحر السبيل ، ولا يزال يحمل نفس الاسم منذ ما يزيد على ألف وخمسمائة عام : كباس المعلم عبده ..

نفغر أفواهنا جميعا من الدهشة البالغة : معقولة ؟ كباس المعلم عبده ؟ عمره أكثر من ألف وخمسمائة عام . كيف يارجل أتسرح بعقولنا . تقول عيوننا لبعضها البعض ان صهللة الأفيونة ربما كانت هى السبب . تقول نظرة « أبو سماعين» المنسربة من عينيه الضيقتين أنه قد فهم أن هذا الاحساس يساورنا. حينئذ يضحك فى عمق، يقول بلهجة جادة كلها ثقة : ما الغريب فى ذلك ؟ ان عمر بلدتنا من عمر اسمها ، يعنى ان اسمها هذا عمره آلاف السنين ، وقد ظهرت مبان عمرها آلاف السنين ولها اسم لاصق بها ، بل ان هناك جثثا آدمية « عائشة » منذ آلاف السنين ميتة وباقية كما هى كأنها نائمة فى سلام ، وهناك متحف يضم هذه الجثث ويستطيع كل انسان أن يدخله ويتفرج ، صحيح أنها جثث ملوك ولكنها باقية .. وعموما فاسم المعلم عبده ربما كان حديثا بعض الشيء ، على أن من يقرأ حجة الأرض وأوراقها لدى الورثة أو لدى ادارة المحفوظات فلابد أن يتضح له أن المعلم « عبد الملاك حنا غطاس » مات وانجب ولدا واحدا وبنتين ، سمىّ الولد « حنا عبد الملاك غطاس » ومات « حنا » بدوره مخلفا ولدا واحدا وبنتا واحدة ، اسمى ولده « عبد الملاك حنا غطاس » ومات « عبد الملاك » الثانى مخلفا ولدا واحدا اسمه « حنا » بدون اخوة اناث ، ومات « حنا » الثانى مخلفا ولدا اسمه

« عبد الملاك » مات هو الآخر ، ومات من جاء بعده وبعد بعده ولكن اسم « عبد الملاك » لم يمت بل ظل يتكرر فى السلسال حتى جاء الفتح الاسلامى لمصر .

مصر المسيحية وقتذاك ، ذات القلب المتسامح ، قد ضاق صدرها الرحيب بالرومان ولما قرىء القرآن الكريم على أهلها استشعروا فيه نفس السماحة والصراحة والقوة والصدق وشرف الغاية المربوط بشرف النفس وقدرتها على فعل الخير .. ثم ان الأمر كان مختلفا ، فالعرب أخوة للمصريين ومن نفس الجنس أما الرومان فأغراب من جنس آخر من دم آخر .. والعرب أصحاب رسالة دينية تتفق والرسالة التى يؤمنون بها منذ فجر التاريخ أما الرومان فغزاة أجلاف متغطرسون . وهكذا ما كادت وفود الاسلام والعرب تلتقى عبر الأسواق والموانىء بأهالى مصر حتى تم كل شىء فى سلام وفتح المصريون أحضانهم لرسالة الله من جديد للمرة الثالثة على نحو اكثر شمولا وعمقا واكثر اتصالا بالله ، لقد كان الدين عندهم من قبل دينا صارما أما الاسلام فلم يغفل وجه الدنيا . كل ما هنالك أن الجيوش الاسلامية بقيادة عمرو بن العاص كان عليها أن تقاتل جيوش المحتل الذى يدافع عن مكاسبه وغنائمه . فما أن تمكنت جيوش الاسلام من قهر مندوب هرقل — (تنفتح عيوننا ذهولا من سماعنا لهذا الأسطورى الغريب) — حتى بدأت شجرة الاسلام تمد جذورها فى أرض الكنانة .

ثم بدأ « الارتباع » يقول لنا طبعا ما هو « الارتباع » هذا . ان القبائل العربية وغيرها من القبائل التى كان يتكون منها جيش الاسلام ، حين استقر مقامها فى الفسطاط العاصمة بدأت نظاما يسمى « نظام « الارتباع » له صلة بالربيع ، ففى فصل الربيع من كل عام تبدأ القبائل العربية كلها فى القيام برحلاتها السنوية الى ريف مصر ، يجمعون منها الحبوب والمحاصيل ، يتسوقون السمن واللبن والجبن والطيور والخراف والأبقار والجمال ، مقابل نقود يدفعونها أو ربما بالصلاة على النبى ، وفى كل الأحوال فالصلاة على النبى كانت شفيعا تنهار أمامه كل

المعوقات وتتسهل كل الأمور . هى رحلة سنوية تبدأ مع بداية الربيع وتنتهى بانتهائه حيث تعود القبائل الى العاصمة محملة بالخير الوفير ، تعيش عليه بقية شهور العام ، وكان « عمرو بن العاص » حاكم مصر يوصى الناس بهذا النظام ويشجعهم عليه بكل قوة ، ويوصيهم بالاعتدال فى معاملة الأقباط من الفلاحين ولا يبخسونهم حقوقهم .

بفضل نظام « الارتباع » ساح فى أرض الكنانة رجال ذوو فضل ومكرمة ، فقهاء وعلماء ووجهاء بل وصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن قبل كانت القرى المصرية تشهد رهطا من علماء المسيحية وفقهائها يركبون الحمير بمسوحهم ويتجولون فى القرى والدساكر يعظون الناس ويتحاورون معهم فى الدين ، وكان الأهالى يلقونهم بكل احترام وتقدير ويردونهم محملين بالخيرات دون مقابل مادى . قرانا ـــ اذن ـــ كانت مهيأة لاستقبال ما يجىء من لدن عزيز حكيم مهما تنوعت الوساطات . انطلق الفقهاء والصحابة والأئمة يرتبعون فى القرى والكفور والدساكر ويحولون الارتباع من جمع خيرات الى نشر للرسالة السماوية والعلم بها . كل القرى كانت بالطبع مسيحية وكل القرى تستقبل كل الوفود بكل ود وترحاب وأريحية ، بل ان الود تعمق الى درجة لا تصدق الا فى مصر كنانة الله ، ذلك أن الله مكنون فى ضميرها .. ذلك أن بطونا من القبائل العربية وأعلاما من أهلها حين رغبوا فى الاستيطان فى بعض القرى تم لهم ذلك فى سهولة بالغة ، حتى أن المسلمين الراغبين فى الاستيطان وجدوا من المسيحيين من يعاونهم على تثبيت دعائم الاستقرار بوسائل عديدة ، بل وجدوا من يعلمهم فنون الزرع والقلع والرى والحصاد ، ومن يعلمهم الصبر والحكمة فى التعامل مع النبات ومع المناخ ومع المطر ، ومع النيل على وجه الخصوص .

منذ ذلك ، كان نخيل « المعلم عبده » قد استطال وتعرق وبات غابة عظيمة الاتساع والأهمية ، يجىء لها المقاولون من كل المدائن لشراء بلحها على أمه ، وموسم قطع بلحها يعتبر مهرجانا تحبه البلدة وتنتظره حيث يستفيد منه

معظم الناس والأطفال . العجيب أن صاحبها كان اسمه المعلم عبده مثلما هو باق حتى اليوم ، فقد أطلعنى أحد أحفاد هذا المعلم العجيب على شجرة العائلة فوجدت فيها عشرات من المعلم عبده كانوا مشرفين كلهم على النخيل ، حتى ليخيل الى أن كل من يشرف على هذا النخيل يغير اسمه فى الحال الى المعلم عبده . المهم اننا لا نعرف الآن أيهم كان فى الترتيب زمنذاك هل هو المعلم عبده الثانى عشر ، أو الثالث عشر ، الله وحده يعلم ، ونحن ايضا نستطيع أن نعلم بحسبة بسيطة فى عمر النخيل ، فالولد « حصاوى » العجوز المتخصص فى قطع البلح ورعاية النخيل يستطيع تحديد عمر النخلة من حراشيفها ومن جريدها بل ومن طعم بلحها .

على أن الذى يتأكد منه « أبو سماعين » هو أن « المعلم عبده » صاحب النخيل وقتذاك كان لديه ولدان أحدهما يدعى « عزيز » والآخر يدعى « وهيب » أما « عزيز » فقد كان على غرار أبيه فيه الكثير من جلافة جده الأكبر ولؤمه وميوله العملية ، لا يكف عن تخطيط المشاريع للاستفادة من بلح النخيل ، حتى ان بلح نخيله كان بفضله يصل الى روما والى الهند والسند مغلفا فى علب تحمل اسم عزيز وجده المعلم عبده ، وكان أيضا يتاجر فى الخنازير ويجنى من ورائها ربحا كبيرا . أما « وهيب » فكان نشيطا ذكيا صافى النفس مجنونا بالفن ، يصنع من سعف النخيل أنواعا مختلفة من السلال الأنيقة بل ومحافظ للورق والنقود وشلت للجلوس وطواقى وعباءات كانت كلها تسافر هى الأخرى الى روما ومكة ويتلهف عليها الأغراب . وكان كريما يجود ببساطة بلح كاملة لأم لا مال لديها تشترى به بلحا لأولادها وكان ينفق عن سعة ، ويحبه كل الناس .

ما كاد نظام « الارتباع » يؤوب الى استقرار تام للمسلمين فى القرى حتى تحولت « شباس الخط » الى حركة دائبة دائمة ، انتقلت ملكية بعض حقولها الى ناس من الوافدين الجدد ، واقيمت بعض الدور على الطراز العربى فى بقع متناثرة ، وكانت كل قبيلة تستقل لنفسها بخط أو قطعة أرض يبنون فوقها ، ظلت هى

الأخرى حتى وقتنا هذا ، انظروا مثلا الى بلدة « قزمان » المجاورة لنا ، تجدون لهجتها فى الكلام غير لهجتنا ، فلهجتنا العامية تنطوى على فصاحة فى النطق ولباقة ، محتفظة بايقاع اللهجة القرشية ، مما يدل على ان القبيلة التى استوطنت قريتنا كانت بطنا من قريش ، أما لهجة « قزمان » فمعووجه ولا نكاد نفهمها مع ان المسافة بيننا وبينهم لاتزيد على ثلاثة كيلو مترات ، مما يدل على أن القبيلة التى استوطنتها كانت من الأعاجم الذين دخلوا فى الاسلام ، وهذه ظاهرة معروفة فى كل انحاء مصر ، كل قرية وكل كفر له لهجة مختلفة فى نطق الكلام ، مع أن الحياة والعادات قد باتت واحدة .

كان ذلك فيما مضى يثير بهجة المصريين المسيحيين أى نعم ، ويصنع حالة رواج بينهم ، الا أن المعلم عبده بدأ يحس بالقلق الشديد حين رأى ابنه « وهيب » يدمن العلاقة بالمسلمين ويصادقهم بعمق ، ويكثر من التردد على مجالس العلم ودروس الوعظ التى تقام صبح مساء فى المساجد والزوايا الصغيرة والمصلات التى بدأت تنتشر فى كل مكان وعلى شطآن الترع والطرقات . ان هى الا شهور قليلة حتى فوجىء « المعلم عبده » بأن ابنه « وهيب » قد اسلم وانتهى الأمر ، بل وقطع شوطا طويلا فى تعلم اللغة العربية الفصحى ليقرأ بها القرآن كما أنزل . على ان انزعاج الأب لم يدم كثيرا فسرعان ما وجد نفسه مرغما على قبول الأمر الواقع ، وكان يزور ابنه « عزيز » يوم الأحد فينتظره حتى يعود من الكنيسة ، ويزور ابنه « وهيب » يوم الجمعة فينتظره حتى يجىء من المسجد . ظل كذلك حتى هلك ، وكان « عزيز » صاحب مال كثير فانتحى بأولاده الكثار ركنا قصيا فى البلدة القديمة الجديدة ظل يكبر مع ازدياد ذريته حتى كاد يصبح بلدة داخل البلدة ولم يكن لدى « وهيب » مالٌ يذكر ، وأولاده قليلون ، فانتقل الى الشاطىء المقابل من بحر السبيل وابتنى لنفسه ولأولاده بيتا مكونا من عدة بيوت داخلية صغيرة ، كان يستقبل فيه زواره من المسلمين والمشائخ ويقيم حلقات الدرس والذكر طوال النهار ، ففى هذا المكان جلس رجال عظماء من الفقهاء والصحابة ، من

بينهم سيدنا « عمير بن عبدالله بن عمر بن الخطاب » الذى افتتن بهذه المنطقة فاستوطنها بأهله وولده وكانت تجيء له الوفود حتى عرفت البلدة باسمه : « شباس عمير » ثم ان « وهيب » قد مات ودفنه المسلمون فى زفة كبيرة مهيبة وضعوا له ضريحا بين الأولياء ، لكن اولاده تفرقوا عاما بعد عام ، فابتنوا لأنفسهم بيوتا فى أماكن بعيدة ، ومشوا فى حب الله يرتحلون ويجاهدون . الى ان جاء يوم منذ اعوام بعيدة جدا نشط فيه أحد الحجاج المسلمين وابتنى هذا السبيل العتيق فوق البقعة التى مات فيها « وهيب » ، مؤكدا ان « وهيب » قد زاره فى المنام وأبلغه بهذه الرغبة . بعدها بأعوام جاء رهط من الصيادين ألقاهم بحر السبيل على هذه البقعة المباركة فاستوطنوها وابتنوا هذه العشش والأخصاص . وسميت « عزبة السبيل » .

« أبو سماعين » يحب « عزبة العلمين » أو عزبة السبيل — دون غيرها من بقاع بلدتنا ، لكونها على احلى تحويدة من منعرجات بحر السبيل ، اذ تبدأ من ناصية المنعرج وتأخذ من الشاطىء بطنا صغيرا ينتهى بالسبيل ، الذى هو عبارة عن بناء من الأسمنت يشبه الضريح الصغير له اربع نوافذ تطل على الجهات الأربع فوق كل نافذة كوز من الصفيح ، السبيل ممتلىء على الدوام لحافة النافذة بالماء ولا أحد يدرى من الذى يملأه كلما فرغ ، ومياهه ليست من مياه بحر السبيل العكرة بل من مياه الترعة الجارية . كل آيب من الحقل أو ذاهب اليه يقف ليشرب ولو على سبيل جبران الخاطر . يوم السوق يكون منظره مثل كعبة صغيرة يتجمع حولها الحجاج من كل ناحية . فاذا جلس « أبو سماعين » تحت ظل صفصافة منزوية خلف السبيل استطاع أن يسرح بنفسه جيدا كيف يشاء دون أن يزعجه أحد ، وفى نفس الوقت يتلقى القروش والملاليم من المارة الذين يستوقفهم السبيل فيروى غلتهم ويرقق نفوسهم ، مع أنه كان يختلس كوزا من كيزانه فيصنع له يدا من سلك ملفوف حوله ، يشعل تحته حطبا ويسوى زردة شاى .

وراء « عزبة العلمين » مباشرة يوجد دكان « المعلم سعد الله » الترزى ، وهو الدكان الذى أتعلم فيه الخياطة مع رهط من الصبيان . وكنت أرى « أبو

سماعين » فى بعض الأحيان مقبلا من داخل « عزبة العلمين » نحو شارع داير الناحية . فلا يكاد يصل الى رصيف الدكان حتى يرتمى جالسا : « تشرب شاى يامعلم سعد الله ؟ » فمن خلف بنك التفصيل الخشبى يرد المعلم سعد الله : « ولَّعْ » ، ويرمى لى بقرش تعريفة اى خمسة مليمات ، اشترى به شايا وسكرا . أعود فأرى « أبو سماعين » قد ترك الوابور يهب على مزاجه ، أتولى عنه تسليكه وعدل شعلاته ، اغسل البراض والكوبين ، اوصيه أن يعمل حسابى ولو فى شفطتين من الدور الثانى . يزم شفتيه ويمطهما ضاحكا : « هو هو .. و .. » » قصيرة مكتومة اذا كانت أعصابه سائبة . أداعبه ضاحكا : « الله يخرب بيت اللى زرعه » . ينظر لى غاضبا ، يعاقبنى فلا يعطينى شفطة شاى . غير اننى لم أكن أزعل منه أبدا . فلأمر ما ، لم أكن أدريه على وجه التحديد ، كنت أحس بقرب نحوه ، وألفة ، ربما لأننى فتحت عينى فرأيته أحد الزوار الأصلاء لدارنا دون ان يكون له برواز معين نعرفه فيه ، فهو « أبو سماعين » وكفى . بعدها رأيته فى كل مكان بلا استثناء . وكنت أحب الاستماع اليه اذا تكلم ، مع أنه نادرا ما يتكلم ، لكنه اذا تكلم ، خرج صوته من تحت أنفه ، لا هو أخنف تماما ولا منطلق تماما ، لكن لهجته فى الكلام تختلف عن اللهجة التى نتكلم بها نحن كلنا ، أعنى أهل بلدتنا ، فليس فى لسانه تلك العوجة الفلاحية التى تخلخل ايقاع الحروف ، إنما لهجته أقرب إلى لهجة البندريين ، حيث الحروف السريعة الايقاع واضحة بارزة ، وحرف الجيم ينقلب الى همزة ، والنطق فيه رقة ، وتتخلل كلامه ألفاظ فصيحة كالتى نسمعها فى القرآن . فكنت أعجب لذلك ، ويتحول العجب إلى كثير من الاعجاب الغامض . وقد بات هذا الاعجاب كبيرا حين علمت من معلمى « سعد الله » أن « أبو سماعين » هو الذى أعطى عزبة السبيل اسم « عزبة العلمين » بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة .

إذ أن « أبو سماعين » نظر فى هذه العزبة فوجد ان كل المعارك التى كانت تدور رحاها بالنبابيت والفئوس بين شرق البلدة وغربها ، او بين شمالها وجنوبها ، كانت تنتهى فى هذه العزبة ، فعندها يرتد المهاجمون ، وفيها يهرب المهزومون ويقول

لك الواحد منهم مفاخرا : « رددناهم كالخرفان حتى عزبة السبيل » أو يقول لك آخر : « ولم ينقذنا منهم سوى وجود عزبة السبيل » : غير ان العزبة بحكم وقوع ظهرها فى حضن الجهة الشرقية للبلدة وجدت نفسها حليفة لها ، فما ان يغير على اهل البلدة أهل جهة من الجهات الأخرى حتى يخرج من هذه العزبة عشرات من الولدان الحفاة فى أسمال بالية ، ونساء مجفرات هائشات كالغولات ، ورجال أجسامهم تشبه المجاديف والكائنات البحرية ، يمسكون العصى والطوب وغطيان الحلل ، فلا يجد المغير مفرا من الارتداد ، ولابد أن يجد فى صفوفه كثيرا من المصابين ، ولابد أن تكون كل هذه الاصابات من كائنات « عزبة العلمين » كما

يسميهم « أبو سماعين » . الا أن الكرّة الكبرى الفاصلة — بتعبير أبو سماعين — قد منيت بها عائلة السوايفة ، أسرة العمدة ، وهى عائلة يتفشى فيها الجنون ، فى كل جيل لهم اثنان أو أكثر فى مستشفى الخانكة ، مع ذلك كان العمدة « محمد عبد المنعم أبو سيف » يريد تسييد عائلته على أهل البلدة فى كل مكان ومجال . كان « أبو سماعين » يسمى هذا العمدة « هتلر بلدنا » ، فلما أشيع أن هتلر قد أسلم وسمى نفسه « الحاج محمد هتلر » ضج (أبو سماعين) بالتصفيق والهتاف الساخر : « هو هو هو .. و ..و .. » .. خلاص .. أصبحوا واحد .. زى بعض فى كل حاجة .. الدم يحن ياجدعان .. العمدة كان مثل هتلر .. وهتلر أصبح مثل العمدة .. وقد طلع الحجاز هو الاخر .. مثل العمدة .. ولم يجد له اسما يختاره سوى اسم الحبيب محمد .. الذى اختاره العمدة من قبل .. الحاج محمد هتلر .. هو هو .. و .. و .. » ..

يوم ذاك حكى لى « أبو سماعين » شيئا لم أكن أعرفه عن أبى . إذ حدث وأنا بعد وليد لا يعى ، كذا وكذا وكذا . يدهشنى من كثرة ما يعرفه عن أبى وأسرتنا مما حدث قبل أن أجىء أنا إلى الوجود . ويبدو أنه لصيق بأسرتنا منذ سنين طويلة ، ولابد انه كان يشرب الشاى مع جدى الكبير « الكلاف بيك » فى مندرتنا العتيدة . كنت ألاحظ انه يتحدث عن أبى وعائلتى بكثير من الاهتمام

الحقيقى كأنه يتحدث عن العائلة المالكة ألمس الصدق فى نبراته ، فيداخلنى العجب من أنه هو بالذات يكن لعائلتى كل هذا الاحترام الذى يؤكد أنه لامسنا من الداخل وعرف عنا ما لم يعرفه أحد ، لدرجة أن سيرة أحد من أسرتنا اذا جاءت فى قعدة هو موجود فيها فان المتحدثين اذا اختلفوا حول نقاط تغمض عليهم فانهم ينظرون حواليهم باحثين عنه قائلين : « مش كده برضه يابو سماعين ولا احنا غلطانين ؟ » فينبرى « أبو سماعين » مصححا الاسم أو الواقعة أو اليوم ، يضيف مزيدا من المعلومات المبهرة لى ، كأنه المؤرخ المتخصص فى عائلتنا دون غيرها من عائلات البلدة ..

حكى « أبو سماعين » قائلا ان أبى لم يكن له هم فى الدنيا سوى محاولة القضاء على العمدة بأى شكل . فقد كان أبى « عبد الفتاح افندى الكلاف » موظفا كبيرا فى هيئة فنارات الاسكندرية قبل ان يحال الى التقاعد فى بلدتنا حيث يقيم إخوته الذين يفلحون أرض أبيه ، الذى كان بدوره موظفا خطيرا فى الخاصة الخديوية ، ولا يقولون لى ما هى الوظيفة على وجه التحديد ، ولكن اسم جدنا الكلاف كلما طرأ على بالى أيقنت أن جدى لم يكن سوى كلاف يعنى بطعام حيوانات أفندينا من خيل وأبقار ، ومن ثم فاسم جدنا اسم على مسمى ، وحينما سألت « أبو سماعين » فى هذه النقطة صاح ضاحكا كأنه يسخر منى : « هو هو .. و .. ه .. ودى شوية ؟ » وكان أبى وفديا كبيرا ، والعمدة « حرا دستوريا » كبيرا أيضا كما يدعى ولكنه فى الواقع لا مبدأ له ، انه سويفى وحسب ، انه عائلته التى بفضل ثرائها ونفوذها يبقى هو حارسا لمصالحهم جميعا فى بلدتنا . وكان أبى قد بلغ من العمر سبعين عاما ومع ذلك تبدو العصا مجرد زينة فى يديه لا أكثر ، يطوحها كيف يشاء ، ولا يمل من السفر الى مواقع الحكام الكبار ، وكتابة العرائض وجمع التوقيعات عليها ، وتكوين جمعية كبيرة تضم الجمعيات الثلاث التى كانت مناهضة للعمدة ولكنها تختلف فيما بينها حول أشياء فارغة زرعها فيهم أقطاب الأحزاب . كان يستقبل مرشح الدائرة الوفدى ، يفتح له

مندرتنا الكبيرة ، يقدم للحشود شايا وشرابا على شرف الزائر الكبير ، يقف خطيبا مفوها ، يهتز من فصاحته حتى المرشح نفسه مهما كان بليغا ، يعلن أبى باسمه وباسم كافة اهل البلدة مطلبا رئيسيا : اجلاء العمدة عن منصبه وتحييد أهله عن أهل البلدة .. كالعادة يقف المرشح ليعلق ، فيدارى ارتجافه الواضح بعبارات حماسية تحتمل أكثر من معنى ، فى كتمان يميل على أبى وأقطاب الحشود هامسا بأن كل شيء سيكون على ما يرام .. فى العادة أيضا يأخذ المرشح الدائرة ثم يختفى من البلدة نهائيا بعد النجاح مباشرة فلا يزورها مطلقا ، بل قد لا يزور بلدته نفسها . الى أن جاء ذات عام مرشح يدعى « البرقوق » زار مندرتنا وكل المنادر الكبيرة فى البلد ، وقدم الناس بين يديه مطلبهم العتيد العسير : « اختيار عمدة جديد من عائلة أخرى متواضعة وليس بينها وبين البلدة مشاكل تاريخية » وقد وعد « البرقوق » خيرا ، فلما نجح اختفى هو الآخر ، ثم كان لابد ان يجيء البلدة غصبا عنه مرة اخرى لكى يدعو لاعادة انتخابه دورة ثانية ، فكانت فرصة أمام « عبد الفتاح افندى الكلاف » ــ أبى ــ حيث استقبله فى مندرتنا ، وألقى بين يديه قصيدة شعر عصماء تغنت بها البلدة شهورا طويلة ثم باتت مجرد خبر مدعم ببيت واحد منها وربما شطرة واحدة .. الا أن ذاكرة « أبو سماعين » هى التى حفظتها كاملة ، بل حفظت لهجة أبى وهو يلقيها :

لله درك يابخاس من بطل	لازلت سيفا على الاعداء مسنونا
ويا آل برقوق أخذنا بأيديكم	وانتم لم تأخـــذوا بأيدينـــا
فان كانت عمد القرى فى الميادين	تقهركم .. فعنكموا خلوا الميادينا
ولا لوم على شخص جل أسرته	قد شرفوا معقل الخنكا مجانينا
الســـداء ميراث إلى أبشركم	عما قريب تراه الناس مجنونا

ينتعش « أبو سماعين » فجأة وهو يصل الى هذه النقطة من الحكاية ، تدب فيه حيوية شديدة رغم ضيق عينيه وسجنهما خلف شبكة من العماص

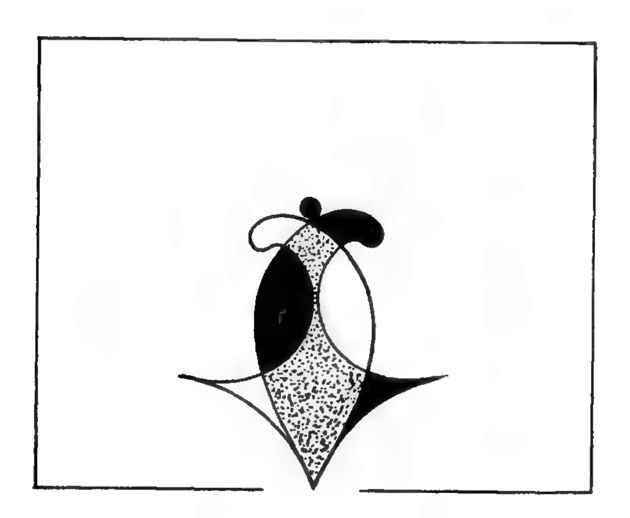
الناشف . يداخلنى اشفاق عجيب عليه ، أظن أن لو فى حوزتى نقودا لاشتريت له قطعة الأفيون حتى يظل هكذا منجليا على الدوام . يداخلنى كذلك عجب ، أكاد أبكى كلما عجزت عن تفسيره ، ذلك هو الرعدة التى تنتابنى كلما سمعت اسم الأفيون كأننى على وشك ارتكاب عار او الوقوع فى الوحل والوضاعة فهكذا ينظر كل أهل بلدتى لمدمنى الأفيون فى بلدتنا ، مع أننى بعينى رأسى هاتين أراهم جميعا يتسللون فى خفاء أو تحت ستر من ليل فيطرقون باب « السيد الشيال » أو ابن أخيه « عبد الرازق » بجوار « عزبة العبيد » ، أو « الهوارى » فى غربى البلد . انهم جميعا يشترون الأفيون والحشيش وكلهم يشربون ويدخنون . كثيرا ما يغرينى أحد الوجهاء بقرشين أو قطعة حلوى ليرسلنى اشترى له شيئا ، أدس النقود فى يد البائع قائلا : عم فلان الفلانى يصبح عليك ويقول لك هات الأمانة ، فيعرف البائع بالضبط مزاج زبونه ، ان أفيونا فأفيون او حشيشا فحشيش ، خاصة أن حجم نقود الأفيون اقل فى العادة من المطلوب للحشيش .

أبى نفسه كنت أضبطه فى كثير من الأحيان يفتح ورقة سلوفان صغيرة يخرج منها عدساية سوداء يدسها خلسة فى فمه ويشفط الشاى متلمظا .. فأعرف انه يتأهل نفسيا لاستقبال بائعى العسل « هادى » و « فرماوى » الصعيديين اللذين يلفان البلدة دارا دارا ، يغريان الجميع بشراء بلاص عسل يدفعون ثمنه وقتما يشاءون ، وفى وقت معلوم يمران من جديد على أهل الدور للمطالبة بالدين . فكانت تحدث مناظر لا أنساها وصور من الهروب والعراك ، ومن التذلل والتبجح لا نهاية لها ، ولم يكن أبى يستطيع أن يهزمهم فى الكلام الا اذا استعان بهذه القطعة التافهة التى يكاد أمرها يصبح شغل الشاغل فى الحياة ، ما أن يذيبها أبى فى حلقه ويلاحقها بالشاى حتى يكون الصعيديان قد تجاوزا حارة الجرن واقتحما حارة العصارة وصارا على أبواب حارتنا ، وأصوات العراك والاحتجاج والمساومات قد بدأت تصلنا ، دقائق قليلة ويدخلان : السلام

عليكم ... ثم يجلسان على الكنبة ، ليعزم أبى عليهما بالشاى فى اصرار شديد ، أنا وحدى الذى يعرف أنه قد أذاب لهما قطعة فى الشاى دون أن يشعر أحد ، ثم انه يندمج فى كلام حلو عن الرجولة والشهامة عند الصعايدة ، ويحكى عن أشياء خطيرة حدثت لنا فى الأسبوع الماضى فأتعبتنا وافلستنا ، وعن محصول باهظ الثمن أصابه التلف ، مع أنه لا شيء من ذلك قد حدث ، الا أن الصعيديين يهزان الرأس فى موافقة وتبجيل وينصرفان على أن يعودا بعد أسبوع ، ثم يسلمان علينا فى رفق وابتسام .

كثيرا ما يفاجأ أبى بوجودى لحظة دسه للقطعة فى فمه ، فينبه على قائلا فى حزم : « اوعى حد من دكان معلمك يبعتك تشترى له حاجة كده ولا كده أحسن أملص ودانك » . فاقول له : « طيب » ثم أنه سرعان ما ينسى انه قال لى شيئا من ذلك ، اذ أفاجأ به ينادينى بحنو مفاجيء ، ويأخذنى على جنب كأنه غريب يرجونى فى خدمة ، ثم يدس فى يدى خمسة قروش ويقول لى : « تعرف دكان الهوارى ؟ » فأقول على الفور « نعم .. الذى عند الورش فى غربى البلد » . يقول : « عليك نور » ويصف لى كيف أدخل الدكان وأتجه مباشرة الى الرجل الواقف وراء البنك ذو الشعر الأبيض على الجانبين تحت الطاقية البيضاء النظيفة ، هو نصف بقال يجلس الناس عنده لشرب الشاى الذى يشترونه منه ويصنعونه بأنفسهم ، فاذا ما صرت حذاءه وراء البنك أعطيه القروش الملفوفة فى ورقة جرنان وأقول له : « أبويا فلان الفلانى يصبح عليك ويقول لك هات الأمانة » يوصينى أبى أن أضبط قبضتى جيدا على الشيء الذى سيعطيه لى الرجل الواقف وراء البنك ، وأن أعود فى الحال دون تلكؤ هنا أو هناك . اشعر بغمزات أصابعه فوق كتفى تترجم الخوف الحقيقى على والقلق من المهمة التى سأقوم بها ، وكنت أكتم الضحك لشعورى أن أبى لا يعرف أننى قد صرت حريفا فى شراء هذا الشيء ، بل أكاد أساوم البائع قائلا : « حط كان حتة » ، بل أكاد أقدم على اختبار النوع والاعتراض على رداءته ، وكنت أعرف تلقائيا أن قطعة الحشيش التى تنعجن فى

يدى بفعل العرق وسخونة تطبيق اليد هى من نوع جيد ، وأن قطعة الأفيون التى تكاد تذوب فى الورقة هى أيضا من نوع جيد . ولم يكن أبى يعرف أن المسئول عن تدريبى فى هذه الناحية هو « أبو سماعين » من كثرة ما ذهبت أشترى له ، رغم أنه لم يكن ينزل لى عن قرش أو يرشونى بشفطة شاى من الدور الأول ، انما كنت أراه فى حال لا يسر لحظة ان يرزقه الله بملیم يكمل به ثمن القطعة ، حيث أراه متكوما قرب رصيف الدكان فأنظر الى معلمى « سعد الله » ، فيهز رأسه قائلا : « روح اشترى له » ، فأحيانا اقول له : « بس ناقص تلاتة تعريفة » فيهرش معلمى فى قفاه ثم يرمى لى بنصف افرنك ــ واحد بأربعة ــ قائلا : « وهات بالتعريفة الباق شاى وسكر » .



(٦)

معركـــــة الســـوق

ما من مرة يجيء فيها « أبو سماعين » الى دكان معلمى الا ويحكى عن قصيدة أبى ، أو عن موقف شجاع وقفه ناس ربما كانوا من بلدتنا أو من بلاد أخرى ، حتى أن الأولاد بفضله أصبحوا يحبون الشعر ويحبون القاءه بنفس الطريقة المفخمة التى يقول انه يقلد بها أبى ، وعدد كبير آخر من الأولاد كانت تدب فيهم الشجاعة فى محضر « أبو سماعين » يحاولون الظهور امامه بمظهر الشجعان ، الرجال ، المؤدبين ، طمعا ان يضمهم « أبو سماعين » ذات يوم الى قائمة من يحكى عنهم بكل هذا الحب .. وأصبح من المألوف ــ بفضله وحده ــ ان ترى أولادا من تلامذة المدارس يتجمعون فى حوداية أو على ناصية طريق تتدلى المخالى من اقفيتهم ، ويدخلون مع بعضهم البعض فى حوار شعرى يشبه القوافى التى كنا من هواتها فى ذلك الوقت حيث يقف واحد لواحد وكل منهما يسخر الآخر بكلمات نابية على القافية ، قافية الطبيخ مثلا أو الآلات الزراعية أو أى شىء تكون له حصيلة من الألفاظ المستخدمة فيه يمكن قلبها الى نكتة تنال من الطرف الآخر فى شخصه أو أمه أو أبيه ، وثمة قافية أخرى كنا نلعب بها فى زمن الفسح بين الحصص كانت نموذجا مطورا من قافية : « اشمعنى » فبدلا من ان يقول الواحد لغريمه : أبوك .. ليرد الغريم قائلا : اشمعنى .. فيرد الواحد قائلا : حمار .. مثلا مثلا اذا كنا فى قافية الحيوانات . تلك القافية التى كانت تعتمد على حصيلة الواحد من الألفاظ البذيئة المسجوعة فى سجع موزون ، أو مصاغة فى صور غريبة ، من قبيل : « ابوك بياكل حاف والفسيخة متعلقة فى شنبه » أو : « ابوك

نزل بلاص المش ابتلعته دودة » أو : « أبوك نزل لمبة الجاز طلع يبدل على الشريط » . وكان بعضنا يبلغ فى ذلك حدا من البراعة وخفة الدم لا تبارى ، والويل لمن يتعرض للقافية وينهزم ، الموت أرحم له بعد ذلك من المقلتة والهزء كل يوم ، يصير ببساطة مطية للهازئين . فى مرة ادركنا جرس الحصص فجأة اثناء مساجلة لى مع أحد الصبية وكنت من البارعين فى ذلك ، وكنت لحظتها متقدما على الصبى ، وقد توعدنى فى الفسحة المقبلة ، فلما بدأت الحصة كنت منشغلا بأمر واحد هو تدبير صور الهزء والسخرية التى سأسلق بها غريمى بعد الحصة ، ولم يكن مفر من أن ادون ما يطرأ على خاطرى من مثل هاتيك الصور ، وفيما كان المدرس منهمكا فى الشرح ينبح صوته رائحا جائيا بين صفوف التخت التى نجلس فوقها مستمعين متنبهين ، كنت أنا منهمكا فى كتابة ما يعن لى خلسة ، أسرب يدى تحت الكتاب حيث توجد ورقة منفصلة ، وأخط بسرعة بعض الكلمات .. فما أدرى الا والمدرس — عافاه الله — يطبق على عنقى من الخلف بأصابع مثل كلابات الحديد ، ثم يوقفنى ، ثم ينهال على صفعا ، ذلك أنه كان قد راقبنى خلسة وتمهل خلفى مرسلا عينيه فيما أكتبه ، فلم يكفه أن سوّانى من الضرب بل دفعنى خارج الصفوف عند السبورة وانهال على من جديد صفعا وتشليتا وسبا فاحشا ، حتى لقد انزعج الناظر من صراخى المتفجع فخف الينا مستطلعا وخلفه المدرس الأول ، والسكرتير والمهدى الفراش ، وقفوا جميعا ذاهلين والمدرس يقول دون أن يساله أحد « أنا حاقول لكم عمل ايه الكلب ده .. اللى مش مترلى .. خد » ، ودفع الورقة فى صدرى صائحا وهو ينتفض من الغيظ : « اقرأ لحضرة الناظر الكلام الفارغ اللى انت قاعد تكتبه وانا بانبح فى صوتى طول الحصه .. اقرأ » فأخذت ارتعش وامعن فى البكاء حتى يرق ويعفينى من القراءة ، لكنه ينهال على ضربا من جديد صائحا : « اقرأ يابن الكلب .. اقرأ » ، فلا أجد مفرا من ان اقرأ ، فأروح أقرأ من خلل البكاء المتصايح ما كنت اكتبه : « آه .. آه .. أ ..أ .. أبوك بياكل حاف والفسيخة متعلقة فى شنبه .. اهىء .. اهىء » فيصفعنى : « اقرأ ياكلب » ، فأقرا باكيا وأبكى قارئا : « اهىء . ابوك نزل

بلاص المش ابتلعته دودة » . ورغم ان حضرة الناظر أبعد وجهه واستغرق فى الضحك العنيف الصامت فانه أدار وجهه متجهما ثم قال : « اجرى ياولد هات ولى امرك » ولم احضر ولى امرى بالطبع ، وكذلك لم يسألنى احد بعد ذلك أين ولى أمرك .

بفضل « أبو سماعين » وحده — دون ينتبه أحد لذلك — أصبحنا نجد غراما فى اختلاق الشعر والكلام الموزون الرنان ، ونجد كذلك غراما فى ترديده بصوت عال نحب اصواتنا وهى تردده . من حسن الحظ أن كان لدينا تراث هائل من الأغانى والمواويل التى نرددها أبا عن جد فى الحقول والأفراح ، فصرنا نستلهمها ونكتب على غرارها كلاما يعكس معناها الأصلى الى معنى هزلى مثير للضحك . لكن الأولاد الأكبر منا واعنى بهم الشبان المرموقين فى البلدة من الموظفين فى الميرى أو التلاميذ الكبار الذين يتعلمون فى المدينة — كانوا افرس منا ، اذ كانوا يأخذون نفس الكلام الذى عكسنا معانيه ويضيفون اليه شيئا يسيرا ربما لفظا او حرفين ، ليتحول المعنى على الفور تحولا تاما وتصبح الاغنية كلها سخرية من العمدة واهله ، او تنديدا بمواقفهم الظالمة . وكانت الآذان فى عموم البلدة تجد لذة سائغة فى الاستماع الى هذه الترديدات وتطرب لها وتعوّد القوم ترديدها ضاحكين ، حتى اصبح كبار القوم انفسهم يشاركون فى عملية التأليف الشعرى الفورى الغنائى مواويل كانت او اغنيات .. فتجاوزت الأغنيات حدود عائلة العمدة وصارت تلاحق كل ظاهرة تطرأ على البلدة ، واذا كانت من تحبل فى مكة يجيء بأخبارها المجاورون كما يقول المثل فى بلدتنا فان هذه الأخبار اصبحت تجيء شعرا موزونا متقنا محملا بالمعانى والصور الغريبة .. لقد باتت الأغنية فى بلدتنا كأنها المؤرخ الذى يدون حتى الخلافات العائلية واخبار الولاد الساقطين الخائبين فى الدراسة . وقد اصبحت بلدتنا تتميز عن البلدان المجاورة بكثرة أغانيها حيث لكل شيء يحدث فيها اغنية لابد ان تشتهر بسرعة الريح تحتضن جذوة ملتهبة . البلدان المجاورة تعرف عنا كل شيء من خلال الأغانى ، ومطرباتنا رائجات فى افراح هذه البلدان ،

وكلهم صور تتضح أو تبهت من « نظيمة المهدى » وكلهن أيضا أشبه بالعبيد لولا بياض قليل جدا يشوب بشرتهن ويحولهن الى ساحرات فاتنات تضفى عليهن الأغانى وهن يرددنها فيضا من السحر والجاذبية . البعض فى هذه البلدان يقول ان السبب فى اشتهار بلدتنا بالأغانى هو وجود « نظيمة المهدية » ، فيها ، والبعض الآخر يقول ان السبب هو وجود « عزبة العبيد » نفسها . ولم يقل احد ان السبب الحقيقى هو « أبو سماعين » حتى الأولاد الأشقياء فى بلدتنا ، الذين يسرحون بعقولنا فى الأجران ، والذين لا تخفى عنهم خافية — يشيرون الى ان الأغانى التى تغنيها « نظيمة المهدى » فى الأفراح ألفتها بنفسها فى حب « أبو سماعين » ولم يقل أحد ، أو ربما لم يخطر على بال احد ان « أبو سماعين » ربما كان هو الذى يؤلفها لها أو يساعدها فى تأليفها بكثرة ما يحفظه من شعر الأقدمين والمحدثين فصحى وعامية يحفظها كأنه خزانة حافلة يفتحها وقتما يشاء ليلقى عليك سيلا من الكلام الحلو الموزون المليىء بالصور والمعانى ، وفى النهاية يقول لك ظافرا ان ذلك كان جزءا من بردية البوصيرى أو نونية المتنبى أو ميمية أبى العلاء واذا تصادف وجود أحد من الأزهرية فى المجلس يحفظ هذه الأشعار فان « أبو سماعين » لابد ان يصحح له كثيرا من الأخطاء ، ويبلغه بكثير من المعلومات ، وربما القى عليه تشطيرا لهذه القصيدة أو تلك شطرها فلان ابن فلان فى العصر الفلانى .. ناهيك عما لديه من اشعار لا تنتهى عمن يسمى بابن عروس وعن جحا وأبى النواس .

ما من مرة يحكى فيها قصيدة أبى ويجىء على نهايتها الا ويشوح بيده نحو « عزبة العلمين » تشويحة فيها كثير من الاحتقار لشأنهم ، ويقول انها — القصيدة — التى كانت ذات اثر كبير فى معركة السوق الشهيرة التى قام بها هؤلاء الرعاع وكانت فاصلة غير انه وهو ينطق كلمة الرعاع نحس انه يقصد العكس تماما بل نحس ان الكلمة رغم انها لفظ تحقير فانها تعكس حبا عميقا .

سوق البلدة يقام فى مكان قريب من قصر العمدة . أرض السوق كانت ملكا للعمدة ، وقد اقام حولها سورا متينا من الحديد والأسلاك الشائكة ، وملأها

بطائفة من الدكاكين الخشبية الصغيرة والتندات والتريبعات ، بحيث يكون لتجار الأقمشة جناحهم وللخضرجية ساحتهم وللفكهانية تعريشاتهم وللسماكين حلقاتهم ولتجار الحبوب مخازنهم وللحمارين وتجار المواشي مرابطهم . كان في الحق سوقا بديعا ، لكنه كان مصدر مخاطر لا تنتهى ، فالعمدة يغالى فى تحصيل الايجارات مغالاة أعجزت الكثيرين من التجار الصغار ، حتى بات السوق قلعة لا يدخلها الا عدد محدود من التجار العتاة ، يبيعون لأهل البلدة بأسعار من نار ، ويتدخل افراد من عائلة العمدة وما اكثرهم ، اذ يفرضون وصايتهم على البيع والشراء بصفاقة بندرية مفتعلة لا قبل لأحد باحتمالها ، أحيانا يقومون بها لمجرد خلق المشاكل .. ولم يكن لمشتر ان يلح فى المساومة او يجهر بالاعتراض أو الاحتجاج . ذلك أن معظم التجار كانوا أذكى — كالعادة دائما — من كل المشترين ، اذ بات لكل منهم حماية معروفة من عائلة العمدة يأخذ الحامى فى مقابلها كل ما يشاء من بضائع ، فيضطر الباعة الى فرض زيادات جديدة كبيرة على سلعهم ، مع أن المفروض هو العكس فى يوم السوق بالذات .

حاول الباعة الصغار ان يجدوا لأنفسهم مكانا قريبا من السوق ولو على ضفاف الطريق العام المؤدى الى مقر السوق ، لكن زبانية العمدة من خفراء ومدنيين تكفلوا باجلائهم وبعثرة بضائعهم . وبات الأمر صعبا للغاية . وبعد ان كانت العائلات ترسل بناتها لبيع بعض كيلات القمح من خزين الدار لتفريج عسرة ، اصبحت معظم العائلات ترسل شبانا ، وحينئذ لا يكون ثمة مفر من معركة يعلم الله نتائجها .

ذات يوم فيما جرابيع « عزبة العلمين » يرددون شطرا من قصيدة أبى هو الشطر الذى اعجبتهم طرافة معناه : « قد شرفوا معقل الخنكا مجانينا » جاء حينئذ رهط من شبان البلدة أعضاء الجمعيات التعاونية ، وقالوا لأبناء « عزبة العلمين » :

— واد انت وهو .. السوق بكره .. وحننقله هنا جنبكم على طول .

استحسن الأولاد الفكرة وقالوا كلهم : « اما حتة عملة .. طب والعمدة » قال الشبان : « مالكمش دعوه .. ابقوا خلوا بالكو من البياعين وخلاص » . وفى فجر اليوم التالى كانت مجاميع الشبان قد وقفت بكل أدب على جميع مداخل البلدة ، ووقف آخرون عند مفارق الطرق . كانت مهمة الواقفين عند المداخل ان يحولوا سير القادمين للسوق فيحولونهم الى مقره الجديد ، حيث اختاروا له فضاء كبيرا على شاطىء بحر السبيل متاخما لعزبة العلمين . وكان على الواقفين فى مفارق الطرق ان يرشدوا الباعة الى المقر الجديد حتى اذا ما ظهر قرص الشمس وسط بحيرة من دم الولادة المتعسرة لذلك اليوم كان بعض التجار الكبار قد تمردوا على الشبان واخذوا طريقهم المعتاد نحو السوق الأصلى ، فى حين سلم الباقون عن طيب خاطر . وكانت الأرض الفضاء قد سقطت فوقها الشمس وازيحت عنها اكوام السباخ ، وسرعان ما انتصبت فوقها خيام وتعريشات ، وانفتحت شمسيات وافترشت اجولة ومشمعات ، ونصبت موازين وسبيات لحم . وما كاد ابناء العب الشرقى والجنوبى ينعمون بهذا التجمع الصاخب البهيج حتى عادت الدماء تصبغ وجه الشمس من جديد ، وصوّات النساء يتردد صداه فى الأفق ، فما أسرع ما كفت الحركة تماما ، وما اسرع ما تكومت الأفرشة والبضائع واعتصم الباعة بالصمت والترقب ، لكن جرابيع « عزبة العلمين » فتحوا بيوتهم الطينية الواطئة لمن يريد الاختباء ، ثم خرجوا . وكان لفيف من الشبان اعضاء الجمعيات التعاونية وغيرهم قد اندفعوا فى جرى يحملون العصى والنبابيت والكريكات ، واذا بعائلة العمدة قد ساقت الخفراء أمامهم وجاءوا لإسترداد السوق عنوة واستقدارا ، فاشتبكوا مع الشبان الواقفين عند مفارق الطرق ، وتبادلوا الشتائم التى تطورت الى ضرب اعقبه صوات النساء ، ثم ان جميرا خرافيا قد بدأ يقترب نحو ارض السوق الجديدة ، ثم ظهرت رؤوس الخفراء تلمع فوق لبدتها النحاسة الصفراء الحاملة رقما ، واطراف البنادق تطل من وراء اكتافهم ، وخلفهم عدد مهول من شبان عائلة العمدة المسلحين بالعصى ، وكانوا يضربون كل من يعترضهم او يلقاهم . لكن صفوفهم المخترقة سرعان ما بدأت تتفتت على مشارف عزبة العلمين ، حيث

كان نساؤها قد ملأن طسوتا من طين المصرف وصرن يرسلنه فى تكورات تصيب الوجوه وتعمى العيون ، فى حين تكفل فريق الصبيه بارسال قذائف من الطوب والدبش لا تخيب واحدة ولا تهيف ضربة . ولما لم يكن لدى الخفراء امر بضرب النار فإنهم تسللوا خارج الصفوف ثم انسربوا عائدين لابلاغ العمدة . فى حين انفرد الشبان بابناء عائلة العمدة فأشبعوهم ضربا وطاردوهم حتى فروا مذعورين . وأصر الشبان على اقامة السوق فى مطرحه الجديد ، ووقفوا يحرسونه والدماء تسيل من وجوههم .

عند الظهيرة كان العسكر السوارى قد اقبلوا يتقدمهم مأمور المركز بنفسه . حيث اخترق زحام السوق بخيله وداس فوق البضائع ، وسأل فى كثير من العنجهية والسوقية عن السبب وراء تمردهم على السوق القديم . فقالوا عشرات المئات من الأسباب ، فأمرهم بالكف عن الترثرة والنزوح الى مقر السوق الأصلى بالرضا والتسليم ، لكنه نظر الى السوق فوجد الحركة قائمة على قدم وساق ، وان نسبة كبيرة من المجاميع المتناثرة لم تسمع بوجوده فى السوق بعد ، فأيقن من استحالة تنفيذ ما يطلب ، فشد خيله وزأر فيها وقام بحركة استعراض عنيفة خرج بها من الطرف الآخر للسوق . وفى المساء جاء المخبرون والخفراء وقبضوا على بعض الرجال والشبان ولم يطلبوا احدا من « عزبة العلمين » ، سافروا بهم المركز وبعدها بيومين عادوا ، وقيل ان قضية اقيمت لهم فى المحاكم ، وظلوا سنوات ، يتذكرون مواعيد الجلسة ويحرصون على حضورها وينفقون على المحامين وكتبتهم وكتبة المحاكم الى ان برىء الجميع ، وكل ذلك كان يهون فى انظارهم كلما تجولوا فى البلدة وشاهدوا السوق منتعشا فى المكان الذى حددوه . من يومها أطلق « أبو سماعين » على عزبة السبيل . عزبة العلمين .



(٧) المدرســــــــة

بلغة فصيحة تشبه لغة أبى وهو يخطب الجمعة ولغة المدرسين عند حماسهم حكى لى « أبو سماعين » هذه التواريخ على فترات متعددة فى أماكن كثيرة . ما كان يعجبنى فيه ويقربنى اليه انه حين كان يحدثنى لا يضع فى اعتباره أننى طفل ، بل يحدثنى كأننى رجل يجالسه ، وكان يفعل نفس الشىء مع كل الصبيان الصغار ، يحدثهم باعتبارهم رجالا كبارا ، الأمر الذى جعل بعض الأولاد يحبونه اكثر من آبائهم غير انهم لا يظهرون هذا الحب خوفا من آبائهم . فمع انه لم يظهر منه ما يثير الشبهة الا ان بعض الناس كانوا يخافون من ان يقلده الأولاد فى اكل الأفيون وفى الصياعة . أما هو فلم يكن يعبأ بشىء من ذلك وان كان يعرف رأى الناس فيه على الحقيقة . لكن احدا لم يستطع ان يؤثر على حبه للأطفال خاصة أبناء المدارس .

تصادف كثيرا ان نلتقى به أثناء خروجنا من المدرسة ، فى العادة نتلكأ فى الساحة الواسعة أمام المدرسة لكى يتجمع ابناء كل حارة واحدة ليعودوا معا ، فاذا هو يندس فى وسطنا فجأة كأنه ظهر من جوف الأرض ، واذا هو يصيح فى أى ولد منا ، أو فينا كلنا : « ولد تعرف مصطفى كامل ياولد ؟ » ثم يضيف : « طبعا لازم تعرفه .. يامن كتاب التاريخ يامن كتاب المطالعة » ومع ذلك يستطرد : « مصطفى كامل هذا هو الذى قال لو لم اكن مصريا لوددت ان أكون مصريا » .. أصله كان يحارب الانجليز بمفرده . هؤلاء الانجليز الذين يحكموننا الآن .. كان يحاربهم بمفرده . طبعا لابد انهم قالوا لكم ذلك فى كتاب التاريخ ..

طبعا لابد ان يكونوا قد قالوا لكم عن محمد فريد الذى كان يحارب الانجليز هو الآخر . ولكن .. ولكن اسمع ياولد .. قل ما تعرفه عن أحمد عرابى .. هيه .. لا يعرف أحد منكم شيئا عن أحمد عرابى ؟ .. لابد انكم جميعا فى سنة أولى .. وفى السنوات القادمة سوف يعرفونكم به .. وسوف تعجبكم قصته .. وعلى كل حال اذا لم يعطوه لكم فى المدرسة فتعالوا وانا احدثكم عنه لما تشبعوا .. ان قصته رائعة .. يكفى انه وقف امام الخديو راكبا فرسه وقال له متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا .. وفرض على الخديوى شروطه .. تعرف ياولد انت وهو ؟ من لا يعرف عرابى لا يعرف شيئا عن أصله .. انه زعيم الفلاحين .. أمير الجيش .. كان الجيش قبله ملكا للخديوى .. انما عرابى قال لا .. الجيش ملك للشعب يكون ، وانا زعيمه زعيم الشعب ، ان الفلاحين هم مصر وأنا الفلاح مصر والجيش ايضا هو مصر فكيف لا يكون الفلاح ضابطا ؟ هل ورد نص فى القرآن الكريم ــ وهو بيان الرحمن نفسه جل شأنه ــ ان الفلاح المصرى يظل طول الأبد جنديا يحمل السلاح ويدافع عن مغتصبيه مصاصى دمائه ؟ هل كتب الله فى لوحه المحفوظ ان المصريين خلقوا عبيدا ويظلوا عبيدا الى يوم تقوم الساعة ؟ لا ياخديوى لقد ولدتنا امهاتنا أحرارا ولن نستعبد بعد اليوم .

واذ ينظر « أبو سماعين » فيجد ان الدائرة قد اتسعت وانضم اليها طوائف من الناس رجالا ونساء وأطفالا ، حتى لقد صار منظر الدائرة نفسه مضحكا ، اذ يضم أولادا بملابس المدرسة ، خلفهم أولاد بثياب الحقول خشنين حفاة ، خلفهم رجال يحملون فئوسا ومقاطف على اكتافهم ويلفون رءوسهم بالطواق والمناديل المحلاوى كانوا فى طريقهم الى مشاوير معينة ولكن السامر اجتذبهم فوقفوا يتفرجون بشغف كبير ، خلف هؤلاء واولئك رجال نظيفو المظهر من الأعيان استوقفهم المنظر فاستمروا يسمعون محاولين معرفة ماذا يقول هذا الرجل المعتوه لأولادهم هؤلاء ؟ لكن الجميع يظل واقفا يصغى فى انتباه عجيب ، حتى المدرسين وقفوا امام باب المدرسة مباشرة كأنما هم يقفون بطبيعة الأمر لا

للفرجة ، وحتى حضرة الناظر يطل هو الآخر برأسه من الشباك راسماً بعض علامات الاستنكار على وجهه لكنه فى نفس الوقت معجب بكلام « أبو سماعين » بدليل هذه الابتسامة الخفية المرتسمة خلف شفتين مزمومتين .. اذ يرى « أبو سماعين » هذا التجمهر الكبير الذى صنعه دون ان يريد صنعه ، يزم شفتيه ويطلق ضحكته الشهيرة المبتهجة : « هوهو .. هووو .. » » ثم يشوح بيده فى وجوهنا قائلا : « يعنى ما حدش جاوبنى على سؤال واحد .. معقول كلكم فى سنة اولى وما تعرفوش ؟ على النعمة من نعمة ربى يظهر عليكم ما تعرفوا .. ثم مشيرا الى شباك الناظر — دا يمكن الناظر بتاعكم دهه ميعرفش مين عرابى ولا مصطفى كامل — تضج الدائره كلها بالضحك وتقشعر ابداننا من خوف غامض لذيذ — ولا حتى المدرسين بتوعكم دول .. هم جايز يعرفوا الخديوى بس .. الخديوى ومن على شاكلته .. دول ما يعرفوش غير تواريخ الحكام بس . اسألوهم كده وانتو فى الحصة .. حتلاقوهم يعرفوا الانجليز اكتر من الملك ، ويحبوا انجلترا اكتر من الانجليز » .

تنفلت الضحكات من افواه المدرسين رغما عنهم ، يغطى الناظر رغبته فى الضحك بالصياح : « يلا ياراجل انت إمشى من هنا بقى .. فض السامر اللى انت عامله ده وسيب العيال تروح احسن والله اعمل لك محضر فى البوليس » .

يصيح « أبو سماعين » ضاحكا فى سخرية : (هوهو هو .. وو .. ه..) طب على النعمة من نعمة ربى ياحضرة الناظر انت ممكن تعملها .. فاجر وتعملها .. واد انت وهو .. تعرفوا واحد اسمه عبد الحكم الجراحى ؟ طب ادى واحدة اهه .. اتحداكم كلكم لو عرفتوها .. طب اذا كنت من غير مؤاخذة راجل ياحضرة الناظر قولى — مقلدا المدرسين — قل ما تعرفه عن عبد الحكم الجراحى » .

يختفى وجه الناظر من الشباك صائحا : « انت يظهر ما تجيش الا بالقسوة » . فينسحب « أبو سماعين » قبل ان يخرج الفراشون لدفعه بعيدا .

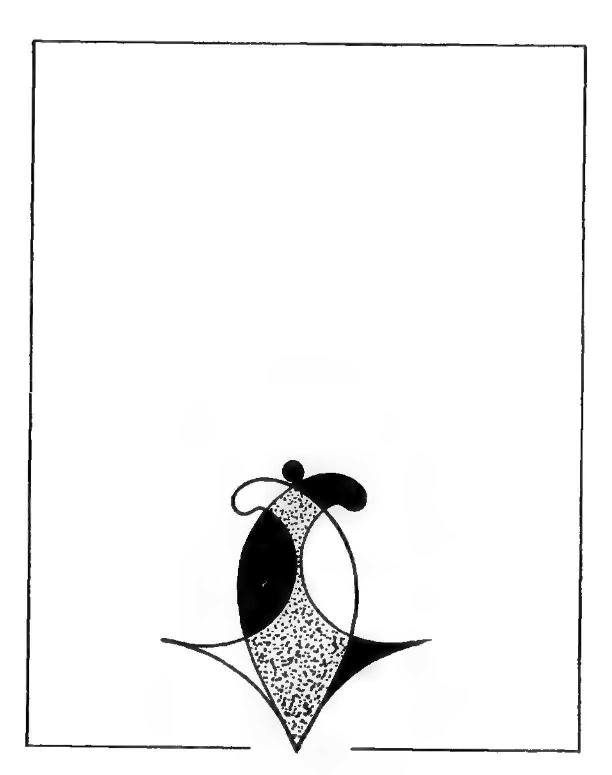
يختفى كأن الأرض ، انشقت وابتلعته ، مع أنه يثق أن حضرة الناظر يهوشه ، وأن الفراشين لن يكونوا أغبياء أبدا فى معاملته .

اجرى وراءه حيثما اختفى حتى أدركه ، لا يهدأ بالى حتى ادركه فى دكان معلمى الذى اذهب اليه يوميا بعد خروجى من المدرسة مباشرة . أسأله عن الجراحى هذا وقد ظننت انه أحد الأطباء مثلا ، أسأله عن كل ما يرد فى كلامه ولم أسمع به من قبل ، يصيح ضاحكا : « هوهو .. و .. ه » ثم يحكى لى عن شاب طالب علم فى الجامعة فى القاهرة يحب مصر حبا يختلف عن حب الناس العادى لها ، فالبلد هى الشىء الذى يجب أن يحبه المرء أكثر من أى شىء آخر ، اذا كنت تحب امك وأباك ثم البنت التى تكتب لها خطابات الغرام ، فان الرجل الحق هو الذى يحب البلد قبل كل هؤلاء ويكتب لها خطابات الغرام مثل مصطفى كامل ، ويجرى ويضرب بالمشوار متباحثا فى حقوقها مثل سعد زغلول : « سعد زغلول هذا هو الذى قال مفيش فايدة .. مفيش من مين ؟ قول » اقول له ما فهمته من اهل البلدة : « مفيش فايدة من اننا نتحرر من الانجليز » يضرب جبهته بيده ضربة قوية جدا كأنه يفتت رأسه ، يصيح فى ألم حقيقى : « غلط .. غلط شفت الجهل بقى .. لى حق اضرب الناظر بتاعكم ده جزمتين ولا لأ ؟ » اخاف ان يسمعنا الناظر عبر مئات الشوارع والبيوت ، اصيح به : « مفيش داعى بس قوللى ايه قصد سعد زغلول » . يقول بعد ضحكته المعهودة كاللازمة الموسيقية تتخلل مقاطع الغناء : « سعد زغلول لما قال مفيش فايدة كان يقصد ان مفيش فايدة من التفاوض مع الانجليز بالكلام .. ومعنى قولته هذه ان الفائدة تجىء بحمل السلاح ومطاردة الانجليز — ضحكة وتشويحة — ولكن ما ذنبكم ؟ ان للانجليز بيننا ابناء كبارا واعين بحق .. يشوهون كلام الزعماء الشعبيين ، يقلبونه الى عكس معناه .. نحن بلد لم تدخل المدارس .. نصدق كل ما يقوله الأفندية والمعممون كأن كلامهم منزّل .. انهم بجهلهم ايضا قد وقعوا فى الخية وصدقوا المعنى المزيف واشاعوه بدورهم .. سعد زغلول ياعالم يابجم قال مفيش فايدة فى ان نوجع دماغنا

بالكلام ونضيع وقت اجيالنا القادمة اى هيوا لنجعلها المعركة الفاصلة الناس كلهم اليوم اصبحوا كلما ضاقت بهم الحياة يقولون مفيش فايدة ــ اصبحوا يطبقونها على كل شيء فيالها من خسارة .. الناس تعتبر كلمة سعد زغلول منزلة ولهذا حول عملاء الانجليز معناها ، وهكذا صدقها الناس بعد تزييفها . بحق الله كيف لا يعلمونكم هذا فى المدارس ؟ كيف لا يعلمونكم ان الانجليز وكل المستعمرين واصحاب المصالح يبرعون فى تزييف اقوال الزعماء الشرفاء والوطنيين الخلص ؟ ويقلبون معناها الى العكس ويشيعون الوجه المعكوس ويشهرونه بين الناس ؟ ياللوكسة المهببة . هل تراني سأعيش حتى أرى هذه البلدة يخرج منها ولد كالجراحي ؟ ان البلدة لا تكون عظيمة ولا يكون لها ذكر بين البلاد اذا لم يخرج منها أولاد رجال كهذا الولد وغيره ممن ماتوا فى حب مصر .. هو الآخر مات فى حب بلاده .. قاد مظاهرة من الطلاب ضد الملك والانجليز وضد كل الأوضاع الخاطئة .. لكن عملاء الانجليز واللصوص الذين يسرقون البلاد تحت حمايتهم فتحوا الكوبرى اثناء مرور الطلاب عليه فتهاوت صفوفهم كلها وغابت فى اعماق اليم ، ابتلعها النيل غير مأسوف على شبابهم من ذوى القلوب المتحجرة .. لكننى واثق ان الولد ورفاقه كانوا سعداء وموج النيل يحضنهم الى الأعماق ، فهم قد ضحوا بأرواحهم فى حب مصر من اجل مصر ، ثم ان الذى أكل جثثهم هو النيل الحبيب وليس نهرا آخر ، ان جثثهم الحبيبة سوف تذيب نفسها حبا فى موج النيل ، حتى يشربه المصريون فيتذوقون فيه طعم النخوة والشجاعة والفداء فوق طعم الالم والفقدان » ..

يقشعر بدنى وبدن كل المستمعين من جميع الأعمار يداخلنى الغضب حين يشير بعض الفارغين الى رؤوسهم فى حركة خبيثة تعنى ان الأفيونة قد صهللت وان الرجل تبعا لذلك يقول خرفا ساخرا لا ينبغى تصديقه مع انك تلمس فى بريق عيونهم تصديقا متينا كامنا فى الأعماق البعيدة لكنهم من فرط الانبهار يتشككون تشككا فلاحيا خبيثا لئيما ، هدفه الحصول على مزيد من

اليقين حتى يثبت هذا الكلام فى رأسه . ولكن هؤلاء وأولئك جميعا سرعان ما ينساقون وراء « أبو سماعين » اذا ما تحدث .



(٨)

زاطـــــــــه

بفضله ذات يوم فعلوا أشياء مبهرة . كان العمدة « محمد عبد المنعم أبو سيف » قد قبض على بعض الشبان الأقوياء من عائلات ميسورة ابان معركة انتخابية تنزل فى ساحتها عائلة العمدة بكل ثقلها ، بغية اضعاف مواقف خصومهم بحرمانهم من شبان لهم اهميتهم فى الدعاية الانتخابية . ولم يكن العمدة يعدم تهمة يلصقها بهم ، فهو خبير فى تلفيق التهم نظرا لاحتواء عائلته على اكثر من مائة محامٍ فى جميع انحاء المدن المتاخمة لبلدتنا ولهذا فهم جميعا خبراء فى لوى عنق القانون وتطويعه لخدمتهم فى كل الأحوال وعلى جميع الوجوه ، حتى ليسرقوا ويحاكموا المسروق ، ويقتلوا ويحاكموا القتيل وهم من الجبروت والكفر حتى ليحاكموا الله ذاته جل شأنه فى كثير من الانفلاتات العصبية العنيفة ، وكل انفلاتاتهم عنيفة ، لا يتورع الواحد منهم ان يصرخ فى وجه السماء معنفا الله كيف يكتب النجاح لابن الملاية هذا وابنة الغسالة هذه .. ووصف أبى لهم بالجنون فى قصيدته الشهيرة لم يكن من قبيل الافتراء ، فان الشعور بالعظمة ينفخ اوداجهم حتى ليضيق بهم ذوو قرباهم ويضجون من معاملتهم فيعزلونهم فتؤدى بهم العزلة الى التطرف الخطير الذى قد لا ينجو منه أحد فى البلدة ..

أحدهم كان يجلس فى « فراندة » البيت وحده ، أمامه صينية عليها عشرة أكواب وبراض كبير مملوء بالشاى . هو متجعص فوق الشلتة ووراءه المسند المريح . يصب الشاى بعظمة بالغة فى الأكواب العشرة ، يعتدل ، يمكث صامتا

لبرهة طويلة ، ثم ينظر حواليه باستنكار حيث لا يوجد احد غيره فى المجلس . يشير بيده نحو الشاى قائلا فى شعور بالحرج والتعنيف : « ما .. تتفضلوا الشاى ياسيادنا .. انتو عايزين عزومة ولا ايه ؟ اما دى حاجة غريبة فعلا .. يمكن تكونوا اغراب ولا اغراب .. إشحال بقى لو ما كنتوش صحاب بيت ؟ » بشىء من التواضع يرفع كوبا عن الصينية ويضعه أمام من افترض وجوده بجواره قائلا : « اتفضل » ثم يفعل هكذا بالأكواب الباقية ، يوزعها كلها امام اشخاص وهميين . يمكث برهة اخرى صامتا محدقا فى اللاشىء ممسكا بالمسبحة بين اصابع يمناه ، لا ليسبح الله بل ليشتم عليها كافة البشر اجمعين باعتبارهم أجلافا لا سعر لهم يبسبس قليلا مع ايقاعات حبات المسبحة ، يرفع الكوب ويرشف رشفة سريعة ثم يعيد الكوب الى مكانه ، ثم ينظر حواليه فى شعور فائق بالغضب ، يصيح : (لا بقى دانتو مش عايزين عزومة .. دانتو قلالات الذوق والتربية وعايزين الطرد من هنا) . ينتفض واقفا بعصبية عنيفة : « يلا امش من هنا ياكلب ياابن الكلب انت وهو .. يلا » ويتبع صرخته الأخيرة بشلوت يطيح بالأكواب والصينية وما عليها فى الشارع . يظل يشوت الهواء بقدميه يمينا وشمالا لبرهة طويلة ، يصر على ملاحقة الضيوف الوهميين المطرودين حتى آخر الشارع ، فيخرج ممسكا ببقايا الأكواب ويهشمها ليقذف بها كل من تصادف مروره فى الشارع .

الشارع هام وشديد الحيوية بالنسبة للبلدة ، يقسمها نصفين ، يمر منه ثلاثة ارباع تلاميذ المدرسة الكائنة فى نهايته ، ذلك ان المدرسة قد بنيت من يوم أنشئت فى قلب دورهم لدرجة أن أبناءهم يتابعون حركة طابور الصباح فى حوش المدرسة من بلكونات بيوتهم وشبابيكها المطلة على الحوش مباشرة ، ولا يهبطون الا فى آخر لحظة حتى لا يختلطوا بالغوغاء الحفاة منا ، ورغم تلاصق بيوتهم للفراغ القليل المحيط بسور المدرسة فانهم ينزلون بأكياس من النايلون فيها طعام وفاكهة يأكلونها فى ساعة الفسح ، مع ان بعضهم يقضى الفسح فى منزله . اما نحن بقية أبناء البلدة من أحياء الزغالوه والعقالوه والعصاروة النجارين والخطاطبة والزعالكة ،

ناهيك عن سكان « عزبة صباح » و « عزبة العبيد » و « عزبة العلمين » . كلنا تعرضنا لمخاطر: هذا الشارع التى يسببها هذا الرجل ..

شكله طويل ، وقور ، أبيض البشرة ، يبدو على وجهه الصلاح والشر معا يتجمعان فى لمعة عين واحدة تروح وتجيء تحت جفنيه . يرتدى جلبابا نظيفا جدا وطربوشا فاقع الاحمرار . يمسك بيده عصا من الأبنوس الأصيل عوجاية قبضتها منحوتة على شكل امرأة جميلة يقال انها ترمز للدنيا وانه تبعا لذلك يمسك الدنيا فى قبضته ليطوح بها كيف يشاء . كان يطوح بعصاه فى الهواء تارة وفوق ظهورنا الطرية تارة اخرى ، وبيده الأخرى يقذف علينا كل ما تصل اليه يده من دبش او زلط ، ولا يفتأ يصيح : « زاطه .. زاطه » ولم نكن نفهم ما معنى « زاطه » هذه ولكننا سمينا هذا الرجل « زاطه » فركبه الاسم طول حياته .

بقدر ما تشابه السوايفة فى الوجوه والأشكال والأطوال والطباع يتشابهون أيضا فى الأسماء ، والاسم الواحد يتكرر فى عائلتهم على مدى اجيال ، ويتكرر حتى فى الجيل الواحد ، بل انه ليتكرر حتى الاسم الثلاثى ، لدرجة انك قد تعرف فى وقت واحد اكثر من عشرة اشخاص باسم ثلاثى واحد ، وكل شخصية لامعة من السوايفة فى المجتمع السياسى القاهرى او فى اى مجال من المجالات تجد له اكثر من شبيه وبنفس الإسم الثلاثى فى هذه العائلة فى بلدتنا ، وقد تعود الناس فى بلدتنا على ان يستوضحوا من يتحدث عن اى فرد من هذه العائلة قائلين : الكبير ولا الصغير ؟ الفلاح ولا الموظف ؟ العمدة ولا المحامى .

« زاطه » مثلا كان اسمه هو الآخر « محمد عبد المنعم أبو سيف » نفس الاسم الثلاثى للعمدة وهو ابن ابن احد اعمامه ولكنه مقارب فى السن . وسر تكرار العائلة للأسماء تقديسهم للرجال الناجحين منهم ، يريدونه علما على العائلة مدى الحياة ، ويعمدون الى تكراره حتى وان خابت الصورة الجديدة وهى كثيرا ما تخيب .

من كثرة عدد المجانين فى العائلة باتوا غير قادرين على تمييز العقل من الجنون فتراهم يستمعون ــ ويرضخون ــ لرأى كبارهم الذين ربما كانوا من المجانين ، ويجدون أنفسهم مطالبين بالدفاع عن هذه الأقوال وهذه الأفعال دفاعا شديدا ، ولطالما دافعوا عن جنونيات ارتكبها كبار منهم فى حق الناس ، وتعصبوا لأفعال طائشة خرقاء أتاها شبان منهم . وانت حين تتحدث مع أى واحد منهم فى أى أمر من الأمور الجادة لابد ان تجىء لحظة تشك فيها فى سلامة عقل محدثك ، لابد ان تجىء لحظة تحار فيها فى معرفة ما اذا كان العمدة هو الذى يحدثك مثلا او هو « زاطه » ومثلما يخطىء الناس فى معرفة اشخاصهم على الحقيقة فانهم كذلك لا يعرفون العاقل منهم من المجنون كذلك لا يعرفون الجاد فى كلامهم من الهزلى ..

لما قبض العمدة على الشبان الأقوياء كانت ردود الفعل عند عائلاتهم توشك أن تضيع فى روتين التصرفات التقليدية ، حيث اعتكفت كل عائلة فى منزلها تتقى حرج منظرها امام الناس وتفكر فى التصرف الذى يجب عليها ان تتصرفه حيال العمدة القوى الذى لا يهزم ابدا وكيف يهزم ونصف الحكومة فى كل عهد من عائلته ؟ بعض العائلات الضعيفة نوعا كانت تفكر فى استعطاف العمدة وتوسيط بعض الناس لديه. «أبو سماعين» هو أول من بلغه هذا النبأ من مصادره الخاصة ، وأول من استنكره شديد الاستنكار ولكن على طريقته الخاصة ..

فجأة يراه القوم جالسا فى طرف مجلسهم ، واذا هو يعلق تعليقا سريعا كالسهم يكسح وجوه الجالسين : « اما صحيح المثل ماكدبش .. القط يحب خناقه .. فعلا .. حتروح بعيد ليه ؟ » العمدة يقبض على ولادنا ظلما وعدوانا .. وكان عاوزين نسترضيه .. ما شفتوش بعد كده جنية ؟ » ثم ينصرف وقد ظهر فى عينيه الضيقتين غضب رمادى عتيق ، لكنه غضب مشبع بالحكمة واللؤم والرضاء بمظهر المسكنة كدرع يحمى به جبروته الحقيقى الجاد ..

يتوقف عند مجلس آخر ، ان لم يجد سلطنة الشاى منتصبة دعا لقيامها ،

مجرد وجوده فى أى مكان دعوة لقيام زردة الشاى حتى لو كانت بقايا الزردة السابقة لا تزال فى حلوقهم . وبينما هو يشفط الشاى فى لذة متباطئة يبدأ فيستفز المجلس — بطريق غير مباشر — بالكلام حول « الأولاد » المقبوض عليهم . فى بلدتنا — شأن كل بلادنا — تنفتح صنابير الحديث ربما بمجرد اللمس فى أى موضوع ، فيحكى كل واحد ماسمعه من كلام حول هذا الأمر ، أحيانا لا يكون لدى احد من الجالسين شيء يقوله ، لكن (أبو سماعين) فى كل الأحوال لابد ان يدلى بتصريح خطير جدا فى هذا الأمر ، هكذا سيوحى للجالسين باصطناع ملامح الخطورة من همس متحفظ واداء مؤثر ، فى العادة يكون هذا التصريح محض خيال من تأليفه ، أو لعله اقتراح يراه مناسبا فى علاج هذا الموقف ، يؤلف حوله اشتاتا من الخيال الواقعى تقنع بأنه قد سمع هذا الكلام من مصدر موثوق به . انت لابد ان تصدقه لأنك تعلم انه الوحيد الذى بامكانه ان يتواجد فى اى مكان فى اى زمان دون مبرر بل دون لزوم على الاطلاق .

يقول لك تصريحا ، أو اقتراحا من تأليفه مؤداه ان عائلة الزعالكة مثلا قد اتصلت بابنها اللواء فى القاهرة وناشدته انقاذ كرامة العائلة من التدهور ، أو أن عائلة النجار قد ارسلت برقية شديدة اللهجة لوزير الداخلية تقول فيها كيت وكيت ، أو أن عائلة الجرن — وهى العائلة الوحيدة فى البلدة التى تبارى عائلة العمدة فى الجنون — لم تجد مفرا من التدبير لقتل العمدة نفسه وان التدبير نظامه كذا وكذا . وحقيقة الأمر أنه حكى وأشاع ما يتمنى من صميم قلبه ان يحدث .

هذه الاشاعات كانت تصل بالطبع الى أهلها ، فيشعر كبار رجال هذه العائلات كأن تدليكا عظيما قد جرى لأعصابهم وهدهد مشاعرهم المتوترة ، اذ ها هى ذى الاشاعات فى البلدة تذيع بأنهم لم يسكتوا ولم يخضعوا وانهم يفعلون شيئا يتهدد العمدة من مجرد سماعه . لهذا فرغم انهم يجاهرون جميعا بالاحتقار لـ « أبو سماعين » ومعاملته معاملة الأشياء الصماء فانهم فى أعماقهم يحبونه لحظتئذ ويشعرون بأنه خدمهم دون أن يدفعوا له أجرا ، انه على الأقل — بهذه

الاشاعات — حفظ لهم ماء وجوهم . لكنهم بعد ذلك مباشرة — وأبو سماعين واثق من هذا — لابد ان يفعلوا شيئا من هذا ، فبعد ان تهدأ اعصابهم هذه الهدأة السريعة سرعان ما يلتقطون أنفاسهم ويفكرون فى مضمون الاشاعات التى تخصهم تفكيرا جديا ، وهكذا فان المقترحات التى ألفها « أبو سماعين » فى صيغة تصريحات جاءته من مصادر موثوقة تصبح بالفعل مقترحات جديرة بالمناقشة بل والتنفيذ على الفور .. اذ ما المانع فى ان نتصل فعلا بسيادة اللواء ؟ هكذا يقول الزعالكة . ولماذا لا نرسل بالفعل برقية شديدة اللهجة الى وزير الداخلية نكتب فيها كيت وكيت — هكذا تقول عائلة النجار . ولماذا لا نشكل مجموعة من الولدان تتصدى لزرع العمدة ومواشيه وابناء عائلته بأعمال جنونية ؟ هكذا تقول عائلة الجرن .

ما بين عشية وضحاها يأتى الصبح محملا بأنفاس خريفية تضمر الزوابع والعواصف ، يكثر الرواح والمجىء فى حوارى البلدة وشوارعها بسرعة كبيرة ، ترى فى الشوارع ناسا كثيرين ليس من عادتهم المشى فى الشوارع ، وركائب تنقل رجالا عجائز ، وفود تذهب لانتداب وفود ، تتلاقى الوفود بالوفود فى بيوت ليست بالقصور ولكن لمرآها مهابة وقدسية فى المندرة الكبيرة تتجمع زبدة العائلات الركينة فى البلدة ، تتبادل الرأى والمقترحات تدخل عليها تعديلات يشركون فيها العائلات الأخرى ليكون الأمر أمر بلدة كاملة فى مواجهة العمدة . ومهما كان البيت مهابا أو ملغما بالحراس فان « أبو سماعين » لابد وان يكون حاضرا ، ليس بمقترحاته هذه التى انتحلوها فحسب ، بل تنظر حولك فجأة فتراه جالسا فى طرف المجلس ، وربما اكتشفت — انت صاحب الدار وسيدها — ان خدمك قد تنازلوا لـ « أبو سماعين » عن سلطنة الشاى منذ وقت مبكر . قد ينسى الحاضرون وجوده لساعات طويلة ، لكنهم يتذكرونه فى كثير من اللحظات فيرونه بينهم ، وقد تصك سمعهم ضحكته المعهودة فتنتزعهم من استغراقة عميقة فيضحكون بصوت عال ..

ضحكته تجيء دائما فى اللحظة المناسبة . ها هو ذا قد شد المجلس بها وجذبهم اليه ، فاذا هو بعد برهة يترك سلطنة الشاى ويقترب منهم قليلا ثم يتقرفص أمامهم مشوحا بيده فى حركة تبنيه قائلا ان الحكاية وما فيها بسيطة ، وان ربنا عرفوه بالعقل ، وانها تاهت ولقيناها : « خدوا بالكم من كلامى .. العمدة الآن ليس بعمدة . المفروض انه مستقيل من منصبه منذ ان ووفق على طلب ترشيحه للانتخاب عن دائرة بلدتنا . ومعنى ذلك ان قبضه على الأولاد ليس قانونيا .. انه ليس من حقه ان يقبض على احد أو يمارس العمدية على احد .. الشئون كلها منوطة اليوم بشيخ البلد الشيخ فراج وهو من اعمدة العائلة وهو كما نعلم رجل طيب ليس له فى الطور ولا فى الطحين . العمدة الآن رجل عادى مثله مثلنا فكيف يأمر بالقبض على اولادنا .. هذه واحدة .. نجيء للتليغراف الذى تودون تشييعه لوزير الداخليه .. ها أنتم تملون كاتبكم قائلين : السيد وزير الداخلية لقد فعل العمدة بنا كذا وكذا .. والواقع ان الأمر لايكون هكذا . ان هذا يكون — عدم المؤاخذة — تخريفا فى تخريف » .

يضحك القوم المحترمون ضحكة اريحية ، فـ « أبو سماعين » فى النهاية صار منهم . صار ملمحا ثابتا لا يحق لأحد زعزعته او الاعتراض عليه ، لهم الحق فقط فى اهانته وقتما يشاءون ، ومصالحته بقرش تعريفة أو اكلة دسمة أو ربما ربتة على كتفه النحيل ، ثم ان أريحيتهم هذه ليست بدافع من كرمهم وحده بل بدافع من الخجل الخفى الذى احسه كل منهم على حدة لمجرد ان « أبو سماعين » قد نبههم الى هذا الأمر وحده وهو خطير . كيف لم ينتبهوا من قبل هذه اللحظة الى ان العمدة الآن لا يعتبر عمدة بل شخصا عاديا يمكن النيل منه أو على الأقل تحييده ؟ تتمدد الأريحية فى الالغاد الصغيرة وعلى الوجوه الطيبة ، تتناقل الابتسامة السمحة على وجوههم وهم يقولون فى تسليم اكيد وان بدا فى لهجتهم استعلاء ساخر : « امال إيه بقى العقل ياأبو سماعين . وربنا » .

يطلق « أبو سماعين » ضحكته المعهودة التى تجيء هذه المرة بمثابة

الموسيقى التصويرية التى تسجل عجزهم وترد عليهم سخريتهم . يقول لهم ان البرقية التى نرسلها حقا يجب ان تكون للنائب العام ، على أساس أن ما حدث يعتبر جرما خارجا على القانون : « هذه واحدة .. والثانية اننا لا نقول فى البرقية حضرة العمدة فعل كذا . لأن جملة حضرة العمدة فى حد ذاتها سوف يكون لها تأثير على النائب العام بشكل أو بآخر ربما حاول علاج الأمر بطريقة تمتد شهورا يتضاعف اثناءها عذاب الأولاد فى سجن البدروم . انما علينا ان نكتب فى البرقية اسم العمدة مجردا . فنقول ان محمد عبد المنعم أبو سيف قد فعل فينا كذا . ثم هناك واحدة ثالثة ، هى أننا لا نقول انه قبض على اولادنا لأن كلمة قبض سوف تثير دهشة النائب العام وتلفت نظره الى اشياء ليست فى مصلحتنا .. انما علينا ان نقول انه قد اختطف .. أحدين بالكم ؟ سيادة النائب العام ــ أفندم .. اغثنا ياسيادة النائب .. ان رجلا ظالما من بلدتنا يدعى محمد عبد المنعم أبو سيف قد اختطف اولادنا فلان وفلان وفلان ، واخفاهم بواسطة عصاباته فى مكان لا يعرفه احد . اغيثونا من فضلكم وطمئنونا على فلذات اكبادنا أدامكم الله ذخرا للعدالة فى البلاد .. ونفيدكم ياسيادة النائب العام أن هذه العائلة مشهورة بالظلم طول عمرها وتعيث فى البلدة فسادا ، لا يردعها رادع ولا يوقفها حاجز ، واليكم توقيعات رؤساء عائلات البلدة عن بكرة ابيها » ..

تتمدد الراحة على الوجوه شيئا فشيئا ويبدو انها تتصارع تحت الجلد مع نذر شريرة تغرى بحب المغامرة . وجوههم استهجنت الكثير مما قاله « أبو سماعين » تفصيليا بدافع الخوف الدفين من التطرف على الحاكم والهزء به الى هذا الحد ، وتناقشوا كثيرا فى بعض عباراته التى رأوا فيها كثيرا من الحدة وقلة الذوق والجرأة المبالغ فيها ، لكنهم مع ذلك حين استمعوا لنص البرقية ووقعوا عليه باختامهم وبصماتهم وشخبطاتهم لم ينتبهوا الى ان البرقية لم تخرج فى جوهرها عما قاله « أبو سماعين » بل هى بنفس صياغته والفاظه ..

« أبو سماعين » ليس تائها عن تراخى القوم الأصيل فيهم . يدرك جيدا أن

المثل الشعبي الشائع بينهم : « كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح » ليس مجرد قول براق جذاب انما هو حقيقة ، فهذه الأمثال ــ يقول دائما ــ لا تأتى من فراغ ، ان لها أصولا ثابتة فى سلوك البشر حتى لو انكروا ذلك ، لذا فانه لن يترك لهم فرصة للتراجع ، من غد سوف يقوم بالخدمة ، ها هم سادة المجلس قد جهزوا البرقية ولم يبق سوى ان يذهب الأولاد التملية فى الصباح بالركائب الى مصلحة البرق فى البندر ويسلمونها نص البرقية مع الرسوم المقررة . وها هو ذا ينبه القوم الى ان هؤلاء التملية قد تروح عليهم نومة ويضيع الوقت ويصبح هناك مجال للتراخى والتراجع ، ينبههم الى هذا لكى يقولوا له بطبيعة الحال : « من فضلك ياابو سماعين ابقى خبط عليهم بعد صلاة الفجر صحيهم » ، فعلى الفور يصيح : طبعا ..

لا يقتضيه الأمر اكثر من سرحة فى « عزبة العبيد » يقضى فيها ساعتين أو ثلاثا وسرحة اخرى عند شاطىء ترعة خلاف خلف « عزبة صباح » حيث يخلع ثيابه ويأخذ غطسا فى الترعة . مع صوت الآذان يظهر شبحه مقبلا من خلف ابراج الحمام وسط الأشجار الكثيفة يأكل اشياء يستخرجها من سيالته ربما كانت لقمة طرية طرأت عليه من « عزبة العبيد » وربما كانت ثمارا من سقط هذه الأشجار جمعها فى ذهابه وايابه . يخرم على الدار التى ينام فى حوشها التملية . يظل يطرق الباب حتى يضج كل من فيه . يضطر التملية الى الاستيقاظ . يلاحقهم كل بضع دقائق ، رائحا جائيا تحت الجدار ينده كل حين ندهة عالية . ينفتح الباب وتخرج الركائب ، يمتطيها التملية بالفعل . يروح هو يذكرهم بالورقة التى فيها نص البرقية ، وباسم الرجل الذى سيمرون عليه فى مكتب المحامى ليضمنهم لدى مصلحة البرق ببطاقته الشخصية ، يذكرهم ايضا بالنقود التى ستدفع رسوما ، يعيد على أسماعهم كثيرا من النصائح التى وجهت اليهم بالأمس ، كيف يقولون كذا حين يقال لهم كذا ويردون بكيت حين يسألونهم عن كذا . يشد من ازرهم ، ويوصيهم بتجميد قلوبهم اذا ما تصادف وقابلهم احد من طرف العمدة .. « لن يحدث شىء ولكن يعنى خلوا بالكم .. لا يداخلتكم

شيء من التردد .. الشيء الوحيد الذى ستثبتون به رجولتكم حقا هو ان تجيئوا بايصال دفع النقود الذى يؤكد ارسالكم للبرقية هاتوا هذا الوصل ولو على جثثكم .. سوف تكونون مهزأة البلدة طول حياتكم لو عدتم بدون هذه البرقية .. تذكروا هذا فقط واتكلوا على الله وهو كارمكم باذنه فلستم تفعلون الا خيرا وجهادا فى سبيله » ..

تملية هم أى نعم ولكن حتى التملية من حقهم ان يستهجنوا نصيحة تأتى اليهم من « أبو سماعين » انهم تملية القوم ولهم ما ليس لأسافل القوم الذين هم فى الأصل منهم قبل ان يلحقوا انفسهم بالخدمة متطوعين لأى من العائلات الميسورة ، ويصبحوا ينتمون الى احد بعينه من علية القوم يتمتعون بحمايته ويشملهم شيء من سيادته ، أما أمثال « أبو سماعين » هذا الصايع الضايع الافيونجى فليس له اى كيان فكيف يحق له ان ينصحهم كأنه علية القوم ؟ هو أيضا من جانبه يعرف هذا جيدا ، ويداعبهم قائلا فى سخرية : حمار الأمير أمير الحمير .. وانه فى النهاية لواثق من أنهم سيكونون رجالا فى تنفيذ المهمة خوفا من لسانه وحده على الأقل ، فهو وحده الذى سيحيلهم الى هزأة مباحة لجميع الخلق .

يطلع التملية رجالا بالفعل ويرسلون البرقية . يمر اليوم ولا حس ولا خبر . « أبو سماعين » يترصد القوم لكى يقولوا له فى تهكم كأنه الحكومة المسئولة : « يعنى محصلش حاجة » ، حيث يرد عليهم من فوره : « نعمل استعجال .. احنا ورانا إيه ؟ .. ورانا إيه غيرهم ؟ .. مصطفى كامل قال مايموتش حق وراه مطالب . وسعد زغلول قال مفيش فايدة يعنى مفيش فايدة من المفاوضات السلمية .. واحنا لازم نفهم كده ياسيادنا .. اللى مينفعش بالكلام السلمى لابد ينفع بالقوة .. احنا بقى نجيب القوة دى منين ؟ .. نستلفها من الحكومة .. اذا الحكومة استعبطت نستعبط اكتر منها . إذا طرمخت نروح لها فى كل مكان موجودة فيه ونقلق منامها لحد ما تيجى وتشوف لنا حل .. ما هو اللى ما حيلتوش

، قوة .. لازم يستلف .. ثم احنا ورانا إيه ؟ خسرانين إيه ؟ .. دى الحكاية كلها ما تتكلفش ملاليم .. نشيع غيرها وغيرها وغيرها وحكمك ياحاكم لازم يبان فى المحاكم ».

وهكذا نشيع الى النائب العام برقية ثانية ورابعة وعاشرة . يبتدع « أبو سماعين » بدعة فى البرقيات لم يفهموا مغزاها فى أول الأمر الا بعد أن شرحه لهم مضطرا ، اذ انه اراد ان يحمل النيابه مسئولية التراخى ان هى تراخت اكثر من هذا ، فكان يوصى القوم بان يكتبوا على كل برقية رقمها فى وسط السطر ، الثانية او العاشرة او ما شئت من ارقام تستجد ، فهو بهذا قد اعطى النيابة احساسا بالمسئولية وهو ايضا يصادر على اذناب العمدة فى جميع المصالح الحكومية محاولاتهم اخفاء البرقية عن النائب العام او التقليل من شأنها لديه ، اذ لابد ان برقية من كل هذه البرقيات ستقع حتما فى يديه ولو بالصدفة فيعرف من رقمها ان ثمة برقيات قبلها قد ارسلت ، وثمة برقيات بعدها سوف تجىء ، وأن الأمر تبعا لذلك خطير . وبالفعل ما كادت البرقية العاشرة تخرج من البلدة مسافرة الى العاصمة حتى فوجىء المنتظرون دائما على المدخل الرئيسى للبلدة بفوج من العسكر السوارى فوق الجياد وخلفهم سيارة تقل بعض الأفندية بدا من شكلهم المهيب انهم النيابة لا شك والمباحث ، أما هؤلاء فلا شك مأمور البندر ورجاله وقواته . من نظرة واحدة عرف « أبو سماعين » ان المأمور شخص مستجد فليس هو المأمور الذى يعرفونه فى البلد . هدأت عاصفة الغبار التى أثارها ركبهم ، فاقترب منهم « أبو سماعين » معرضا نفسه لأن يسألوه عن شىء . وقد كان ، هز العسكرى السوارى كرباجه المطوى فى يده صائحا : « انت ياجدع انت تعرف بيت المدعو محمد عبد المنعم أبو سيف ؟ » صاح « أبو سماعين » على الفور : « ايوه ياسعادة البيه .. اتفضل معايه وانا اوريه لسعادتك فلوح له العسكرى بالكرباج صائحا : « طب يلا انجر قدامى » فاندفع « أبو سماعين » يجرى أمام الركب كأنه يؤدى رقصة فيها الكثير من التشفى والابتهاج ، ولابد انه كان مدخرا

فى دماغه لحظتها نصف طن من الأفيون الخام حتى وصل الى هذه الدرجة من اعتدال المزاج ..

اخترق بهم الطريق دون ان يدرى — كما بات يقول حيث ان هذه الفكرة لم تكن قد خطرت على باله من قبل انما سطعت فى ذهنه فجأة ورأى نفسه ينفذها وقد فقد الحد الفاصل بين الجد والهزل — حتى وصل بهم الى بيت « زاطه » المجنون ، واشار اليه قائلا لهم : « هذا هو بيته ياسعادة البيه .. محمد عبد المنعم أبو سيف » ، ثم انزوى فى مكان خفى واختبأ فيه بحيث لا يراه احد فى حين يرى هو كل شىء ، ثم انه لف التلفيعة حول رأسه مغيرا من شكله بعض الشىء ، ووقف فى مخبئه يرقب العسكر وهم يترجلون عن جيادهم ويتركونها فى حراسة الخفراء الذين خفوا اليهم من تلقاء انفسهم بحكم ان دوار العمدة لا يبعد كثيرا عن بيت « زاطه » . هما خفيران لا اكثر وخلفهما بعض تملّية عائلة العمدة ، قدما نفسيهما بالطريقة الرسمية . تلقيا امرا بمناداة العمدة ، فقال الخفيران ان العمدة مسافر الى القاهرة من اجل شئون الانتخابات حيث يرشح نفسه . فتلقيا امرا بانتداب شيخ البلد ، فقال الخفيران انه هو الآخر — وهو العم الأكبر للعمدة — قد سافر مع العمدة ليساعده فى بعض الأمور العائلية . فأين اذن شيخ الخفراء : قالا انه هو الآخر يؤدى خدمة خاصة بالعمدة فى المديرية ، اى ان الضيوف الأجلاء لم يجدوا فى استقبالهم من حكومة البلدة سوى خفيرين كحيانين هما « على الأزعر » القصير القرعة المتخصص فى تبليغ المتهمين أمر القبض عليهم بالرضا والتسليم ، و « عبده الجحشه » المتخصص فى سقى بهائم العمدة ..

تقدم افندى مهيب نحو باب البيت يحرسه رهط من العسكر المدججين بالسلاح والكرابيج . طرق الباب بكل ادب . خرج له « زاطه » يبسمل ويحوقل ، او هكذا يبدو رافعا بيده ذيل جلبابه النظيف ، وعلى صفحة وجهه جهامة وعظمة لا حد لهما ، وفى خطوة لهوجة وغطرسة واحيانا نزق . اقترب من الهيئة

الحكومية الواقفة بالباب ، فتح باب السور الخارجى نصف فتحة وهو يقول فى استنكار مشبع باللامبالاة ، غير مُبَالٍ بمنظر العسكر والضباط ولا بلباس الأفندية الفاخر ، كأنه يكلم خدما فى معيّته : « إيه .. فيه إيه ياولد انت وهو ؟ » .

انحطت فوق الجميع جبال من الفزع والذهول الجليدى ، ولا أحد من الخفيرين او التملية يجرؤ على التنبيه بأن الرجل مجنون لأن هذا أمر غير مطروح فى العائلة وليس بينهم من يعترف به وويل لمن يشير الى هذا مجرد الاشارة بله ان يقول بصريح العبارة ان الرجل مجنون . تيبسوا جميعا لبرهة ، خيل اليهم خلالها ان ما حدث لم يحدث . لكن الأفندى المهيب ـــ الذى يبدو انه الرئيس فى هؤلاء ـــ ما لبث ان استعاد حرارته فاعتدل فى وقفته وقد تلبسته غضبة شرسة راح خلالها ينظر الى العسكر يستعديهم على هذا المأفون الجبان . شخط فى « زاطة » : « دا منزل المدعو محمد عبد المنعم أبو سيف ؟ » عوج « زاطه » لسانه فى حلقه مسخفا من لهجة الرجل مرددا : « ايوه ياخويه .. منزل محمد عبد المنعم أبو سيف .. سيدك وتاج راسك » صرخ الرجل المهيب صرخة عالية حاول ان يستعين فيها بقوة الحكومة التى يمثلها : « عايزينه حالا » فاذا بـ « زاطه » يهشه بعصاه العوجايه كما يهش كلبا ضالا او دجاجة شاردة ، قائلا : « طب وسع شوية .. وسع خلى الهوا يدخل » صرخ الرجل المهيب صرخة أخرى كان يبدو أنها آخر ما فى طوقه : « احترم نفسك ياحيوان » فما كان من « زاطه » الا ان رفع حاجبيه دهشة وقال : « حيوان .. والله ما حيوان الا ابوك عشان معرفش يربيك . كلب ابن كلب سل مل » .

صار الخفيران والناس يلطمون وجوههم ، وعبثا ضاعت محاولاتهم تبين القوم بدون تصريح ان الرجل مصاب فى قواه العقلية . ان هى الا دقائق حتى فوجىء « زاطه » بالصفع والركل ينهالان عليه من كل منفذ ، فاندفع فى جنون هائل يسب ويضرب بالعصا وبأى شيء ، حتى اضطروا الى استخدام الكرابيج ، فاندفع رهط من شبان عائلة أبو سيف يتبعهم صف كبير من التملية يهجمون على

العسكر والأفندية كالجاموس يشبعونهم ضربا وتلطيشا فى محاولة لتخليص « زاطه » . فما كان من الرجل المهيب الا ان صرخ آمرا بضرب النار ، فانطلقت رصاصات فى الهواء أرعبت البلدة ولكنها بعثرت صفوف المعتدين تحت فوهات البنادق ، تم تكبيل عدد كبير من التملية وشباب عائلة أبو سيف . ربطوهم جميعا فى بعضهم بعضا بالقيود والحبال ، كل مجموعة تربط فى ركاب حصان . سأل الرجل المهيب الخفيرين عن المكان الذى تخبىء فيه العصابة مجموعة الشبان ، فأنكر الخفيران معرفتهما بأى شىء . فلما سألهما عما اذا كان هذا الرجل المأفون هو المدعو محمد عبدالمنعم أبو سيف قالا نعم ، فهل هو زعيم العصابة التى تخطف الشبان ؟ أنكر الخفيران معرفتهما بأى شىء من هذا . أحس الرجل المهيب بغبار الكذب يصبغ لهجة الخفيرين ، خاصة أنه قد لاحظ أنهما انحازا لفريق المعتدين دون أن يشعرا فأمر باعتقالهما وربطهما ايضا فى ركاب الفرس ..

على أن الرجل المهيب ما كاد يخطو نحو السيارة مصطحبا رفاقه حتى كان « أبو سماعين » من مخبئه قد ارسل له طفلا لبيبا برىء الوجه نظيف المظهر ، تقدم من الرجل المهيب فى براءة وثقة وثبات ، قائلا ما لقنه اياه مرسله : « انا عارف المكان ياسعادة البيه .. اللى العصابة مخبية فيه الشبان » ، فمال عليه الرجل المهيب وربت على كتفه فى حنان وتشجيع قائلا : « براوه عليك .. اذا وريتهولى حاديلك حاجة حلوه بس كبيرة قوى » هز الطفل اللبيب رأسه قائلا بنفس البراءة والصدق : « لا ياسعادة البيه .. انا مش عايز حاجة .. عيب .. هو انا باشتغل بالأجرة ؟ دانا تلميذ ويمكن لما اكبر اطلع زى حضرتك ؟ » وهذا أيضا ما لقنه إياه «أبو سماعين » انشرح وجه الرجل المهيب ومال على الطفل فقبله واحتضنه وربت على كتفه بحب كبير ، وقال : « براوه عليك .. فعلا اما تكبر حتبقى زيى واحسن منى كمان .. انت دلوقت راجل بصحيح .. يلا بينا ورينا المكان » .

امسك الطفل بيد الرجل المهيب وسحبه ماضيا به نحو دوار العمدة ورهط

من العسكر خلفهما فى ذهول . حتى اذا ما وصل الطفل الى الدوار سحب الرجل المهيب دافعا الباب الصغير برفق . اشار الطفل نحو باب غائص فى الأرض بمسافة عميقة وقال : « هنا ياسعادة البيه .. زعيم العصابة ساجنهم فى البدرون ده » . وكان الأولاد المحبوسون قد نفذوا الوصية التى أبلغها لهم « أبو سماعين » سرا من خلال شبابيك البدروم المطلة على الشارع العمومى ، عن طريق اطفال يتصنعون اللعب تحت الشباك بكورة شراب مثلا ويحدثون الشبان كأنهم يحدثون انفسهم فى أمور اللعب ، وعن طريق مندوب كبير فى السن متنكر فى هيئة بائع سريح هدّه التعب فارتمى جالسا يلتقط انفاسه تحت شباك البدروم ، ويهذى بكلمات توهمك بانه من الدراويش المجاذيب الذين يقولون اى كلام لكنه فى صيغه الأى كلام هذه يسرب كلاما بل كلاما خطيرا موجها الى الشبان المحبوسين فى البدروم فردا فردا ، يناديهم بانجذاب كأنه ينادى على اقطابه أعمامه فى الطريقة يطلب المدد ، ويبلغهم ان عليهم أن يظلوا يصرخون ليل نهار صرخة فى السماء واخرى فى الأرض ، ففى السماء اذان صاغية وسوف تسمع هذه الصرخات ..

لم يكن صعبا على الرجل المهيب ان يعرف انه فى دوار العمدة . ولكن كان صعبا عليه ان يرى أمامه بابا مغلقا على ناس يصرخون صرخة فى السماء واخرى فى الأرض ، صرخات يتصاعد منها الألم الشديد تنبىء عن عذاب وحشى .. لقد فوجىء الرجل المهيب أنه أمام ناس يحتضرون احتضارا ، وان عليه ان يفعل أى شيء لانقاذهم أولا ، وليكن بعد ذلك ما يكون المجرم او طبيعة الجريمة .

تحير الرجل المهيب فيما يجب عليه ان يفعل ازاء هذا الباب الغائص فى الأرض المغلق باقفال ودرافيل . وحينئذ نبحت طائفة من الكلاب الشرسة مربوطة بسلاسل فى تراسينه بيت العمدة ، تكاد تفتت عمدان التراسينة الحديدية لتنقض على الجميع فكان منظرها مخيفا جدا ، واطلت نسوان العمدة من خلف التراسينات الدائرية باستدارة الجدران فى كل اتجاه داخل الحوش الكبير : ام العمدة وزوجاته الثلاث ــ من نفس العائلة ــ وبناته الأربع العوانس وبنتان متزوجتان من

عاطلين بالوراثة فى العائلة ومقيمتان عند أبيهما على الدوام لا تذهب إحداهما الى بيت زوجها الا لكى تنام له فحسب واحيانا ترسل له ليجىء وينام معها فى بيت ابيها ويتغذى وينصرف ، كلهن سوقيات ، ذوات لسان زفر ، بندريات صرف ، غير محتشمات ، يتوهمن ان عدم الاحتشام والسوقية من قبيل المدنية ، يلبسن القمصان المسماة بالجابونيز عريانة الصدر والظهر والكتفين ، الشعور الكرتاء منطرحة على الكتفين دون خجل او حياء ، يتبادلن التنكيت على هؤلاء الجرآء المغشى عليهم والذين سيلاقون لا شك حتفهم : « هىء هىء .. ياندامه .. ياختى .. آه .. هه .. خوفتونا .. هىء هىء .. ربنا يشفى .. شى الله ياعسكر وسوارى كان .. ومتشطرين على الراجل العيان ؟ ياحرام .. على العموم كلها ساعات وكل منهم يأخذ جزاؤه ويعرف مركزه » ..

وهكذا راح الرجل المهيب ينقل البصر مذهولا فى ذلك الذى يرى ، صدور كبيرة تندلق اثداؤها على أفاريز الترسينات يتشدقن بأقبح الألفاظ ويمضعن اللبان ، فخيل للرجل ــ لابد ــ انه امام بيت سرى من بيوت البغاء . وكنت انظر فى وجهه فأرى البصقة تتجمع فى فمه وتكاد تنطلق فى دائرة التراسينات المبتذله ، وكنت لحظتها أقرب واحد اليه ، ذلك اننى كنت ذلك الطفل الذى أرسله « أبو سماعين » ليرشده الى مكان الحبس هنا ..

أرسل الرجل المهيب الى التراسينات نظرة تجمعت فيها كل قدرته على الاحتقار والاشمئزاز ، ثم حول البصقه الى نفخة مشمئزة فى اتجاههم ، ثم صاح فيمن حوله من العسكر : « افتحوا الباب ده » حاول العسكر ولكن الباب كان تخينا جدا غليظ الأقفال والدرافيل ، وصراخ الشبان خلفه يقتحم الآذان ويغطى على نباح الكلاب ورقاعة ضحكات النسوان . طرق الرجل المهيب فوق الباب صائحا : يافلان . فرد عليه من الداخل صوت مضغوم غير واضح . ونادى الرجل ثانية : يافلان . فرد عليه صوت آخر لكنه غير واضح ايضا . فنادى الرجل كل اسماء الشبان المدونة لديه فى الشكوى فردوا عليه جميعا بأصواتهم ولكن دون نطق

واضح ، ومع كل صوت كان يصيح رهط من المتجمهرين : « ابنى ياحبيبى .. هو ده صوته » . هز الرجل المهيب رأسه بحركة ذات معنى وقال ان الشبان افواههم مكممه ، وانهم يتكلمون من حلوقهم باصطناع ايقاعات صوتية تشبه ايقاع حروف الكلمات ، ثم نظر فيمن حوله من الأفندية فقال بعضهم ان المسألة بالفعل خطيرة بل اخطر مما كانوا يتصورون .

خرج الرجل فتبعوه فى حركة استطلاع حول القصر من الخارج . توقف عند شباك مطل على الشارع غائص بدوره فى الأرض حتى منتصفه . واشار الرجل فجىء ببضعة رجال اشداء من اهل البلدة ، تعلقوا بحديد الشباك وشدوه بقوة حتى نزعوه من أماكنه ووسعوا بين أعواد الحديد مسافة تتسع لمرور جسدين ، ثم ضربوا درفتى الشباك بالكريكات فانكسرت . بالأمر نزل عسكريان ومخبران لغبائهما الشديد لم يفكرا فى خلع المعطف المترهل فانتزعه الشباك من كل منهما . تصاعدت من شباك البدروم روائح الرطوبة والعفن وعرق الشبان وجوعهم وروثهم طوال عشرة أيام أو أكثر لا يتصل بهم أحد من اهلهم ..

النساء المتبرجات خلف التراسينات خلعن كل البراقع وصرن يقذفن فى الشارع قللا واباريق من الفخار ممتلئة بالماء تهوى فى الشارع مرتطمة بالأرض أو بالرؤوس وصفائح قمامة ، وطوبا وزلطا وقصارى زرع . اعتصم الجميع تحت سقف التراسينات ، وخرج العسكر يحملون سبعة شبان مثل الورد تحولوا الى خرق بالية ، مكمّمى الأفواه مربوطى الأيدى من الخلف ، مهزولين لا يستطيع أحد منهم الوقوف على قدميه ، يتألمون بصوت رهيب .

امر الرجل المهيب بفك القيود وفك الكمامات ، ثم املى تقريره بدقة انبسط لها كل الواقفين . ثم اقتحم الدوار داخلا المكتب الخارجى الذى فيه السلاحليك وآلة التليفون ومكتب العمدة وسكرتيره وعامل التليفون . لم يكن فى المكتب لحظتها سوى عامل التليفون « محمود فتح الله » الذى هو فى نفس الوقت مندوب لوزارة الصحة فى بلدتنا ويملك فى داره دفاتر خاصة قيدت فيها مواليد البلدة منذ

اجيال بعيدة ، نقلها من دفاتر الوزارة بصبر عجيب ، وبات مشهورا فى البلدة اكثر من العمدة نفسه ، بل ان العمدة ليقع فى رجائه احيانا طالبا خدمة . هو ايضا مختص باستخراج شهادات الميلاد لكل فرد فى البلد يريد شهادة ميلاد ، مقابل رسوم يستقضيها من طالب المستخرج وفوقها اتعابه الخاصة . لن يكلفه الأمر شيئا كثيرا ، سيلجأ الى دفتره المفتوح على الدوام ، حيث تجيء كل داية من دايات البلدة او العزب المجاورة لها لكى تبلغه انها اولدت اليوم طفلا لفلان او طفلة لعلان ، بعدها بيومين يجيء والد المولود نفسه ليسجل اسم مولوده لدى « محمود فتح الله » حتى يتسنى له استخراج شهادة ميلاد عند اللزوم . من دفتره الخاص يأخذ كل البيانات المطلوبة وبعد ان يتجمع لديه بضع مأموريات تستحق السفر يذهب من فوره الى المديرية فيملأ استمارات رسمية ويوقعها ويختمها بخاتم المصلحة . هو كذلك المختص بأمور « القرعة » ومسائل التجنيد فى بلدتنا ، حيث يعرف تاريخ تجنيد كل شاب فى البلدة ويبلغه به وبموعد « النظارة » وما الى ذلك ، وقد درج الناس فى البلدة من كبيرهم لصغيرهم على ان يقصدوه فى التأكد من تاريخ مولدهم لقاء خمسة قروش مثلا .

« محمود فتح الله » عامل التليفون كان لبقا متكلما ، نظيف المظهر مثلث الوجه غليظ الشفتين كبير الأنف على جبينه زبيبة الصلاة كثمرة التوت ، والطاقية الصوف ذات اللون البنى تتراجع الى مؤخرة رأسه كاشفة عن جزيرة من الشعر الجميل . رغم انه لم يحصل على شهادات مدرسية وتعلم القراءة والكتابة فى مدرسة البلدة فانه يتحدث مع كبار القوم من السياسيين والمدرسين والموظفين والمشايخ باللغة العربية الفصحى وبعبارات مما يرد فى الصحف فى لهجته وصوته رنة طيبة لكنها محايدة تعطى لكل انسان حقه الواجب من الاحترام والتوقير .

قام باستقبال الرجل المهيب استقبالا حافلا بالانحناءات والاعتذارات اللبقة . قدم له آلة التليفون . فتناولها الرجل المهيب وأدارها ، وطلب قوة من البندر وسيارة اسعاف وسيارة نقل . ثم جلس يتحدث مع « محمود فتح الله ، الذى

استأذن من سيادته برهة قصيرة غاب خلالها ثم عاد ، فجاءت فى اعقابه صبية تحمل صينية عليها اكواب الشاى قادمة من اقرب بيت صادفه « محمود فتح الله » عند خروجه . جلس يستأنف الترحيب بالضيوف الأجلاء ، ويكرر الاعتذارات عن الغائبين . عرف نفسه للضيوف تعريفا جيدا ، واستخدموه استخداما جيدا . عرفوا منه كل شيء عن هؤلاء الشبان السبعة وتأكدوا من أن التهمة التى يزمع العمدة تلفيقها لهم بزعم أنهم هاربون من الجندية تهمة باطلة اذ انهم جميعا معفيون بدفع البدلية ، وهم جميعا من خيار الناس ومن انضج الشبان عقلا وخلقا ، واهلهم ميسورون لا يستطيع احد ان يذم اخلاقهم ، ثم ينظر حواليه ليشهد الواقفين من اهل هؤلاء الشبان على انه خلص ضميره وقال كلمة الحق فى شأنهم . وحقيقة الأمر أنه اضطر لقول الصدق نظرا لوجود القوم حوله كأنهم يحكمون حصاره ، وكانت فكرة تواجدهم داخل هذه الحجرة ولو على سبيل التطفل وتخانة الوجه من تدبير « أبو سماعين » الذى كان واقفا فى الخلاء على مبعدة يبحث عن زرار ضال ليشبكه فى عروة مناسبة ، ذلك انه ليس فى موقع اجتماعى يمكنه من ان يأمر بفعل كذا او يقترح كذا ، انما كان يغرى الأشخاص — من طرف خفى — بأن يفعلوا كذا ، يقول لك وانت واقف تنتظر خارج الحجرة : « اما لو الواحد يدخل ويسمع ايه اللى بيتقال جوه ؟ .. والله لو كنت قريب واحد من العيال لدخلت بقلب جامد » ، فتجد نفسك — وانت أحد اقارب الشبان — قد زحفت من تلقاء نفسك شيئا فشيئا حتى تدخل بقلب جامد . ويقول للجالسين يتشاورون : « اما لو فلان الفلانى يعمل كذا وكذا ؟ » فيستحسن القوم الفكرة ويتحمس لها فلان نفسه فيقوم بتعديلها قليلا وتنفيذها .

على أن « محمود فتح الله » حين أحس انه قد خان سيده ووقف فى صف البلدة وان ما قاله سوف يسجل فى اوراق رسمية يؤخذ عليه فيما بعد باللوم ، وان احدا من عائلة سيده ربما يكون قد سمعه ، حاول ان يعتدل فيمسك بالعصا من المنتصف ، أن يشطب على ما قاله بجرة قلم ، فأخذ يدافع عن تصرف العمدة ،

اذ مال هامسا فى اذان الضيوف الأجلاء بأن هؤلاء الشبان ذوى أنوف متعالية ، متزعمة ، مشاكسة ، يحلو لها اثارة الشغب لله فى لله ، وقد وصلت للعمدة اخبار مؤكدة بأنهم يثيرون الفتن فى البلدة ، ويحرضون على مقتله وعلى اثارة الفوضى : وبينى وبينكم ياأسيادى هم اولاد يستطيعون فعل ذلك واكثر .. ولكن العمدة قلبه ابيض واضطر الى ان يهوشهم ، ان يرعبهم قليلا حتى ، يفيقوا لأنفسهم ولا يؤرقوا الأمن بعد ذلك فاحتجزهم على زعم أنهم هاربون من الجندية الا انه كان ينوى ان يتركهم بعد حين قصير ولكن بعد ان يتشربوا الدرس ولا يصبحوا من الأشقياء ..

بعد حوالى ساعتين من الكلام المسجل على ورق رسمى ، تخللهما شاى آخر ثم قهوة ثم شاى مع اقراص .. تدفقت الصوانى الكبيرة على الدوار قادمة من جميع انحاء البلدة ، عليها كل ما لذ وطاب من الطيور المقلية واللحوم المشوية وانواع الفطير وكافة الخيرات المتاحة . يدخل بها شبان نبلاء الوجه فى عشم كبير وشهامة تلقائية يصعب عليك صدها بل انك لتراك تجنبها الكسوف ، يوسعون المكان ويضعون الصوانى أمام الضيوف . وجد الضيوف امامهم طائفة من الصوانى الحافلة تدعوهم للأكل وكانوا بالفعل قد جاعوا من طول الوقت والمجهود . وبدا على الوجوه رضاء واسترخاء بعد طول عصبية وتوتر ، وبدا أنهم قد أعيدت اليهم كرامتهم المسلوبة المعتدى عليها ، وشعروا كأن أهل البلدة يمسحون عن صدورهم ما علق بها من قاذورات هذه العائلة . وفيما هم يتبادلون النظر فى حيرة وتورط دخل رهط من الرجال الكبار المحترمين فى وقار مهيب ، هم صور مكرره من آباء لهؤلاء الضيوف فى قرى اخرى ، فرض محضرهم على الضيوف ان يهبوا واقفين لاستقبالهم والسلام عليهم فى احترام .

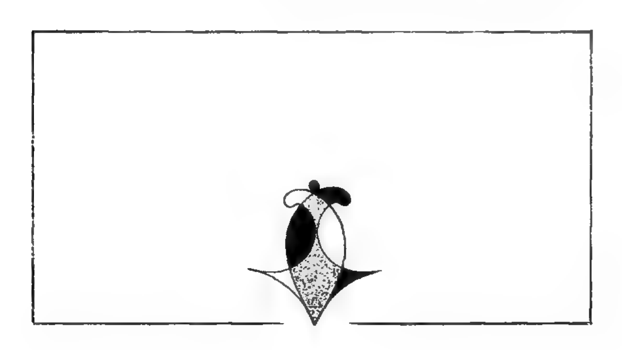
كانوا أربعا يشكلون وفدا من الزعالكة والعقالوه والجرانه والنجار . ما ان سلموا على الضيوف حتى وقف عميد الزعالكة بما اشتهر به من لباقة وقدرة على الخطابة فى استقبال المرشحين والضيوف الكبار ، وباعتباره من عائلة فيها لواء فى

البوليس ومحام وطبيب وتجار كبار وموظفون فى مصلحة المساحة ، فوق ما فيها من فلاحين ذوى املاك طائلة ، فانه يتقن فن الأصول ولهجة القول ويفهم فى منازل الرجال والألقاب والأوصاف المناسبة لكل لقب . خطب على المائدة خطبة قصيرة لطيفة حلوة اللفظ فيها كلمات للمتنبى وأبى النواس وشوق وعلى بن ابى طالب والرسول عليه الصلاة والسلام ، رحب فيها بالضيوف السادة الاجلاء نيابة عن كافة اهل البلدة ، منوها الى ان هذا الغداء ليس يقصد من ورائه اى شىء سوى القيام بالواجب وهو ديدنهم ، انه غداء الشعب ، وشعب هذه البلدة الأبية العظيمة ليؤسفه بالغ الأسف ما ظهر اليوم من سلوك بعض اهلها ، وهم اهلنا فى نهاية الأمر ، صحيح اننا قد نكون على خلافات حول بعض الأمور ، ولكنهم فى النهاية من أهل البلدة ولهم علينا حق الاعتذار عما بدر من حريمهم فى غيبة رجالهم ، ومهما يكن من امر فليمسحها الضيوف فى جبينهم ، ويبقى هناك شىء اخير هو ان الضيوف الأجلاء ان رفضوا هذه العزومة الشعبية فانهم بذلك يكسرون خاطر بلدة برمتها . ثم استوى جالسا امام احدى الصوانى مشمرا ذراعيه ناظرا حواليه قائلا للجميع : هيا باسم الله الرحمن الرحيم . فنزل الجميع وراءه فى الحال دون تردد ، وشرعوا فى الأكل كأنهم فى بيوتهم وقال الرجل المهيب وهو يمضغ اللقيمات فى سأم : « مش كان لازم نطمئن الأول على صحة المصابين حتى يجينا نفس ناكل ؟ » فينظر له عميد الزعالكة وهو يفسخ الديك الرومى الى قطع يرمى بها هنا وهناك امام ملاعق الضيوف ، ثم قال له : « اطمئن سعادتك اهاليهم اسعفوهم .. وتحت أمرك فى اى لحظة » ثم اندمج فى الأكل بشهية يعمد بها الى فتح شهيتهم ، وقد نجح فى ذلك بالفعل حتى ان الصوانى كلها رجعت خاوية ، حيث اتى العسكر على ثلاثة ارباعها فى سرعة هائلة ..

فيما هم يغسلون ايديهم على الطشت والولد يصب عليهم من الابريق النحاسى الكبير صلصلت اجراس عربة الاسعاف ، وخلفها سارينة عربة البوليس راعبة مجلجلة تهدد بالويل وعظائم الأمور . سرعان ما حملت عربة الاسعاف

المصابين واندفعت بهم عائلة يتبعها الأفندية بقيادة الرجل المهيب ، خلفهم العسكر السوارى تجرجر خيولهم الناس المربوطين بالحبال بما فيهم « محمود فتح الله » الذى لم تشفع له لباقته ، وبينهم « زاطه » الذى انتابته حالة هستيرية موسيقية ، فصار يتراقص وهو موثق صائحا : « سلامات ياحكومة .. ياحكومة سلامات .. سلامات سلامات .. عدوك إنسلا مات ياحكومة سلامات » خلفهم عربة عليها قوة من الجنود المسلحين . فى اعقابهم انطلقت الركائب من كل اتجاه تحمل الوجهاء والكبراء يتبعونهم الى البندر ، يحملون نقودا لأطباء المستشفيات ، ورسائل لمحامين يقيمونهم على قضايا سوف تقام فى النيابات والمحاكم ، وتهيأت البلدة كلها لانفاقات باهظة سوف تنفقها عن رضاء ولذة ، وصدامات مع عائلة العمدة سوف تتصادمها ــ أيضا عن رضاء ولذة فائقين .

تستمر الأوضاع شهورا طويلة على اعلى درجة من التوتر والقلق ، وصوت طلقات الرصاص يدوى فى الحقول فى انصاص الليالى ، واصوات الفجائع تتوالى مع الأصبحة عن قطن انتزعت اشجاره وقمح احترقت سنابله وارض اغرقت وبهيمة فطست وشبان سقطت بفعل فاعل مجهول .



(٩)

عبـــود عبد الشافى

الضيوف الأجلاء لم ينسوا ما لحقهم من اهانات فاضحة ، ولم يفرطوا فى حقوقهم ولقد علمت من « أبو سماعين » ان الرجل المهيب وحاشيته قد خاض معركة رهيبة مع أقطاب عائلة العمدة الكثيرين فى القاهرة فى مناصب مختلفة ، وآخر ما وصلت اليه نضالات الرجل المهيب ايقاف العمدة عن العمل وحرمانه من الترشيح حتى تنتهى القضية التى رفعتها النيابة ضده وضد رهط من عائلته امام المحاكم ويترافع فيها محامون من فصيلة عبد الفتاح الطويل باشا او ما اشبه .

على ان اهل البلدة سرعان ما تكاثلت قضاياهم وتكاثفت . ذلك أن « أبو سماعين » تجول فى البلدة عدة جولات شاف خلالها مزاجه وانبسط ، ثم اوصى لمعظم العائلات الرؤوس برفع أنواع من القضايا ضد العمدة وعائلته سواء بالحق او بالباطل ، وكان « أبو سماعين » يزم شفتيه ويطلق ضحكته الشهيرة سعيدا كلما سمع أن فلانا من أهل البلدة رفع قضية ضد فلان أبو سيف ، ويقول مطرقعا اصابعه فى بعضها كالملسوع من النار : « حلو .. كترة القضايا ضد هذه العائلة كفيل باسقاط حقها فى العمدية » ..

وقتذاك كان « عبود » بن عبد الشافى تاجر الحبوب الميسور قد حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة وذبح أبوه ثلاثة عجول وزعت على جميع السابلة والمعوزين ، واقيم فرح غنى فيه « سيد مرسال » اشهر مطرب فى الناحية . وكان « عبود » هذا شابا مؤدبا من يومه ، يدعو له جميع الناس بالنجاح . كذلك

كان صديقا لـ « أبو سماعين » يستعير منه الكتب الصفراء القديمة المطوية فى جيبه على الدوام ولا يدرى احد من اى مكان يستحضرها وان كان يقال انه يشتريها من مكتبات دسوق ، فى مقابل ذلك يعيره « عبود » كتبا حديثة للدكتور طه حسين وللعقاد والمنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى والدكتور هيكل ، وروايات تاريخ الاسلام لجورجى زيدان ، واحيانا كتبا فى القانون يطلبها « أبو سماعين » بالاسم ويتضح جهل « عبود » بها فيسأل عنها ويشتريها ويغامر باعارتها لـ « أبو سماعين » تستمر عنده جمعة او جمعتين ..

كان ذلك أمرا مشهورا فى محيط حينا ، ويتساءل الناس بكثير من الدهشة كيف يتساهل « عبود » فى كتبه الى هذا الحد فيعيرها لرجل كهذا يكورها فى جيبه ويفصصها وربما تضيع منه فى اى مكان ينام فيه . اما انا فقد كنت مبهورا بـ « عبود » وبكلمة الليسانس بالذات انبهارا شديدا جدا ، خاصة ان « أبو سماعين » كان دائما يدعو ان يرانى قد حصلت أنا الآخر على هذه الشهادة العالية . كنت اتكلم مع « عبود » كثيرا كلما جاء الى دكان معلمى « سعد الله » لكى نقيس عليه ثيابه الجديدة الكثيرة . لم يكن يضيق بثرثرتى بل كان يجاوبنى على كل شىء . سألته مرة — لأثبت له اننى عميق الفهم للأمور — نفس السؤال الذى يردده الكبار ، واضفت تعبيرا عن فطنتى : « اليست هذه الكتب هى مكتبتك القانونية حين تصير محاميا ؟ » فابتسم ونظر لى نظرة اعجاب خاص وقال أن « أبو سماعين » يحافظ على الكتب أكثر منه ، ويردها له فى الموعد الذى يحدده ، ثم ان الكتاب لا يضيع من « أبو سماعين » ابدا ، قد يضيع من اى شخص آخر أما « أبو سماعين » فلا انه احسن من يفهم قيمة الكتاب ويحنو عليه ، لو ضاع منه كتاب لحزن عليه اكثر من حزن اى منا على فقيد عزيز .

فى الحقيقة لقد انبهرت من قول « عبود » وسألته — وما كان ينبغى ان أسأل بالطبع — هل هو يعتبر صديقا لـ « أبو سماعين » فقال على الفور كأنه يستنكر سؤالى : « طبعا » ثم اضاف : « ده راجل بركه .. محدش فاهمه .. دا اللى يفهمه يستفيد منه اكبر فوايد » ..

بمجرد حصول « عبود » على الليسانس بدأ يكثر من السفر الى المديرية كل بضعة أيام ليمكث هناك أياما . وبدأ — طوال الأيام التى يتواجدها فى البلد — يكثر من الجلوس مع « أبو سماعين » على المصاطب فى الطرقات ، على قاعدة ساقية ، على شاطىء قناة ، تحت نخيل بحر السبيل ، ولقد طغت هذه الظاهرة على سطح الأحداث حتى نافست أحداث خلافات البلدة مع العمدة وعائلته المستبدة ..

العلاقات وصلت الى ذروة الجنون من جانب عائلة العمدة ، وذروة الحكمة من جانب بقية العائلات . وفى كل يوم هنالك جديد يتحدث فيه الناس ويشغلون انفسهم به لكن ظاهرة الجلسات الانفرادية الطويلة بين « عبود » و « أبو سماعين » احتجزت لنفسها وقتا من حديث الناس واهتمامهم ، حتى كبار القوم الذين من المفروض انهم منشغلون بأمورهم ، يدعكون لحاهم البيضاء فى اندهاش بالغ قائلين : (ياخويه ايه الحكاية .. أبو سماعين اليومين دول لازق للأستاذ عبود عاوز منه ايه .. دا الواحد كل ما يروح فى حته يلاقيهم مع بعض) على ان الاشاعة التى استقرت بعد ذلك بسرعة وصدقها الناس الى حد كبير هى ان الأستاذ « عبود » يعمل الآن — بايحاء من « أبو سماعين » على فتح اول مكتب محامى فى بلدتنا يكون فرعا او نواة لمكتب اساسى يفتحه فى البندر بجوار المحكمة ، وانه — الأستاذ « عبود » — سوف يعين « أبو سماعين » كاتبا فى مكتبه هذا ، وانه قد آن الأوان لكى يخلع « أبو سماعين » ذلك الجلباب الأبدى الرث ، ويرتدى البدلة والطربوش من جديد .

إلا اننى بحكم ارتباطى بالشخصيتين سمعت طرفا كبيرا من الحديث بينهما . ولقد تأكد لى ان « أبو سماعين » خلال تلك الجلسات الانفرادية بينه وبين « عبود » قد نجح فى امور كثيرة ، اختار له مكتبا يتمرن فيه لأحد المحامين الكبار جدا فى المديرية ، اسمه « خالد البرادعى » أحد أقطاب الوفد اللامعين فى كل ترشيحاته ووفوده ولجانه ، كما انه أحد اقطاب اللجان الاستشارية بوجه عام ،

ويقع عليه اختيار الحكومات فى عهود كثيرة ليفصل فى امر قانونى أو يترأس لجنة أو هيئة أو ما الى ذلك . وصحيح أنه كان مشهورا فى العب كله لدرجة أن الناس عند العراك يهددون بعضهم بعضا بالقتل والمجىء بخالد البرادعى للحصول على البراءة ، الا أن « أبو سماعين » كان دون الجميع يعرف عن الأستاذ البرادعى كل المعلومات ، ويعرف ناسا على صلة نسب وثيقة به فى العزبة الفلانية المجاورة لبلدتنا ، تطوع بمرافقة « عبود » اليهم ذات يوم بالركائب حتى توسطوا لعبود وألحقوه بمكتب الأستاذ . ذلك ان الالتحاق بمكتب الأستاذ حينذاك لم يكن سهلا ، فهناك اعتبارات كثيرة لابد ان تتوفر فيمن يوافق الاستاذ على من يعملون لديه أمام القضاء باسمه ، فهو يعتبر ان المحامى الذي يتمرن عنده لابد ان يكون صورة مصغرة منه شخصيا ، حتى اذا ما وقف امام القضاة تحت علم اسمه كبر وصار كأنه هو ، وأى محكمة سوف تعامل مندوبه بنفس القدر من الاحترام والانصات ، فلابد والأمر كذلك أن يكون هذا المحامى الشاب من اوائل الخريجين النجباء الأذكياء هذه قاعدة اولية ، ثم لابد ان يكون وفديا هو الآخر مثل صاحب المكتب ، ويا حبذا لو كان من بين الزعامات الطلابية وله مواقف مسموعه خارج اسوار الجامعة . هكذا كان يفرض الأستاذ « خالد البرادعى » على من ينالون شرف الانتساب الى مكتبه . غير ان « عبود » حين التقى بالأستاذ « البرادعى » لأول مرة للمناقشة على سبيل التعرف ــ وهو الاسم المهذب للامتحان والاختبار ــ كانت شخصية « أبو سماعين » حاضرة بل ماثلة فى ذهنه طوال فترة اللقاء التى استمرت ما يقرب من ساعتين ، حيث عرف « عبود » من « أبو سماعين » كيف يتخاطب مع مثل هذا الرجل الداهية ، وكيف يقنعه انه شاب ذو مبدأ وذو موقف سياسى يتجانس مع موقف الأستاذ ، بل انه ذو قضية ، وقضيته قضية بلدة بكاملها من اكبر بلدان العب كله وتعتبر الورقة الرابحة فى يد اى مرشح انتخابى وبدونها لا يفوز احد ، تستبد بها عائلة مجنونة تنتهك حرماتها وتذل كبرياءها .

استطاع « عبود » ان يملأ دماغ الأستاذ ويحصل على اعجابه . فما ان

استقر الأستاذ « عبود عبد الشافى » بمكتب الأستاذ « البرادعى » حتى بدأت عراو جديدة يحيكها « أبو سماعين » . انه لينافسنى فى شغل العراوى ولكن على طريقة الحياة ، سريعا ما يفتح عروة فى طرف موضوع ثم يحيكها جيدا كما افعل أنا بالخيط والابرة ، ثم يحيك لها زرارا فى طرف آخر بعيد جدا ، وبأعجوبة اسطورية يلضم الزرار فى العروة . واذا كنت انا وزملائى نمل من عراوى صديرى واحد لكثرتها وكثرة أزرارها فان « أبو سماعين » يستطيع ان يظل يصنع العراوى فى أطراف الموضوعات والعلاقات بين الناس فيحيكها جيدا ويضع لها فى المقابل ازرارا مهما طالت قامة الموضوع .

هكذا دخل زرار مربوط فى صدر المديرية اسمه « خالد البرادعى » ، فى عروة مفتوحة ومشغولة بالحياكة فى صدر مشكلة بلدتنا اسمه « عبود عبد الشافى » المحامى تحت التمرين . فاذا بدم جديد يتدفق فى عروق القضية فيحييها ويهيج قروحها القديمة المتجددة على الدوام . وكانت الجلسات الانفرادية المتكررة التى حدثت وتحدث بين « عبود » و « أبو سماعين » هى فى الواقع جلسات بحث وتمحيص فى بنود عريضة دعوى يرفعها الأستاذ « عبود عبد الشافى » باسم البلدة كلها فى مكتب الأستاذ « خالد البرادعى » المحامى الكبير .. ومن غيرك يابرادعى يستطيع ان يغرز اسنانه فى لحم عائلة العمدة فيوجعها ؟ وحسبما توقع « أبو سماعين » لقد فرح الأستاذ « البرادعى » بهذه القضية فرحا كبيرا وقبل فيها أتفه الأتعاب ، فهى فرصة ينفس فيها عن حقده الدفين ضد خصومه فى السياسة الذين فوق ذلك اصبحوا خصومه فى الانسانية بما يرتكبونه من فاحش الأفعال .

لم يجد الأستاذ « عبود » صعوبة فى جمع توقيعات ، حيث تكفل « أبو سماعين » بصنع عراوى وحياكة أزرار بين كل العائلات المتناحرة ، حتى تلك التى كانت حليفة لعائلة العمدة بحكم مصالح متبادلة أو نتيجة ضعف أسرى . هو خبير بالناس والعلاقات والأشياء خبرة تمكنه من السيطرة على النفوس كما يهوى ، اذ هو بتعبيره يعرف كيف يهرش للناس مطرح ما تستحلى ، ففى نفس كل

انسان منا منطقة نفسية معينة او اكثر من منطقة يستلذ الهرش فيها كما البدن سواء بسواء ، وهو يعرف هذه المناطق النفسية ويقول ضاحكا انها ليست عبقرية ولكنها امر يستطيع كل انسان ان يعرفه لو أراد . وكان لا يفتأ يردد « العلاقات بين أولاد آدم وبعضهم تشبه هذا الصديرى الذى فى يديك ، هى التى تسترنا وتستر عوراتنا ، هى الثوب الذى لابد ان نلمه حول جسدنا » وكنت اظن ان هذا الكلام من قبيل الحكم الأفيونية ولكننى شهدت بصدقه حين رأيت البلدة كلها ــ بفضل جهوده العظيمة والمنكورة فى نفس الوقت توقع ببصماتها على اغرب توكيل شهدته مكاتب المحامين على اختلاف مستوياتها ، بموجبه يصبح الأستاذ البرادعى وكيلا رسميا عن بلدة برمتها ضد عائلة واحدة . وهكذا اقام الأستاذ « البرادعى » دفاعه مطالبا بنزع العمدية عن هذه العائلة بعد ان نجح ــ بايحاء من افكار أبو سماعين عبر الأستاذ عبود ــ فى تجريم العائلة ودمغها بالجنون المتوارث .

شهور طويلة والقضية قائمة على قدم وساق كلفت البلدة الجلد والسقط ولكن العمدة خسر فى النهاية كل شىء وخرجت العمدية من عائلته الى الأبد . وكان يوم انتقال آلة التليفون من دوار السوايفة الى مبنى المدرسة ــ مقر العمدية المؤقتة التى اسندت مؤقتا لشكرى افندى ناظر التفتيش ينوب عنه الشيخ عبد العزيز أبو غلاب امام المسجد الكبير ــ يوما من ايام بلدتنا لا تنساه ذاكرتها ابدا ، دقت فيه طبول ورفرفت زغاريد بقدر يفوق جميع ما اطلق فى جميع افراحها طوال حياتها من زغاريد ، يومها ابيح لكل من هب ودبّ ان يسخر من لهجة العمدة وان يقلدها كما كان يفعل الكبار فى جلساتهم الخاصة ، بأن يلوك الواحد منهم لسانه فى حلقه مصعدا اصوات الحروف ليخنقها تعبيرا عن الأنفة والغطرسة الشديدتين اللتين تتميز بهما هذه العائلة .



(١٠)

الحاج
مصطفى الحداد

لو أن أحدا ــ كائنا من كانت مرتبته فى البلدة ــ قال فى مجلس من المجالس ــ ولو على سبيل المزاح العابر ــ أنه يرشح «الحاج مصطفى الحداد» لعمدية البلدة ، لجر على نفسه ، ليس فقط كثيرا من السخرية والاستهجان ، بل ربما تعرض للضرب والاهانة اذا ماكان المجلس يضم أفرادا من عائلات كبيرة فى البلدة ، فبلدتنا تضم أعدادا هائلة من العائلات الضخمة التى يعمل لها الجميع ألف حساب فلا يدوسون لبعضهم البعض على طرف . وربما كان هذا هو الشىء الوحيد الذى أقام نوعا من التوازن فى أمن البلدة . فهناك أكثر من ثلاثين عائلة مرهوبة الجانب يقدر عدد أفرادها بالمئات وعدد فدادينها بالآلاف . بعض هذه العائلات تحتل بلدانا صغيرة وعزبا مجاورة تسمى باسمها . لكن الجميع مع بعضهم سمن على عسل ، حدود الأراضى متجاورة ، الخصوبة معدية هى الأخرى ، عدوى الاخضرار ذات نفس سمحة لاتفرق بين أرض هذا وأرض ذاك فكل الأراضى حقلها ميدانها ، هكذا النفوس أيضا بين أصحاب هذه الأراضى وبين أهل البلدة كلهم ، أفراد من هذه العائلة أو تلك يتطوعون بمساعدة الجيران فى جمع أو نقاوة أرز أو حصاد أو رى أو دفع مخاطر ، لكى يساعدهم الجيران نفس المساعدة فى ظروف قادمة ، حقولنا حقولكم بهائمنا تحت أمر سواقيكم محاريثنا ونوارجنا بل وأولادنا فداء لكم ، النقوط فى الأفراح حضور حى للعائلات ، الشربات على شرف العريس فى استقبال موكبه عند المرور على كل بيت أمر لايفوته أحد ، سيقان الرجال تنهب الأرض جريا فى انقاذ بهيمة فطسى ، يمنعونها من الوقوع ، فان وقعت

يمنعونها من الضياع ، لابد أن يلحقوها بالسكين ، ولا بد أن يشترى كل فرد قطعة من لحمها بسعر السوق ، حتى لو كانت غير صالحة للأكل فليأخذوها الى بيوتهم ويتصرفون فيها كيف يشاءون المهم أن ثمنها لابد وأن يتجمع فى يد صاحبها يزيل عنه هول الفاجعة ، الصوات الملتاع ان اطلقته امرأة هب الرجال من رقادهم فزعين وهرعوا ينقذون ، ان كان حريقا فلابد أن تخمده البلدة فى رقصة فرعونية منتظمة ، حيث تخرج جميع النساء بجميع الجرار ، تنتظم صفوف الرجال تلقائيا من أقرب مصدر للماء حتى قلب الحريق ، النسوة كالغزلان المائسات يسلمن الرجال جرارهن ويتلقفن غيرها ليسرعن بملئها من الترعة أو القناة أو ميضأة المسجد ، حتى لتشغى البلدة كلها بالحركة من أولها الى آخرها والكل يعمل على اخماد الحريق حتى ولو كان فى بيت من عائلة معزولة كالسوايفة ..

هذه العائلة تكتسب عزوة وأصالة وقوة ، وترى لنفسها الحق فى العمدية أو على الأقل الترشيح لها ، بالاضافة الى ذلك هناك مجموعة أخرى قليلة من عائلات ليست كبيرة فى عدد أفرادها ولكنها كبيرة الحجم ، أفرادها قليلون أى نعم ، ولكن العائلة الواحدة ترى منها محاميا ومدرسا وطبيبا وصيدليا وضابطا فى الجيش او كنوستبلا فى البوليس ، صحيح أن أعلامها هؤلاء يقيمون فى المدن اقامة تامة ولا يحضرون الا كل بضعة أعياد ، لكن حضورهم يظل أبدا يسحب على دورهم وعلى أهلهم فى البلدة هالة من الرهبة والاحترام . لهم أبناء موظفون فى جهات حكومية حساسة ، وأهلهم فى البلدة يتوسطون كل يوم لأهالى البلدة فى تخليص أوراق هامة وخدمات جوهرية . حقيقة الأمر أن هذه المجموعة القليلة من العائلات ، التى تمثلت فى الزعالكة والعقالوه والتجار والبكاروة ، والتى تنحدر كلها فى الأساس من أصول زراعية وتجارية محضة آمنت بالعلم وأنتبهت الى جدواه الاجتماعية منذ وقت مبكر ، ويغلب على الظن أنهم من أحفاد الجيل العربى القديم الذى استوطن بلدتنا عن طريق نظام الارتباع الذى حدثنا عنه «أبوسماعين » ، ابان الفتح الاسلامى لمصر ، وقد انتبهوا الى ضرورة العلم والوظائف الحكومية متأثرين

بالأقباط المصريين الذين عاشروهم قرونا طويلة ، وكانوا فيما مضى يغرمون بالتعليم الأزهرى الصرف ولكنهم تأقلموا مع الزمن فأدخلوا أبناءهم المدارس المدنية والمهنية ، مع ضرورة أن تحتفظ كل عائلة لنفسها بابن من أبنائها يدرس فى الأزهر الشريف ويصبح شيخا له جلاله تستمد منه العائلة حظوا كبيرا بين الناس . يغلب على الظن أنهم عرب لأن معظمهم يحتفظ فى داره بشجرة العائلة وهذا تقليد عربى خالص كما أفهمنى «أبو سماعين» ..

هذه العائلات ــ فى حقيقة الأمر ــ هى التى باتت ذات القوة الفعلية الحقيقية فى البلدة . فكثرة الرجال وكثرة الأموال لاتنفع العائلات فى تعاملها مع الحكومة بل ينفعها رجالهم الذين حصلوا على قسط من العلم وأصبحوا فى مواقع حساسة فى الجهاز الحكومى ، أولئك الذين لم يفتهم «الميرى» فليسوا فى حاجة للتمرغ فى ترابه مثل الآخرين .. لقد باتت هذه هى القوة الحقيقية التى تستمد منها هذه العائلات المحدودة العدد والمال سلطانها وهيبتها فى البلدة . وكانوا بالفعل أليق بهذا السلطان وهذه الهيبة . كنا نحكم بذلك من خلال أولادهم الذين أصبحنا نزاملهم فى المدرسة ، حيث كنا نلاحظ أن الأولاد الذين يثيرون خيالنا بنشاطات رياضية وفنية متفوقة كانوا من أبناء الزعالكة والعقالوة والنجار والبكاروة ، وكنا نحبهم لفرط أدبهم وحسن تربيتهم بالقياس الى الآخرين ممن هم فى مستوى ثرائهم وبغددتهم ، كانوا فى أنظارنا النموذج الأرقى لمن نسميهم بأولاد الناس ، فهم يتشابهون مع أبناء العائلات الأخرى الثرية فى نظافة المظهر باستمرار والثياب الثمينة الجديدة وانتعال الأحذية التى فصلت خصيصا لهم ، والتزود بالمأكولات والفواكه فى أكياس من النايلون ، والحقائب الجلدية بدلا من المخالى .. الا أن أبناء العائلات الذين لهم صلة بالعلم والوظائف الحكومية كانوا يمتازون ــ رغم سمار وجوههم ــ بالأدب والفصاحة واللباقة ، يأخذون عشرة على عشرة فى دروس المحفوظات والانشاء ، ويرأسون جمعيات الخطابة والتمثيل والكشافة ، والأهم من كل ذلك وغيره أنهم كانوا يعاملوننا باعتبارنا تلاميذ مثلهم فى مدرسة واحدة رغم

حفائنا وسوء مظهرنا وزناخة رائحتنا ، وتخلو لهجاتهم وسلوكاتهم نحونا من نزعات التحقير والسخرية والاستعلاء والاستقواء التى كان يمارسها علينا كل من انتعل حذاء ..

هذه العائلات هى الأخرى كانت تطمح فى العمدية بل انها سعت اليها مرات عديدة فى عهود مختلفة ، وكانت تعرف مقدما أنها لن تحصل على نزع هذه اللقمة السائغة من حنك السوايفة ، ولكنها تحب أن تسجل لنفسها فى تاريخها شرف المحاولة ..

فيما عدا هؤلاء وأولئك فعموم الناس فى بلدتنا طيبون ولا يطمحون فى شيء ولا يرشحون أنفسهم لأى شيء ..

عموم الناس فى بلدتنا ــ مع كل هذه العائلات القوية الجبارة ــ رهط كبير جدا من الأنفار الشغيلة والتملية والعمال الزراعيين والحرفيين من خياطين ونجارين وحدادين وبرادعيه وغربلية وعتقية وسمكرية بوابير جاز وبقالين ، فضلا عن صغار الفلاحين من ذوى نصف فدان فأكثر قليلا ..

«أبو سماعين» يعرف دخيلة هؤلاء وأولئك من كل أهل البلدة . وقد لاحظ عموم الناس أن «أبو سماعين» قد بدأ يختفى من مجالسهم أياما طويلة . لم يقلقوا بالطبع ، لأنهم كانوا يرونه من حين الى حين مستغرقا فى مجالس العائلات الكبيرة المرموقة ينسحب من واحد ليقبل على آخر ، موضوع العمدية مطروح فى كل مجلس ، «أبو سماعين » لايفعل شيئا فى الظاهر وان كان هو «الدينامو» الذى يحركه وفوق ذلك يمسك بعجلة القيادة من طرف خفى ليوجهه فى وجهات معينة . هو فى كل مجلس يشيع ــ همسا ــ أنه قد سمع من مصدر موثوق منه أن العمدية سوف ترسو على العائلة الفلانية بعد سعى جهيد من عميدها فلان . لايقابل المجلس هذه الاشاعة بالاستهجان ، اذ أن هذه العائلة يمكن بالفعل أن تكون واردة . لكن «ابو سماعين » ينتظر الطعون التى يتوقع تتابعها فى المجلس

بطريق غير مباشر ، اذ يبدأ كل واحد فى المجلس فيقول على سبيل المجاملة أنه لايمانع فى أن يكون الحاج فلان أو الحاج علان هو العمدة ، بل يسره ذلك فى الواقع ، لكنه ــ فقط ــ يخشى من ... ويبدى بعض التحفظات التى يصفها بأنها بسيطة وهى فى الواقع مطاعن خطيرة فى الشخصية وفى العائلة بأسلوب متحفظ لبق ..

لم تستغرق الجولات أكثر من أسابيع قليلة ، تأكد لـ « أبو سماعين » خلالها أن عمدة من أى من هذه العائلات المرموقة سوف يكون وبالا على البلدة ، سيكون على الأقل استمراراً للوضع الذى كان ، فصحيح أن عائلة فى سخف السوايفه وجلافتهم وغطرستهم وعجرفتهم لم ولن تتواجد مرة أخرى فى بلدتنا .. ولكنه متأكد الآن أن العمدية تفسد الناس ، فالانسان بغير قوة ، غيره بقوة ، ربما اختلفت شخصيته تمام الاختلاف . هكذا كان يردد «أبو سماعين » حين استأنف جولاته بين عموم الناس ومجالسهم فى الشوارع وفى الدكاكين . كل عائلة من العائلات المرموقة التى طرح اسمها للترشيح للعمدية لم تنج من مطاعن خطيرة ، جمعها «أبو سماعين » فى دماغه من مجالس علية القوم ، ونشرها فى مجالس عموم الناس مطورة بشكل فنى بارع لم أعهد له مثيلا من قبل ولا من بعد .

فـ « أبو سماعين » فى الواقع ليس يجرؤ على الطعن فى شخصية أو كفاءة أحد ، بله أن يكون هذا الأحد مرموقا من عائلة مرهوبة الجانب . فماذا يفعل ولديه مطاعن كثيرة يقتنع بخطورتها ويرى ألا مفر من تنبيه الناس اليها ؟ . اذا به يلجأ الى طريقة هو وحده الذى يبرع فيها ، حيث تصهلل الأفيونة فى رأسه فيعمد الى تقليد واحد من عمداء هذه العائلات ، وكل عمداء العائلات معروفون معرفة تامة لدى جميع أهل البلدة كبيرا وصغيرا ، يتقمص «أبو سماعين» شخصية واحد منهم فى حالة عُمديه ، يتكلم ويتصرف باعتباره العمدة ، ولأنه موهوب فى تقليد الشخصيات ، خبير بالتقاط السمات النفسية والكلامية والخصائص العامة

التى تميز الأفراد والأعلام .. فانه حين يعيد ارسال الشخصية من خلال تقمصها فى لحظة عمدية تمثيلية كان يميت الجالسين من الضحك ، حتى عائلات هؤلاء العمداء كانوا يضحكون أيضا . فى كل يوم ينبسط «أبو سماعين » ويقلد شخصا عميدا ، وفى كل مجلس تستعاد هذه التقليدات بعد انصرافه طلبا لمزيد من الضحك ، فلما أخذ الضحك غايته بقيت فى أذهان القوم تلك التجسيدات الكاريكاتورية الخطيرة التى رسمها وجسدها «أبو سماعين» فى صيغة مزاح برىء . بقيت فى الأذهان وثيقة فنية تؤكد أن كل هذه الوجوه المطروحة للعمدية سوف تكون عذابا آخر لايقل عن عذاب السوايفة وان اختلفت مظاهره ، وأن كل العائلات المرشحة للعمدية لن يضمن أحد حيدتها الكاملة بحكم مالديها من نوازع خفية سلطوية متطرفه كشف عنها «أبو سماعين » بصنعة لطافة ..

ثم إن العائلات بدأت تدعو لانتخابها صراحة ، فاذا بالنوازع الشريرة التى كانت خفية فيما مضى تتصادم فى الحال ، واذا بكل العائلات المرموقة تبدو وكأنها تزمع القضاء نهائيا على بعضها البعض . فبدلا من أن تقدم كل عائلة مبررات قوية تدعم ترشيحها ، انشغلت فى تجريح العائلة الأخرى وتسوىء سمعتها ، واستدعاء ــ أو ربما اختلاق ــ أحداث تاريخية قديمة تنقص من قدر العائلة المنافسة وتحرمها من حق الترشيح للعمدية ، حتى ضجت المديرية وضج الحكمدار بل ضجت العاصمة نفسها من هذا اللغط الشديد ، وكادت البلدة تفقد سمعتها ، وكادت عائلة السوايفه تصعد على سطح الماء العكر من جديد لتثبت قدرتها على شكم هؤلاء الرعاع ! ..

فى قمة هذا اللغط استأنف « أبو سماعين » جولاته بين عموم الناس حاملا رسالة أخرى لايدريها أحد . أنا وحدى الذى لاحظ مايهدف اليه «أبو سماعين » من هذه الحكايات والطرائف الجديدة التى بدأ يحكيها فى كل مجلس بطرائق مختلفة ، تدور كلها حول طيبة قلب « الحاج مصطفى الحداد » . يحكى الكثير من نوادره التى يطرب لها الناس ويحبونها ..

للحاج «مصطفى الحداد» نوادر كثيرة مشهورة بين أهل البلدة ولكن «أبو سماعين يخترع من دماغه نوادر أخرى أكثر طرافه، يخلعها على «الحاج مصطفى الحداد»، اذا تأملها السامع — ولابد أن يتأملها لطرافتها — يتضح له من خلالها كيف أن «الحاج مصطفى الحداد» هذا رجل شهم شجاع، وحقانى، يحب العدل، يحب الناس وتحبه الناس، اذ هو رجل ضحوك يجمع بين الوقار وخفة الظل، بين الجد والأريحية. وهكذا بدا كأن الناس قد تذكروا «الحاج مصطفى الحداد» فجأة، اذ — فجأة أيضا — قد صار له كل ذلك الحضور القوى بين الناس فى كل مجالسهم، وبدأ يتحول من رمز للضحك والسخرية الوقورة الى شيء أكبر من هذا بكثير..

ينحدر «الحاج مصطفى الحداد» من صلب أب تركى الجد وأم مصرية الجد فلاحة، يدعى «سميح افندى شوكت»، كان يعمل سمسارا لجلب الأقطان من مزارعى بلدتنا لحساب التجار الكبار نظير عمولات كبيرة لقاء خبرته بأنواع الأقطان ومعرفتة المباشرة بالمزارعين، ورغم أنه لم يكن من بلدتنا فانه كان معروفا فيها وفيما حولها من بلدان كأنه أحد أبناء المنطقة. كان نصف فلاح ونصف أفندى، نصف الفلاح الذى فيه يتعامل بخبرة جيدة مع الفلاحين، ونصف الأفندى الذى فيه يتعامل بخبرة جيدة مع التجار والمقاولين، غير أن النصف فيه كان كلا متكاملا. لم يكن له ثمة من أقارب الا أخت متزوجة فى الاسكندرية وأخ يعمل فى استانبول. فى العقد الأخير من عمره تزوج من بلدتنا، بنتا صغيرة من عائلة كانت ذات يوم ميسورة ثم انقرضت، وبها أصبح واحد من بلدتنا، فابتنى بيتا من الأسمنت المسلح نصفه قصر ونصفه دار فلاحية، أما نصف القصر فلاستقبال الضيوف ذو شرفات فخيمة عالية، وأما بقيته الداخلية فحظيرة للمواشى وحجرات للحريم والطيور وخزين الدار. وقد أنجب «سميح افندى شوكت» من هذه الزيجة بنتين توقفت زوجته عن الخلفة بعدهما سنوات طويلة. «بدر البدور» و «ستوته» كانتا جميلتين فيهما دم تركى يونانى يجرى فى ملامح

وجه مصرى لونه أقرب الى النحاس الأحمر . كانتا فضلا عن ذلك جذابتين ، لهذا كان لهما فضل كبير على «سميح افندى شوكت » اذ بهما وحدهما توطدت أركانه فى البلدة نهائيا وصار من أعلامها المبرزين ، حين تزوجت «بدر البدور» من شاب ثرى أصبح فيما بعد عميد عائلة الزعالكة ، وتزوجت «ستوتة » من شاب ثرى آخر أصبح فيما بعد عميد عائلة العقالوة .. فاتسعت تجارة «سميح أفندى شوكت » وضوعفت أملاكه فى البلدة ..

لكن زوجته بعد واحد وعشرين عاما حملت من جديد فكان لذلك احتفال عظيم ، وأنجبت له «مصطفى » . منذ لحظة ميلاده وخلال جميع الاحتفالات بأعياده الأولى كان أبوه وكل فرد من العائلتين المصاهرتين ، ليس فقط يتوقع بل يتأكد أن «مصطفى » سوف يكون ولدا نجيبا دون شك ، سيدخل مدرسة الحقوق لابد ، ويتخرج محاميا أو وكيل نيابة ، وقد يغدو سياسيا كبيرا باذن الله ، فما الذى يمكن أن يعطله عن ذلك ؟ أبوه أفندى ذكى ، والأموال موجودة للصرف عليه بدون حساب فى أى من فرنسا أو لندن أو ماأشبه من بلاد بره التى يذهب اليها أولاد الذوات يتعلمون . على أن «مصطفى » خيب ظن الجميع وخاصة أبيه ، فلم يحتفظ له بأى أمل طاف بخياله ، حتى اسمه لم يحتفظ به «مصطفى » ، قضى حتى على طموح أبيه الطبيعى فى أن يردد الناس اسم «مصطفى سميح شوكت » مصحوبا بهالة النجاح أو حتى بدون نجاح . أصبحوا لايعرفون الا اسم «مصطفى النجار » ، وتراجع اسم «سميح شوكت » عن الألسنة تماما الا فى شهادات الميلاد والأوراق الرسمية الصامتة ..

ذلك أن «مصطفى سميح شوكت » حقق فشلا عظيما فى الدراسة من أول سنة دراسية . فلقد تعوّد على أن تجاب له جميع طلباته قبل أن يطلبها . فتح عينيه على التميز الواضح كأنه الطفل الوحيد فى العالم ، عربة يد تنقله من السرير الى الرضعة ، السرير نفسه عربة متنقلة ، حجرة خاصة ، ملابس خاصة جىء بها من بلاد برة ، عائلتان كبيرتان تتنافسان فى حبه وتهنينه وتقديم الهدايا له ، تتقلب

الدنيا بهم اذا ارتفعت درجة حرارته أو أصابه زكام ، يجيء أكثر من ضيب من المديرية نفسها . حيل بينه وبين شوارع البلدة الا مخفورا بحرس ومحاطا بالعناية خوفا من غبار الطريق . دخل مدرسة البلدة سنة واحدة كانت «الكارتة» توصلة كل يوم يجرها جوادان ، تنتظره لتعود به ، كثيرا مايزوره الطبيب فى المدرسة ليفحصه بسرعة . انتقل الى المدرسة الابتدائية فى المدينة ، الأسرة تنتقل معه ، أبوه وأمه يستأجران بيتا فى المدينة ثابتا ، لابأس من شرائه ليكون مقرا للأسرة طوال سنوات تعليم الولد حتى الشهادة الابتدائية وحتى يلتحق بمدرسة الحقوق أو الطب أو المهندسخانة ..

التوصيات والدروس الخصوصية المتوالية ، النقود والهدايا التى ينفقها أبوه على طاقم التدريس ، كل ذلك لم ينجح فى تنوير مخ «مصطفى» أو تأهيله لمواصلة التعليم بيسر وسهولة بعد أن كان قد تعود على أن يجيئه كل شيء جاهزا ، وعلى ألا يبذل جهدا على الاطلاق فى تحصيل أى شيء ، حتى مذاكرة الدروس وهى جهد فردى كانوا يأتونه بمن يذاكرها له من أولاد كبار ومدرسين ! . وهكذا مكث «مصطفى سميح شوكت» فى المدرسة الابتدائية سنوات مضاعفة ، إما ليقظة ضمير الامتحانات واللجان وإما لانعدامه تماما بغية تطويل وقت الاستفادة من وراء هذا التلميذ «اللقطة» . فلما حصل على الشهادة الابتدائية بشق النفس كانت سنّه قد تجاورت القبول فى مدرسة أخرى ، وكان هو نفسه قد مل التعليم وطلب التوقف عند هذا الحد . لكن أباه ـــ ومن ورائه الأصهار ـــ أصر على أن يكمل الدراسة بأى شكل ولو ليتعلم مهنة تكون فى يديه عند الشدة لاقدر الله .. فالحقوة بمدرسة الصنايع فى مدينة دمنهور ، فأسوأ شيء فى بلدتنا أن يعود الإبن بعد سنوات الدراسة خائبا دون وظيفة فى «الميرى» . ولم يكن فى الأرض وظيفة يمكن أن يستفيد منها «مصطفى سميح شوكت» بالمرتب الذى يكفيه لانفاق أسبوع واحد ، كذلك لم يكن فى الأرض ثمة وظيفة يمكن أن تستفيد من «مصطفى سميح شوكت» ، فهو تقريبا ليس يصلح لأى شيء سوى أن يجلس

فوق الكنبة المنجدة متربعا ليأمر وينهى فى رهط من التملية .. مع أن شيئا ما فى وجهه وعينيه وسلوكه بوجه عام كان يتناقض مع مظهر الخشونة والأمر والنهى ! ..

مع ذلك لعبت الوساطة دورا كبيرا فى توظيفه فور تخرجه من مدرسة الصنايع . هذه الوساطة لم تكن سوى أبى ، الذى كان آنذاك موظفا كبيرا فى مصلحة الفنارات بالاسكندرية أيام كانت عائلتنا ــ الكلافين ــ فى صدر العائلات المرموقة فى البلدة ، على حس جدى بطبيعة الحال ، وقبل أن تخطف المنية رجالها الكبار ــ واحدا وراء الآخر ، وكانت موشكة على الانقراض لولا أن أحيل أبى الى التقاعد فجاء الى البلدة ليصبح عميد العائلة ويغذيها بعدة شبان من نتاجه ونتاج أبناء اخوته ، ويعيد لها كيانها المرموق من جديد ولكن بدون عزوة أو قوة حقيقية .. كللت جهود أبى بالنجاح فى تعيين «مصطفى سميح شوكت» فى وظيفة براد فى الترسانة البحرية بالاسكندرية . وظيفة صغيرة أى نعم ولكنها فى الاسكندرية ، وفى الترسانة ، إسمان لهما فى بلدتنا شنة ورنة ، خاصة عند حضور «مصطفى أفندى» الى البلدة فى اجازة قصيرة ومعاودة السفر بالركائب يجرى خلفها التملية بأحمال الحقائب والخزين . وتتويجا للوظيفة ، وليحفظ الأب لابنه شبابه ومستقبله فى الغربة قام بتزويجه من احدى بنات البكاروة الشقراوات حيث انتقلت معه الى الاسكندرية فى زفة مهيبة ..

غير أن «مصطفى سميح شوكت» الذى تعود على الأمر والنهى مالبث أن ضاق بقيود الوظيفة وتحكم الرؤساء فيه فى حين أنهم ــ فى نظره ــ ربما كانوا أبناء غسالات فى المدينة لايصلحن خدما له . حتى العيش فى الاسكندرية نفسها ــ وهى عروس البلاد ــ ضاق به «مصطفى» لما فى شخصيته من طبيعة فلاحية صرفة غرسها فيه أخواله ، ثم أنه لم يكن يطيق لبس البدلة أكثر من ساعات معدودة فما بالك والمطلوب منه أن يلبس ما يسمى بالعفريته الزرقاء . تجمع كل هذا الضيق لينطلق دفعة واحدة فى لحظة مجنونة على شدة بساطتها : كان المهندس الكبير قد كلفه بخرط «جلبة» مستديرة تستخدم كتخشينة لموضع ما فى ماكينة

احدى السفن التى يتم بناؤها داخل البحر ، على أن تكون نموذجا يتم عليه خرط الكثير منها . وقد خرطها «مصطفى» بالفعل ولكنها لم تجىء مضبوطة تماما ، فطلب منه المهندس الكبير أن يبردها قليلا فى مناطق معينة ويعود بها . فكان عليه أن يهبط الى الدور الأرضى حيث الورشة ، عبر سلالم حديدية حلزونية مزيتة . وقد فعل ، ثم صعد بها ثانية للمهندس الكبير قائلا : «كويس كده ؟» . فقاسها المهندس الكبير فوجدها محتاجة لقليل من البرد الهين . فنزل الى الورشة فبردها جيدا ثم صعد ثالثه قائلا للمهندس الكبير : « كويس كده » ؟ فقاسها المهندس الكبير فوجدها مضبوطة تماما لكنها فى حاجة الى تنعيم ، فقال : «لسه شوية تنعيم » .فاذا بـ « «مصطفى » يطوح بالجلبة فى عرض البحر قائلا : «طب كويس كده ؟! » ، وحينئذ نظر اليه المهندس الكبير برضاء كبير قائلا : «جدا جدا .. كده كويس قوى قوى » . ولم يكن «مصطفى » فى حاجة الى تقديم استقالة أو أمر بالفصل .. فنزل من حجرة المهندس ليخلع العفريتة ويرمى بها خارجا من الترسانة الى غير رجعة .

أقام فى البلدة شهورا لايدرى ماذا يفعل . وكمحاولة لتغطية الفشل وستر الوجه أمام البلدة قرر «مصطفى» أن يفتتح فى البلدة ورشة حدادة مجهزة بأحدث العدد والأدوات . لم يفكر طبعا فى العمل الذى يمكن أن يغذى ورشة كهذه فى بلدة كبلدتنا ، لكن الحماس خيل له أن العمل سينهال على الورشة من تجهيز ساقية الى صنع منجل للحصاد . أمده أبوه بالمال اللازم وأقيم للورشة بناء فى وسط البلدة تماما كأنها عنبر فى مستشفى ، وجىء بصبيان يتعلمون فيها ويخدمون ، خصص منهم ولد لجذب يد الكير عند النفخ لتوليع النار حيث يظل الولد يشد يد الكير ويتركها تصعد ثم يشدها حتى ينخلع ذراعه . وقرىء على عتبتها القرآن ، وعند المساء رقص وغنى وتبذل محترفون من «عزبة العبيد » . ثم أنها بقيت مفتوحة الأبواب يجلس « مصطفى افندى » على بابها خلف مكتب أنيق ينتظر فيض الكريم . مر يوم ويومان ثم جاءه فى الصباح فلاح يمسك بقضيب من الحديد طويل ، قدمه لمصطفى افندى قائلا : «عايزينك ترجم دى منجل ! » ،

أى أن يحول هذا القضيب الى منجل للحصاد . هز «مصطفى افندى » رأسه فى رضاء وامتثال لأمر الله قائلا فى أريحية : «استفتاحك ندى باذن الله .. وماله .. شغل الكور ياولد » . ونشط الولد فى الحال ليثبت جدارته بالعمل فملأ الكير بالفحم وأشعله . وقدم الفلاح «واحد بأربعة » — أى نصف أفرنك من الفضة الخالصة قوامها أربعة تعريفات بعشرين مليما — فنحاه «مصطفى أفندى » جانبا برفق كأنما أمر الأجر غير وارد فى شغله ، فتركها له الفلاح على سطح المكتب وانصرف ليعود بعد صلاة العصر ليأخذ المنجل . خلع «مصطفى » ثيابه استعدادا للعرق فى العمل ، ودفع بقضيب الحديد الى النار المتوهجة مثل جهنم ، وتركه وجلس يقرأ الجرنان لمدة ساعتين ، فقام وجذبه من طرفه الحر بالكلابات ، وضعه فوق السندان ، وجعل يدق بالمرزبة بغية أن يثنية أولا على شكل نصف قطر الدائرة تنزلق منها قطعة سرحة تمسكها اليد ، ثم بعد ذلك يبططه تماما ، وبالمبرد الكبير — وربما بمجموعة مبارد — يشق له أسنانا مدببة ..

علم ولدا كيف يمسك بطرف القضيب بالكلابات بقبضة حديدية ، وولدا آخر كيف يهوى بالمرزبة فوق القضيب ، وليس على «مصطفى أفندى » سوى أن يحدد للقضيب موضعه فوق السندان وللولد موقع الضربة فوقه ، وله أن يهوى بقبضة حديدية لو أراد فوق دماغ هذا الولد اذا لم يحكم هو الضرب جيدا ..

القضيب اللعين جامد لايستجيب لطرق حتى تصبب الولد عرقا . أمر «مصطفى » فأدخله النار ثانية ، ورجع الى الجرنان مدة ساعة أو أكثر ، وأمر فأخرج الولد القضيب وقد صار عامودا من اللهب الأحمر الشفاف . هب ، راح الولد يطرق ، ثم يطرق ، ويطرق ، والقضيب اللعين لايزداد الا رسوخا واباء واستعصاء على الانثناء . بصبر مشكوك فيه أمر بادخال القضيب الى النار ثالثة ، وانصرف الى تناول الغداء وصلاة الظهر ، ثم عاد موقنا أن القضيب زمانه قد باش فى النار وذاب ، ألقى عليه نظرة داخل اللهب المصفوع بالريح يدفعه الكير بآخر مافى طوق الصبى المسكين من نفس ، ولم يكن يظهر للقضيب وجود داخل دائرة

اللهب ، فيما عدا طرفه الحر خارج النار ، وهو قطعة لاتزيد عن طول مسطرة ، حاول مصطفى ان يتبعها ليقف على امتدادها داخل اللهب فلم يفلح ، أمسك الطرف بالكلابات ورفعه قليلا فانهارت كومة اللهب تحت صعود عامود من اللهب كان كامنا فى الأعماق جزء لايتجزأ منها ، ونظر الى جوال الفحم فوجده قد فرغ تماما فقال الحمد لله على هذا بارك الله فيما رزق ، ثم أمر فسحب الولد القضيب وقد فقد هويته تماما وتجنس بجنسية النار ، ثم أمر فبدأ الولد الدق بالمرزبة فوق القضيب ، بكل غيظ وحقد راح الولد يطرق ، مستنجدا بقوة الله وقوى الأولياء جميعا من الدسوق الى سيدى «مطرف» راح يطرق ، و «مصطفى أفندى» يراقب القضيب والطارق فى تأمل عميق أسيف غاية الأسف ، يهز يده بجوار رأسه قائلا فى تمخول : «من المؤكد أن هذا القضيب كان كل هذا الوقت فى الجنة لا فى النار ! » ، ثم اذا به يوقف الولد عن الطرق ويبصق فوق القضيب بصقة جمع فيها كل احتقار وغضب وسخرية صائحا : «اتفو .. ديك أملك .. على الطلاق لو أننى لبسته فى مؤخرتى لانثنى ! » ، وشاط الهواء بحذائه ، وارتدى ثيابه وانصرف الى المسجد يصلى العصر ، وتكاسل عن الذهاب الى الورشة فاتجه الى البيت موحيا أن وعكة ألمت به ، فدخلت زوجته وراءه الحجرة فظل يجامعها ثلاثة أيام متصلة بحجة أنه مريض تخرج زوجته خلالها لحظات تفعل شيئا لتعود . ثم أن الورشة قد فشلت بالطبع وأغلقت أبوابها أياما طويلة ثم بيعت معداتها لنفس التاجر الذى باعها لهم فى المدينة ، لكن هذه النادرة لم تمت أبدا ، ظلت محفورة فى الأذهان بين كثير من نوادر «مصطفى سميح شوكت» الذى بات اسمه منذ ذلك التاريخ «مصطفى الحداد» . ثم مالبث الأب أن مات غيظا وكمدا ، وبقى «مصطفى الحداد» وحده قيما على هذا البيت وهذه الممتلكات ، فراح ينميها عن طريق البيع والشراء والسمسرة ولكن فى بيع أشياء ثمينه كالجواهر والمشغولات الفضية والذهبية والتحف الثمينة جدا .. وعاش كواحد من الأعيان ، يرتدى الجلباب النظيف ذى القماشة الثمينة والطربوش الأحمر القانى ، ويمسك العصا الأبنوس ذات المقبض المشغول على هيئة فنية ثمينة مطعمة بالأصداف والفضة والذهب ،

وعند السفر يرتدى البالطو الجبردين الفاخر فوق الجلباب الصوفى ، والعباءة الجوخ المعتبر على كتفيه ..

طويلا كان مثل نخلة . وجهه قريب الشبه الى حد كبير جدا بالمفكر «توفيق الحكيم» الذى نرى صوره فى الجرنان والمجلة ، الشارب الكث المبيض يستقر فوق فمه الواسع الساذج . وجهه ملىء بالتجاعيد التى تبدو كأنها وفرة فى الجلد والملامح تقابلها وفرة فى الدم . ضيق العينين فى نظراته نزق وطفولة وشرود وخفة ظل ، فى عمق عينيه نظرة ثابتة ، هى على التحديد نظرة طفل خبيث شقى ضبطك متلبسا بفعل المحظور ، تكاد اشعاعاتها تنطق ممسكة بتلابيبك : «آه ياعفريت .. وضبطك» . لذلك فإن احدا من الناس لايستطيع التركيز فى عينيه كثيرا ، والا قاده ذلك الى الاعتراف بأشياء دفينة يتوهم أن «الحاج مصطفى» قد كشفها أو ربما يكون قد علم بها . وكانت هذه النظرة تؤتى بخير ثمارها فى جلسات «الحاج مصطفى» الخاصة بين خلصائه أثناء حديثهم ــ المفضل لديه دائما عن أى حديث آخر ــ فى أمور الجنس والمضاجعة ، سيما وأنهم يستخدمون الكثير من الوصفات التى تقوى الباه وتشد العصب ، الا هو بالطبع ، فسمعته الجنسية فوق كل الشبهات ، وطرفه ــ فيما يشاع ــ لايقل عن نصف طوله المشدود على الدوام . معظمهم من المسنين الشيوخ وكل منهم يزعم أنه بالأمس قطع السمكة وذيلها وفعل ما لايفعله ثور مطلوق فى حظيرة أبقار .. فابتدره «الحاج مصطفى» قائلا فى هدوء وبساطة مبطنتين بالجدية الرصينة : «عملت كم ؟» ، فيقول الرجل وقد بدأ يتلجلج : «حوالى أربعا» ، فيركز «الحاج مصطفى الحداد» فيه عينيه ، فيرتبك الرجل أيما ارتباك ، وان هى الا دقائق معدودة حتى يعترف بالحقيقة ، أما اذا اهتم «الحاج مصطفى الحداد» بالمحاورة فلسوف يتضح أن صاحبهم بات فى حال يرثى لها من العجز والفشل والضياع لكن من مميزات «الحاج مصطفى الحداد» أنه يكتفى بمعرفة حقيقة الأمر فحسب ، غير ميال الى الفضيحة وتجريس القوم ..

بفضل نظراته الأزلية هذه عرف كثيرا من الأسرار دون أن يسعى لمعرفتها . الا أنه كالنهر تلقى فيه بالأشياء فيبتلعها لتسقط فى القاع الى الأبد . كثيرا ماتعارك بعض الناس مع «الحاج مصطفى الحداد» لسبب أو لآخر ، فكانت تركيبهم العصبية لأسباب تبدو تافهة غير مفهومة ! . «الحاج مصطفى» وحده هو الذى يكون ملما بشيء من أسبابها ، لهذا لاينى يوحى لخصمه المتعارك ضاحكا فى صفاء وأبوة حانية بأنه لن يشى بأى شيء مما يعرفه ، هذا اذا كانت الاسرار التى يعرفها عن خصمه تافهة وبسيطة ومضحكة ، أما إن كانت كبيرة يترتب عليها قطع رءوس فانه لن يتذكرها على الاطلاق ، لكنه كان يضطر الى الصياح فى خصمه كلما أفرط الخصم فى اللجاجة ، قائلا فى حنو : «أنت ياجدع انت خايف منى كده ليه هو أنا باقطع رقابى ؟» ، أو يلف على المجالس أو قعدات الأصدقاء ليقول بين لحظة وأخرى فى ألم حقيقى : «ياخواتى الواد فلان الفلانى ده حامل علىّ حملة شديدة قوى مااعرفش ليه .. زى ماأكون قتلت له قتيل !» ..

أشياء كثيرة جدا ظهرت فى شخصية «الحاج مصطفى الحداد» بعد موت أبيه لم يكن أحد يتوقعها على الاطلاق . منها مثلا أنه أصبح رجلا ملء هدومه ذا مهابه مخيفة لأول وهلة لولا نظرة عينيه . واذا كانت الأجيال الكبيرة تحكى لنا عن ماضيه باعتباره فاشلا فى الدراسة ، غليظ الذهن ، فان «الحاج مصطفى» الذى عرفناه فى طفولتنا فى الأربعينات كان يتناقض تماما مع ذلك . فلقد فتحنا أعيننا عليه رجلا حلو المعشر يتسابق كبار البلدة فى الحصول على وده وصداقته ، حتى أن أى مجلس من مجالس البلدة يعتبر ناقصا اذا غاب عنه «الحاج مصطفى الحداد» ، ولسوف يحس بذلك الجالسون من أول وهلة وعلى طول وقت الغياب ، حيث يبدو المجلس جهما فارغا من المحتوى المفيد ، يبدو كذلك مطفأ كأن الجالسين فيه — وهم علية القوم دون منازع — أناس عاديون بل أقل من عاديين مهما لبسوا فاخر الثياب وأمسكوا بثمين العصى وفاحت من ريحهم أطيب العطور . أما اذا كان «الحاج مصطفى» موجودا ، فانه يضفى على القوم أبهة

بمنظره الذى يقنعك أن الأبهة عنصر أصيل فى خلقه ، وأن وجهه وشعر رأسه وشاربه وكل شىء فيه تفصيل من تفاصيل الأبهة والباشوية . ورغم أنه يرتدى الجلباب البلدى مثلهم ولايزيد عنهم فى أى شىء من ناحية اللبس والمظهر ، فان سلوكه يتميز عنهم جميعا بالرقة ، وحسن التربية ، والمدنية والتحضر ، ويقال أن الذى غرس فيه هذه المدنية وجعلها سلوكا اختلاطه بالأسر الارستقراطية الكبيرة التى كان أبوه يصطحبه اليها عند الزيارات الكثيرة ، فكان يقضى معهم معظم الاجازات الصيفية .

حيث يتواجد «الحاج مصطفى الحداد » فى مجلس فان الضحكات ترتفع على الدوام ، لكنها ضحكات وقورة مبتهجة يشوبها قليل من النزق الطفولى . فان بحثت فى سبب الضحك وجدته مفارقة اكتشفها «الحاج مصطفى » بعمق تأمله ونظرته الثاقبة . وحيث يتواجد أيضا فان المجلس لابد أن يتسع ليشغل حارة بأكملها أمام بيت الزعالكة أو ناصية كبيرة عند بيت العقالوة ، أو حتى عند دكان «مهيا » فى قلب الخمارة حيث عائلة «أبو سيف» . نفسها كانت تستثنى «الحاج مصطفى الحداد » من خلافاتها مع البلدة . فهو وحده دون كبار القوم فى البلدة حين يمر من شوارع السوايفه فانه يلقى السلام على كل من هب ودب ، فيتلقى ردودا عظيمة مناسبة ، تنهال خلفه الدعوات بأن يتفضل الشاى . حتى نسوان السوايفة اللاتى لايتحشمن أبدا يتحشمن حين يرونه تحشما زائفا ويصحن فى قليل من الأدب : «اتفضل ياخال مصطفى » ، وهو لاينى يردد أثناء سيره كالأهبل فى الزفة : « أهلا أهلا .. تشكر تشكر .. ربنا يخليك .. ربنا يكرمك .. الخ » ..

يتسع المجلس ليس فقط حبا فى نكات «الحاج مصطفى » وقفشاته بل طمعا فى أن يكون محضر خير ــ مثلما هو دائما ــ فى مشكلة لديهم ، يتعشمون فى التسلل بين ثنايا الحديث الرحيب لاثارتها ، لكى يتحفهم «الحاج مصطفى » بكلمة تسهل كل عسير من أمرهم، أو تصلح بين متخاصمين ،

ذلك أن أحدا لن يجرؤ على رفض طلب للحاج مصطفى أو كلمة يقولها .
الحق أنه كثيرا مايثبت كرامات جليلة فى مثل هذه الأمور ، بل إنه كثيرا ماصالح رجلا على امرأته ، أو ردّها وهى طالق ، من المألوف أن يلتقطه أحدهم أو إحداهن من الشارع ، لابد من شرب الشاى ، مع الشاى تطرح عليه تفاصيل الأزمة الواقعة بين زوجين ، لايتورع عن توبيخ الزوج وشتمه إن كان هو المخطىء ، واتهامه بأنه خنزير أعمى العين ، كذلك لايتورع عن الشخط فى الزوجة وهز العصا العوجاية فى وجهها إن كانت هى المخطئة ، قد ينقر بطرف العصا فوق رأسها برفق بغية تنبيهها الى خطورة ماسيقول ، ليس فى الأمر أخطر من دلع النسوان فى مثل هذه الأيام السوداء حيث العالم كله فى حرب وكساد ، وحيث يقل عدد الرجال بعد موت معظمهم فى الحروب ، وغدا سوف تصبح كل خمس نساء بقرش تعريفة ، ثم ينثنى فيلف سيجارة ، وكنوع من الاعتذار للزوجة يروح يطرى جمالها للزوج ، وكيف أنها خسارة فى جتته ..

يسمح للحاج « مصطفى الحداد » بكل ذلك لثقتهم الشديدة فى طهارة ذيله . هم مع ذلك يثقون أيضا أن «الحاج مصطفى الحداد » يموت فى النسوان ، وهو لهذا متصاب دائما . فرغم بلوغه سن الستين منذ أعوام طويلة فانه متين البنيان رائق الوجه والبال . مزواج ، وهذه فضيلة فيه يراها القوم ، اذ أنه لشدة إيمانه وخوفه من الله وحجه سبع مرات يخشى الزنا ولا يسعى اليه ، لذلك فانه سريعا مايتزوج ممن تروق له ، فان تزوجها لايفرط فيها أو فى حقوقها بأى درجة ، يظل يحبها ويخلص لها وينفق عليها ويزورها بين ليلة وأخرى وربما بين ساعة وأخرى ، ومهما كانت الزوجة الجديدة مثيرة فانها لاتشغله عن القديمة ولا تأخذه منها أبدا ، فمن فات قديمه تاه . زوجته الأولى توفيت ، وكانت قد أنجبت له رجلا كبيرا وثلاث بنات ، تزوجوا جميعا وأنجبوا .. ولم يكن يزعج «الحاج مصطفى » شىء فى الدنيا قدر انزعاجه من ظهور ابنه الكبير «محمد» فجأة ، ما أن يراه حتى يشعر بقليل من الانقباض ، فابنه «محمد » كبير جدا ، صار جدا ، وبات منظره من

الكبر والشقاء أكبر سنا من أبيه «الحاج مصطفى الحداد» ، وكان يعمل هو وأولاده فى مهنة النسيج بالأنوال اليدوية ، فأضافت هذه المهنة الى سنه الكبير أنحناء كبيرا فى الظهر حتى ليبدو كأنه بقتب ، شعره أبيض محروق ورأسه صلعاء من الوسط تبدو كرأس ميت لولا أن عينين تدوران فى محجريهما بسرعة فى وجهه الأصفر المستطيل المجهد ..

«الحاج مصطفى» لم يطق أن يهدده الانقباض والانزعاج كلما قابل ابنه فى الشارع ، حيث يتعين على الابن أن يحيى أباه قائلا : «إزيك ياآبا» ، ويسلم عليه ويقبل يديه ، فيتصادف أن يراه الناس فيندهشون أن هذا الرجل المشدود الحيل هو أب لذلك الكهل المتهالك . ورغم أنهم يعرفون ذلك من قديم الأزل فانهم يندهشون فى كل مرة يسمعون فيها «محمد مصطفى» ينادى أباه قائلا : «ياآبا» ، كأنهم يكتشفون هذه الحقيقة لأول مرة فما كان من «الحاج مصطفى» الا أن استدعى إبنه ذات يوم فى فراندة البيت وشخط فيه قائلا : «اسمع ياولد يابن الكلب أنت .. لو شفتنى فى أى حتة وقلت لى ياأبا حاهزأك واخرب بيتك .. فاهم ولا لأ ؟» ، فهز «محمد» رأسه فى امتثال قائلا : «حاضر ياآبا» ، ومن يومها صار كلما التقى أباه فى الشارع صاح بصوت عال : «مساء الخير ياسى مصطفى» . وقد أضيفت هذه أيضا الى نوادر «الحاج مصطفى» ..

وعلى الرغم من أن فى داره ثلاث زوجات بعد التى توفيت فانه سافر ذات يوم الى الاسكندرية يزور أولاد إحدى عماته ، فاكتشف هناك عروسا غاية فى الجمال ، فتزوجها على الفور ، وجاء بها الى البلدة فى زفة كأى شاب صغير رغم أنها كانت فى سن أحفاده . وقد أنجبت له زوجاته الثلاث عددا من الأولاد ذكورا واناثا امتلأت بهم الدار والدار الأخرى التى ابتناها فى عمق الدار القديمة ، ثم جاءت السكندرية فأعطته خمسة أولاد جدد ، حتى بات لايستطيع التمييز بين أولاده ، واذا لم يسعفه الولد بذكر اسمه فانه قد ينساه . وكل أبناء زوجاته الثلاث كانوا يتعلمون فك الخط فحسب ، لينزلوا بعد ذلك الى الشغل وما أكثره لدى

«الحاج مصطفى» ، فهناك ماكينة الطحين التى اقتناها فى المدخل الشرقى للبلدة ، وهناك مزرعة للدواجن على مقربة من الماكينة ، وهناك الأرض الزراعية الواسعة المحتاجة للفلاحة ، أما ابناؤه من الزوجة السكندرية فقد تعلموا جميعا فى المدارس الابتدائية ومازالوا يواصلون التعليم فى بعض المعاهد العليا ..

فجأة طفت شخصية «الحاج مصطفى الحداد» على سطح الأحداث فى بلدتنا وأصبح لها حضور غير طبيعى . لقد نجح «أبو سماعين» فى جعل اسمه يتردد فى معظم المجالس دفعة واحدة . كل ينشغل بمجموعة من نوادر «الحاج مصطفى» الضاحكة ، أو الساعية الى ايجاد موقف عادل ..

فوق هذه الأرض بدأ «أبو سماعين» يسعى بين الناس باشاعة مؤداها أن «الحاج مصطفى الحداد» قد رشح للعمدية ، فبدأت بعض العائلات تدس فى حقه بعض الدسائس خوفا من أنه لو أمسك العمدية فسوف لن يعرف أباه اذا ماأخطأ أبوه ، فى حين أن هذه العائلات تريد شرّابة خرج تستخدمها متى شاءت فى حماية مصالحها الخاصة ، وأنتم تعرفون ـــ هكذا يقول «أبو سماعين» ـــ أن «الحاج مصطفى» موته وسمه أن يستخدمه أحد أو أن يوالس على أحد .. فاذا بهذه الاشاعة المختلقة من أساسها تقابل بحماس شديد من جانب عامة أهل البلدة وهم نسبة كبيرة جدا ..

وفى يوم ذهب «أبو سماعين» مبسوطا فوق العادة ، والتقى بالحاج «مصطفى الحداد» فى منزله على انفراد ، وجره فى الكلام حتى تساءل «الحاج مصطفى» عن هذه الاشاعة التى يتناقلها الناس . فقال له «أبو سماعين» أن ألسنة الناس أقلام الحق ، وأن سر هذه الاشاعة أن شعب البلدة يرشحه للعمدية بطريق غير مباشر نظرا لحبهم له واقتناعهم بشخصيته والتأكد من أنه سيكون أعدل عمدة عرفته البلدة طول حياتها .. تمعن «الحاج مصطفى الحداد» فى هذا الكلام ولمعت فى عينيه الأحلام ، ولمع كذلك الشعور بالمسئولية ، ثم قال فى تواضع جم أنه شخصيا لم يسع الى هذا المنصب ولم يفكر فيه طول حياته ، وأنه

لن يكون سعيدا اذا عينوه عمدة لهذه البلدة الخربانة المغضوب عليها من الله ، ولكن اذا جاءته العمدية فانه لن يملك الا احترامها واكرام وفادتها . هتف «أبو سماعين » من أعماقه : «حلو .. وهذا هو بيت القصيد » ، ثم لم يزد ..

من غد بدأت جولات «أبو سماعين» مصحوبة هذه المرة ببضع عرائض مبرومة فى سيالته ، ما أن يجلس حتى يخرجها ، ويقرأها على الجالسين ، فاذا هى التماس من أهالى البلدة مقدم لوزير الداخلية وللحكمدار بأن ينزل على رغبتهم ويعين «الحاج مصطفى سميح شوكت » الشهير بـ «مصطفى الحداد » عمدة للبلدة ، حيث أنهم — الأهالى — قد نظروا فى أمر كل المرشحين فلم يجدوا سواه صالحا للعمدية ، وهو من اختيارهم الصميم ، أدامكم الله ذخرا للعدالة ونصيرا للفقراء والمظلومين . وبعد أن يقرأها يبدأ فى حاشية مؤادها أن البلدة بهذا الالتماس تقطع الطريق على من يدبرون فى الخفاء لاختيار واحد من العائلات المتعجرفة المتغطرسة .

فى أقل من اسبوع واحد كان «أبو سماعين» قد جمع كل توقيعات عامة أهل البلدة ولم يبق سوى العائلات الكبيرة ، الذين حين جلس عمداؤها مع «الحاج مصطفى » فى مجلسهم الخاص أحسوا بشعوره من الحرج لخلو الالتماس من توقيعاتهم . وهؤلاء كان «أبو سماعين » قد ادخر لهم مفاجأة مذهلة ، اذ أنه كان قد لف على عائلة السوايفة وعرض عليهم الالتماس ، وكانوا بدورهم يمسكون قلوبهم بأيديهم خوفا من اختيار عمدة من احدى العائلات الكبيرة يذيقهم سوء العذاب وألوان العسف ، فلما وجدوا «الحاج مصطفى الحداد » مرشحا من قبل البلدة اندهشوا فى أول الأمر لعدم توقعهم ذلك ، لكنهم وقعوا بامضاءاتهم وبصماتهم على الالتماس فى ترحيب شديد ثم فى حماس كبير .. وهكذا لـ «أبو سماعين » أن يقول لهم فى أحد المجالس وهو يلوح بورقة الالتماس : «حتى السوايفة وافقوا » ، ولم يكمل بقية العبارة ، فما كان من عميد الزعالكة — وهو صهر للحاج مصطفى الا أن أخذه الحماس المفاجىء متناسيا طموحه الشخصى فى العمدية فقال :

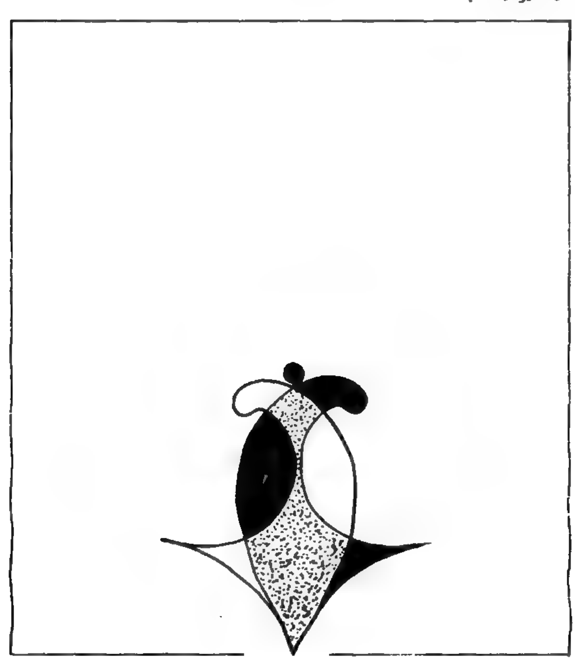
«ازاى الكلام ده يعنى احنا اللى مش موافقين ؟ دا حتى يبقى عيب .. هات ياولد » ، ثم وقع بامضائه فى أسفله ، وتبعه عميد عائلة العقالوة ، ثم عائلة النجار .. وهكذا أصبح الالتماس تعبيرا حقيقيا عن رغبة البلدة كلها دون استثناء . ذهب وفد من أهل البلدة يضم ناسا محترمين ذوى حيثية فقدموا هذا الالتماس يدا بيد ..

أسندت العمدية ــ بالاجماع ــ الى الحاج «مصطفى سميح شوكت» الشهير بـ «مصطفى الحداد» .. فكان يوم صدور هذا القرار يوم عيد حقيقى لاتنساه ذاكرة بلدتنا أبدا ..

يومها قدر لنا نحن أطفال البلدة ــ لأول مرة فى حياتنا ــ أن نرى عمدتنا القديم «محمد عبد المنعم أبو سيف» وهو يمشى فى الشارع مثل خلق الله ، منتقلا من قصره الى دار الحاج «مصطفى الحداد» لكى يقدم التهئنة نيابة عن السوايفة . كان ضخم الجثة كعملاق من الصلصال المسود عند الجبهة ، غليظ الوجة والملامح . جبهته عريضة ، مليئة بالتجاعيد ونذر الشر ، فى عينيه أنفة وكبرياء ، وعلى شفتيه اشمئزاز يجعلهما فى حالة التواء مستمر على قرف وتقزز . أكرش بصورة مخيفة كانسان الغابة . يرتدى قميصا أفرنجيا وبنطلونا واسعا بحمالات على الكتفين . رأسة صغير مدبب كرأس الهدهد لكن شعرها أكرت .. يمسك الطربوش دائما فى يده . يتحرك ببطء شديد ، خلفة رهط من التملية والأنفار وأبناء عمومته . لاينظر الى أحد من المارة ، لايلقى السلام على أحد من الجالسين ، بل لايبالى بفعل أى شىء .. محنى القامة بفعل الشيخوخة . يرفع اليته وهو ماض ليضرط بصوت عال فى الطريق العام فى وجه أى مخلوق مهما كانت رتبته ! .

وكنا نمشى خلفه ونقلده صائحين بلهجة خنفاء متغطرسة : «ياولد .. ياغفير .. ياغفير ياابن الكلب .. اتفوه عليك وعلى أبوك» . فيفرقنا التملية بالخيزرانة ، ونتجمع من جديد ، حتى وصل الى بيت «الحاج مصطفى

الحداد » ، فظللنا واقفين فى انتظاره يتزايد عددنا ، إلى أن خرج بعد ساعة أو أكثر يعلم الله ماذا دار بينهما خلالها .. فمضينا وراءه من جديد نشيعه بالتقليد الساخر لايوقفنا شتم ولا يردعنا ضرب . فلما شارفنا حى الخمارة دب الذعر فى أوصالنا فارتددنا الى الخلف مسرعين نجرى خلف بعضنا صائحين مهددين : «ياغفير ياكلب » .



(١١)

العـــروة الوثقـــى

يعم البلدة هدوءمنقطع النظير . فترت الخلافات بين أهل البلدة وعائلة السوايفة ثم أخذت تتلاشى . يعود «أبو سماعين» للانشغال بالأفيونة بعد أن يكون قد نسى أمرها طوال انشغاله اللهم الا أن تجىء له من باب الله دون أن يسعى لشرائها . فحيث لايكون مطلوبا منه مقلبا يدبره أو اشاعة يرددها مستهدفا من ورائها شيئا أو أمرا يسعى اليه تراه يجلس متثائبا فى ملل ، ويزحف العماص على عينيه ، ثم يزحف الاكتئاب على صدره ووجهه ، فترتعش أعصابه ويبدأ الهرش فى جسده ، وتبدأ عذابات التسول الصريح تنتابه ، ومشكلة الذهاب الى «السيد الشيال» تؤرقنى من جديد . حتى لقد أصبحت أعتقد أن التسول من أجل هذه الأفيونة المقيتة ــ وهو ملمح أصيل فى مظهر «أبو سماعين» ــ هو مع ذلك شىء دخيل عليه يمقته مقتا شديدا ، لذلك فهو سريعا ماينسى أنه تسول منك ، اذ لايكاد ينبسط حتى يجالسك مجالسة الند للند ، وقد يبادلك الشتم بعين قوية ، فان اضطررت لتذكيره بأنك أحسنت اليه فانه ربما تحول الى حيوان شرس يشبعك تمزيقا وهلهلة . كذلك أصبحت أعتقد أن «أبو سماعين» لايلجأ الى أكل الأفيونة الا لكى ينظر بهدوء شديد فى أمور جد خطيرة تعنينا كلنا ولكننا لانرى منها شيئا فى حين يرى هو منها أشياء وأشياء ، فكونه يرى أكثر مما نرى ويفهم أكثر مما نفهم ويعرف من الأمور أكثر مما نعرف ويدبر أحسن مما ندبر هذه كلها حقائق لاشك فيها ، لكن الذين يعترفون بهذه الحقيقة فى بلدتنا قليلون جدا ربما كان معلمى «سعد الله» على رأسهم ، يليهم أبى وان كان لايظهر للرجل ذلك أبدا ،

ربما أيضا عمتى الكلافة هى الأخرى على الرغم مما بينهما من عدم استلطاف يكاد يخفى عداوة غامضة غير مفهومة ! وقد لاحظت أنها كثيرا ماتنتهز فرصة وجوده فى دارنا لتطرح موضوعا معينا بهدف أن تعرف رأى « أبو سماعين » فيه ، وبعد أن يفيدها ترسل له لعنة أو لعنتين ! ..

فى وسط هذا الهدوء بدا على معظم أهل البلدة أنهم فرحون بالعمدة الجديده وباستقرار الأحوال ، الا هو ، سرعان مازايله الفرح واختفى من مجالس السادة وبدأ يكثر من الجلوس فى دكان معلمى . أقدم له عدة الشاى قائلا له : «ايه رأيك فى العمدة الجديد .. مش الحالة بقت كويسه دلوقت ؟» . يشوح بيده مركزا النظر فى عينى هامسا كأنه يدلى بتصريح خطير ، قائلا أن هذا الهدوء الذى شمل البلدة هدوء كاذب ، وأن العمدة القديم كان مستبدا قويا أما العمدة الجديد فقد خيب ظنه واتضح أنه لايستطيع أن «يمشى كلامه » على العائلات الكبيرة ــ أى لايملك فرض العدل عليهم ، مما جعلهم يستبدون استبدادا واضحا .. فأقول له : « ولكن أين هو الاستبداد الذى تقول أنه واضح ؟» ، فيضحك قائلا أننى لاأستطيع أن أراه ، وأن الكثيرين أيضا لايستطيعون . ثم أنه يسألنى فجأة : «أمال فين معلمك ؟» ، فأشير له برأسى نحو كوة مفتوحة فى الحائط على دار معلمى ، فيعرف أن المعلم فى الدار ، فيمتد ذقنه المستطيل الذى يشبه حافظة النقود النسائية ، مغاليا ابتسامه سجينة بين شفتيه ، يشوح فى استخفاف وسخرية عميقتين : «لسه بيعمل تجاربه الكيماوية على ملح الطعام ؟» . ذلك أن المعلم «سعد الله » مشغول طول عمره بأمر خطير يسيطر عليه ألا وهو اختراع نوع من السماد الكيماوى للأرض ينافس به انتاج شركة «ثابت اخوان» وغيرها من شركات السماد التى أصبحت تصيب الأرض بالعقم بدلا من مساعدتها على الاخصاب ! ..

تصيبنى الدهشة من سخرية «أبو سماعين » من جهود معلمى «سعد الله » ، مع أنه هو الوحيد فى بلدتنا الذى يشجع معلمى على المضى فى هذه

الفكرة ، بل هو الوحيد الذى يذهب الى أبعد من ذلك فيخاطب معلمى على أنه مخترع كبير . واذ يرى الدهشة فى عينى يبادرنى بالمزاح . مزاحه معى لايتجاوز كلمة واحدة ينطقها من بين شفتيه المزمومتين وفى عينيه مالا أدرى ان كان خبثا أو ذكاء ، تهكما أو استرضاء ، يقول : «إيه اخبار العراوى معاك ؟! » ، ثم يتبعها بضحكته المعهودة التى تجىء هذه المرة مجرد ايقاع صوتى بلا روح ضاحكة حقا : «هو هو هو .. و .. و ..ه » ، فأعرف أنه يصر على استصغار شأنى فى الدكان ، حيث كانت لذلك قصة بدأت يوم جىء بى الى دكان المعلم «سعد الله » وسلمنى أبى له يدا بيد ، اذ نطق المعلم «سعد الله » أول مانطق : «بتعرف تعمل عراوى ؟» ، فقلت بسرعة كأننى أدفع عن نفسى تهمة مخجلة : «لا .. باركب زراير بس » ، وكان «أبو سماعين » جالسا وقتها فاندفع يضحك ، وحدجنى المعلم «سعد الله» بنظرات استنكار ثم قال : «ازاى بقى .. أمال كنت بتعمل إيه عند المعلم فرحات .. اقعد اشتغل العراوى دى » ، وأزاح أمامى ثوبا ، فصحت كأننى على وشك البكاء : «والله العظيم ماأعرف أعملها » ، فقرصنى المعلم «سعد الله» من أذنى بقسوة ، فوجدت مبررا للبكاء ، فاندفع يصالحنى قائلا أن شغل العراوى فيه فن كبير يجب أن أتعلمه قبل أى شىء فى هذه الصنعة ، فليس يكتمل الثوب بدون أزرار ، ولابد للأزرار من عراو تدخل فيها ، وعليك أن تشتغل العروة هكذا .. ثم حدد بالقلم الكوبيا نقطا فى طرف الصديرى متباعدة قليلا ، وبطرف المقص شق فيه مايوازى عقلة أصبع عند كل علامة ، وبحث فى الدرج عن كستبان صغير يليق بأصبعى ، فلما وضعه فى بنصرى شعرت بنشوة بالغة ، اذ أحسست بأننى قد صرت صنايعيا يحق يلبس الكستبان ، ثم أنه جاء لى بابرة صغيرة جدا تختلف عن ابرة السراجة التى تقطع غرزا واسعة ، لضمها لى وعقد طرف الخيط بسرعة سحرتنى ، ثم بدأ يخيط أول غرزة فى العروة ليرينى كيف أن غرزة العروة تختلف عن غرزة السراجة وغرزة الأقطنه ، فحين يبرز سن الابرة من مكان الغرزة لاأشد الخيط الا بعد أن أمرر الابرة فى الدائرة التى بين الخيط والابرة ، وحين أشد الخيط لابد أن تكون شدة قوية وبرفق فى نفس الوقت ، وأن

تتجاور الغرز وتتلاحم حتى لتبدو فى النهاية كأنها خيوط متجاورة منسوجة بالماكينة تحتمل دخول وخروج الزرار فى العروة مدى حياة الثوب ..

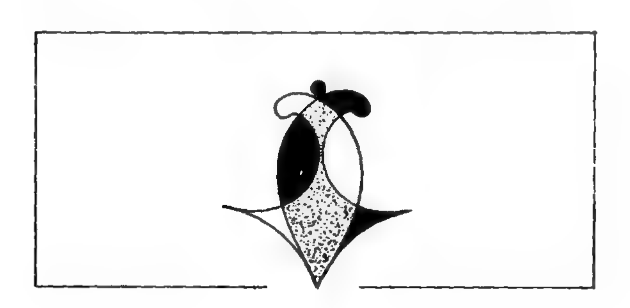
أشهد أنني صرت بعدها أسطى فى شغل العراوى ، وصار معلمى يزعم أن الماكينة ليست بأفضل منى فى اتقان العروة . وفى البداية كان «أبو سماعين» يشجعنى على احتمال شغل العراوى ، الذى كثيرا ماكنت أضيق به من فرط الغرز وكثرتها ، وكان يقول لى : «ياجدع ماتبقاش هلف .. لازم تفهم انك بتعمل أهم حاجة فى الثوب .. دا معلمك ده أصله حمار لمؤاخذه .. كان الأصول هو اللى يعملها بنفسه .. لأنها فى وش التوب وعايزة غرزة صنعه مش أى كلام ، وكنت أشعر كأنه يتحدانى ، فأجتهد ، ثم أعرض عليه عراوى ، فيضحك ساخرا ويقول أنها كالدمامل فى وجه الثوب ، ثم يقترح على معلمى أن يبططها بالمكواة كعلاج وحيد . العجيب أنه لم يكن يعبأ بوجود العراوى فى ثوبه ، فقد كان يرتدى مايشبه الصديرى تحت الجلابية ، وكان طرفا الصديرى يبرزان من خلال فتحة الثوب مزورين كل طرف فى ناحية بعيدة ، وأحيانا يختفى الطرفان تماما ، حتى اذا مأأراد وضع شىء فى جيب الصديرى الذى هو تحت الابط مباشرة دب ذراعه عن آخرها فى عبه وظل مدة طويلة يبحث عن الجيب . وكنت أظن أن «أبو سماعين» المهتم بمنظر العراوى لايمكن أن يكون مهملا فى شبك زراير الصديرى فى عراويه ، وعزوت الأمر الى ان الأزرار قد تساقطت اذ أنه ليس ثمة صديرى بدون عراو ، والأزرار فى العادة هى التى تتساقط حين تذوب الخيوط التى تربطها بالثوب . لكننى نظرت من خلال فتحة ثوب «أبو سماعين» فيما هو متقرفص فلمحت طرفى الصديرى المنفصلين : طرف العراوى تحت ابطه الأيسر ، وطرف الأزرار تحت إبطه الأيمن ، كخرقتين لا لزوم لهما على الاطلاق ، ورأيت الأزرار كاملة غير منقوصة . وكان لابد أن أسأل «ابو سماعين» ولو على سبيل المداعبة : لماذا لايقفل الصديرى طالما أن الأزرار كلها موجودة وفى مقابلها العراوى ؟ . فشوح فى فروغ بال ، فصممت على مشاغبته بالسؤال ، فشوح ثانية بقليل من الانفعال الضاحك : «الصديرى بتاعي ده أصله مابيتزررش !» . قلت : «لازم العراوى

دايبة هات اضيقها لك » . فقال باسما أن أى ازرار لكى تبيت فى عراويها لابد أن يلتقى الطرفان حول البدن .. «لكن صديرى عجيب مثل الزمن .. فطرفاه لايلتقيان حول شيء ابدا وهكذا صديرى هذا .. لم يعد قادرا على الالتفاف حول بدنى .. كان أصيلا ذات يوم .. اشتريته أيام العز والرخاء بسبعة قروش من أشهر محل فى مدينة دسوق .. لكن هذا الزمن اللعين ، لايقبل أن ينافسة شيء أو أحد فى القدم ، بل لايطيق ، فيحكم على كل شيء أن يقل بأصله ، هكذا حكم على كل ثوب ارتديته ، تحدى البدلة والصديرى الافرنجى والقميص الافرنجى والكرافته ، فأحالها على جسدى الى مزق لايمكن التأليف بينها فى صيغة وفاق أبدا أى أن جسدى كان لابد أن يتعرى ، فأدخلته عند التعرى فى جلباب كهذا وصديرى كهذا .. لكن هذا الصديرى بقى مدة طويلة يمتنع عن تنفيذ حكم الزمن عليه بالرمى فوق كيمان عزبة العلمين ، تهرأ فى البداية من الظهر فرقعته فتهرأت الرقعة فرقعتها فتهرأت أخت لها بجوارها فلممتها ، وهكذا أصبحت ألم الظهر بالخيط والإبرة كلما تيسر لى خيط وابرة ، الى أن ضاق الظهر وحدث الفراق بين الطرفين الى الأبد ، حتى بات من المستحيل ان يلتقى زرار فى عروته ، هذا الصديرى لم يعد سوى هذا الوجه فقط ، المنقسم الى طرفين متباعدين ، وجه من الحرير الشاهى القديم الأصيل وهاهو ذا لم يتغير لونه أبدا ولم يبهت.. والأمر يمكن أن يعالج بتجديد الظهر كله حتى تلتقى الأزرار بالعراوى . ولكننى لست أريد أن أقرف احدا بثوبى الخرق ، اذ لست أطيق أن أتصور خياطا يشمئز من وساخة ثوبى وهو يضطر الى الشغل فيه ! » ..

ولم تفتنى نبرة الحزن الأسيف التى بدت فى صوت «أبو سماعين » . كان يضع فوق أذنه سيجارة مكن جاءته من باب الله ، فقطمها نصفين أعاد نصفا الى أذنه وفك الثانى فى ورقة بافرة ولفها ، ثم أشعلها وسحب منها أنفاسا عميقة ابتلعها ، ثم سرح سرحة طويلة شاردة ، ثم أردف قائلا كأنه يبكى بحرقة مع أنه لايبكى : «الدنيا ثوب قديم نعيد نسجه من جديد ولكنه صائر حتما الى

مزق ! » . وأحسست أن دمعة تلمع كقطعة الماس من بعيد جدا فى بقعة مختفية من نن عينيه لانرى منها سوى الاشعاع ، لكن الدمعة كان لها صوت فى أنفه حين استطرد : « نفس البنى آدم تذوب هى الأخرى كالثوب .. ولكن لاتفلح فيها الرقع » . ثم شرد شرودا عميقا وبان عليه أسف شديد ، لعله هم وكدر . ثم اذا به ينهض فجأة مثلما يحضر فجأة . يلقى بنظرة الى الطريق ، ثم يمضى ..

يختفى أياما طويلة لايظهر حتى فى عزبة العلمين ، يربط الناس بين اختفائه واختفاء «المهدية» من عزبة العبيد ، لايرفض العقلاء هذه الاشاعة لكنهم يضيفون فى تحفظ أنها تحيى أفراحا فى بلاد مجاورة .. ثم تحبك النكتة فاذا هم يضيفون فى غير تحفظ : « وهو يحييها لكى تحيى الفرح جيدا » ، ثم يضحكون . ثم أنهم سرعان ماينسون ، الا معلمى «سعد الله » فانه لاينسى ، ويكتب على الشقاء فى البحث له عن «ابو سماعين » فى كل الحوارى والمساجد ، تتسلط فكرة البحث على معلمى حتى ليفاجئنى بعد يومين قائلا : ألا يحتمل أن يكون أبو سماعين فى المكان الفلانى ؟ فعلى الفور أقول له : «جايز .. نشوف » ، ثم أنهض واذهب الى هناك ، فان لم أجده أعمل بنصيحة معلمى فأسأل الناس هناك عن آخر مرة رأوه فيها ، وأن أتسقط أخباره من كل من أقابلهم ! ..



(١٢)

المعلم
سعـــد اللـــه الترزى

اذ يكون معلمى «سعد الله» متربعا خلف بنك التفصيل الخشبى فوق حشية من أثواب القماش ، فانك ترى أمامك رجلا ينبىء عن قوام سمهرى مربرب ، حيث يرتفع جذعه الرشيق الى صدر رياضى متين ، بكتفين عريضين جامدين ، ورقبة مستطيلة محتشدة بالعروق الصلبة ، ووجه عالى الجبهة ، مفوه الفم ، تنفرج شفتاه المكتنزتان عن ابتسامة مضيئة مهذبة على الدوام . يوقر كل انسان ويخاطبه فى حياء ورقة مبطنة بالرجولة التى لاسبيل الى الشك فيها . يهز ذراعيه الطويلتين أثناء الكلام ، محركا كفية بأصابعهما المستطيلة فى ايماءات تأكيد تبعث على الثقة المطلقة . لاينزل عن كلمة قالها لو كلفته رقبته . كريم الى أقصى الحدود . يرى الجوع فى عيون السابلة والغرباء ويشم رائحته على بعد ، فيناديهم من الطريق ، ويزغر للأولاد من خلل الكوة طالبا أكلا ، فتجىء الصينية النحاس عليها أرغفة وقطع من جبن قريش ولفت وطبيخ وربما قطعة لحم أو جناح أوزة ، ولاينى يردد أن اللقمة الحلال هى التى يكثر حولها الآكلون . ليس لديه مانع من أن يظل الوابور مشتعلا على الدوام يخرط الشاى له ولكل الجالسين دون أن يدفعوا شيئا . عن طيب خاطر يرسلنى كل برهتين لاشترى شايا وسكرا بخمسة مليمات ، ونصف ربع أوقية دخان لف بعشرة مليمات . سيجارته فى رفع عود الكبريت لكنه يعطيك علبته الصفيح الأنيقة لتلف لك واحدة كيفما تشاء . يشعل السيجارة ويضعها فوق المكواة التى صار اشعال القوالح لها من اختصاصى فى الدكان ..

المعلم «سعد الله» هو الوحيد فى بلدتنا الذى يفصل الأثواب بأبخس الأثمان وربما بدون مقابل : خللى علينا خالص . بل كثيرا مايرد بعض القروش لأصحابها بعد دفعها . يوم السوق يحفل دكانه بالغرباء . تنهال على البقشيشات . يمتلىء درج البنك بالبرايز وأنصاف وأرباع الجنيهات . يمسك بالدفتر المتهرىء عشرات المرات ليخط فيه بخطه العاجز أرقاما ورموزا وخطوطا ، مهمة مالبثت أن أخذتها عنه ، حيث نظل فى نهاية المساء نجمع ونطرح ونضرب فى متاهات رقمية خرقاء على الورق تارة وبالبلدى تارة أخرى فلا نعرف أين تسربت النقود ، لكن معلمى فى النهاية يطمئن الى أنه هو الذى جمع وهو الذى بعثر ، اطمئنانه الأكبر هو أن أحدا لم يعد يريد منه شيئا أو يطلب دينا ، يحمد الرب ، يدعو بالغفران لكل خلقه . ينهض ليخطف رجله الى الدار يقضى حاجة ألمت به ..

فاذا مانهض فانك لابد أن تفاجأ بل قد يصيبك الدوار من المفاجأة رغم أنك رأيته قبل ذلك عشرات المرات ، فلسوف تكتشف فى كل مرة أن هذا الكيان الجميل ذا القوام الفارع هو نصف جسد فقط ، أما نصفه الاسفل فعبارة عن شبه ساقين منحازتين لبعضهما مثل أطراف ثوب منشور على حبل الغسيل . واذا به يسحب من الركن عكازا فى طول قوامه ، يثبته فى الأرض وينتصب واقفا مستقيما فيبدو كفرع عملاق تفرع حول عكاز . ولأنه غير ملق بالا الى هذا الأمر أبدا ، فإنه دائما يجلس فى الدكان بملابسه الداخلية ، الفانلة القطنية ذات الكم الطويل الحابك على المعصم ، فوقها الصديرى الشاهى ، والسروال من الدبلان المزهر فوق الركبتين ، اللتين تبدوان ككرتين صغيرتين مغروزتين فى سيخين من لحم بشرى ، ينتهيان بقدمين طويلتين مزورتين عن بعضهما . يقال أن حريقا شب فى دكانه القديم منذ سنوات بعيدة فأضافت الى عجزه الطبيعى تشوها وتسلخات غائرة ، تقبلها بصدر رحب على أساس أن المؤمن مصاب دائما وهذا كله فى النهاية من فضل الرب فمثلما نتقبل خيراته علينا أن نتقبل قضاءه فينا ..

على أن المعلم «سعد الله» اذا مالبس الثوب صار عملاقا بحق وحقيق .

يختفى العكاز على طوله وغلظه فى أعطافه الحانية ورقته الشديدة وكرم أخلاقه وحلاوة كلامه ، ولست أظن أن سيدنا المسيح عيسى بن مريم كان بأفضل حديثا وحسْن معاملة . اذا سار دفع العكاز بكلتا يديه الى الأمام فيدق الأرض بشدة ، ثم ينقل كعبه اليمنى ، فيطحن بها الأرض فى تدويرة سريعة خاطفة ، على أثرها تكون كعبه اليسرى قد لحقت بها ، وتكون يداه قد دفعت العكاز الى الأمام دفعة تالية . وهكذا فى دربة هائلة يستطيع أن يمشى مع أى رجل صحيح البدن لمسافات طويلة ، بل ربما يكون هو الأسبق وتضطر أنت الى الصياح به فى كل حين : «على مهلك يامعلم سعد الله» ، فيهدىء من سيره . فاذا ماأراد الاستراحة قليلا توقف مستندا على العكاز حتى يريح العامود الفقرى قليلا ثم يستأنف السير ..

له أخ يدعى «شنوده» يعمل سكرتيرا لمدرسة ثانوية بالمديرية . نسمع عنه منذ سنوات طويلة ولم نره مطلقا ، لكنه يعيش بيننا على الدوام كأى فرد منا . يناط بى قراءة خطاباته مثنى وثلاث ورباع ، واعادة استذكارها للتأكد من كذا ، وكتابة الردود عليها . كتابة خطاب لـ« شنودة » احتفال كبير جدا ، يون له الوابور تحت الشاى وتحرق على شرفه أوقية دخان كاملة ، كلما ظننا أن الخطاب قد انتهى خطرت لنا ملحوظة ثانية وثالثة ورابعة ، ربما سلام فلان الفلانى وأهل منزله ، وفلان الذى يقيم فى بلدة مجاورة وتربطهم به صلة ، صحته هو الآخر على مايرام ، وكل من عندنا كبيرا وصغيرا يهدونكم ألف مليون سلام ، وأنا ياأخى لو كنت طيرا لطرت اليك ولكن ماذا يفعل مقصوص الجناح ؟ أنا مشتاق اليك اشتياق الزرع للماء والرضيع للبن الأم والانسان للهواء ، وعلى فكرة ، كاميليا بنت خالك فى بلدة الكنيسة ، منذ شهر تقريبا حيث أنها تلد-، فصَلِّ من أجلها ينتعها الرب بالسلامة ، ونحن بخير ولا ينقصنا الا مشاهدة رؤياكم الكريمة والسلام ختام من طرف أخيك المخلص لك دائما المعلم سعد الله حنا عبد الملك ..

البوسطجى صديقنا . يمر على الدكان كل يوم فى طريقه الى صندوق البريد

المثبت فى جدار دوار العمدة القريب من حينا ، وأثناء عودته ليستقل طريق بحر السبيل الى بلدة مجاورة . مساء الخير يامعلم سعد الله ، هكذا وهو راكب على حماره أمام الدكان ببذلته الصفراء التى تشبه بذلة العسكر السوارى ، وقبعته الكبيرة ، وخرجه الأنيق الحافل بالخطابات . دائما جواب لك يامعلم سعد الله ، ودائما فلان الفلانى من البلدة الفلانية يسلم عليك ، وفلان من البلدة الفلانية يقول لك كذا وكيت . الجميل أن يدركنا البوسطجى لحظة نضج الشاى حتى نحييه بكوب على الواقف ، يجرعها على عجل ريثما ننتهى من كتابة عنوان على المظروف الذى سيأخذه الآن .. ذلك أننا نؤجل اغلاق الخطاب الى آخر لحظة فلربما يعن لنا كلام جديد نضيفه اليه كأنه آخر خطاب سنرسله فى حياتنا ، وكم احتملنا البوسطجى فى صبر واقفا بحماره عند الرصيف وهو مصر على عدم النزول . كان يخيل لى أنه يعرف «شنودة» شخصيا ويعرف كل أصحاب الخطابات التى يحملها معرفة شخصية حميمة كمعرفته لمعلمى «سعد الله» ..

رغم أن «شنودة» لم يزر بلدتنا أبدا فان معلمى «سعد الله» لايكف عن الذهاب لزيارته فى مدينة المديرية وهى شديدة البعد عنا مهما قربتها القطارات . اذ يغلق معلمى دكانه يوم أحد ، ويكترى حمارا يوصله الى المحطة ، ليمكث عند «شنودة» يوما أو يومين ، يأخذ له بعض الهدايا من خيرات الريف ، مجموعة قفف وصناديق كرتونية يعجز الصحيح البدن عن السفر بها ، أما هو فيركب بها الحمار ثم القطار ثم قطارا آخر ثم عربة حنطور حتى يصل فى مدخل الليل المنير الى بيت «شنودة» . ويعود بعد الزيارة بكيسين من الفاكهة يشتريهما من محطة دسوق ..

لست أذكر متى نشأت فكرة أن يخترع المعلم «سعد الله» سمادا كيماويا ، ولكننى حينما ضربنى المعلم «فرحات» الترزى وانتقلت الى دكان المعلم سعد الله بدأت أنشغل بما يفعله معلمى أكثر من انشغالى بأمر الشغل ، حيث أذهب الى داره صباح كل يوم لأوقظه وآخذ مفتاح الدكان لأكنسه وأرشه بالماء ريثما ينتهى

معلمى من فطوره ويجىء ، فما أكاد أدخل من باب الشارع وأعبر الدهليز الى القاعة الجوانية حتى أراه فى ضوئها الصباحى الكابى ، وقد افترش الحصير فوق الأرض بين سرير أجرد بعمدان ، ودولاب حائل متآكل متفصص من بعضه ، الصينية النحاس بجواره عليها بقايا طعام حافل . تزاح الصينية ناحيتى فور دخولى لأفطر مهما حلفت أننى أفطرت فى بيتنا . يكون الوابور مشتعلا وزوجه السمينة جالسة أمام الوابور تصنع له الشاى وتدفع الدجاج والبط الى الخلاء وتعنى بالولد الزاحف بجوارها كل ذلك فى آن . كوب شاى الدور الأول موضوع أمام معلمى ، تجاوره بضعة أكواب أخرى من الزجاج مستطيلة تمتلىء بمواد سائلة وأخرى مسحوقة ، وكوز فيه ماء يغلى ، يخلط شيئا من هذا على شىء من ذاك ، يقلب بقضيب رفيع من الحديد ، يضع السائل المقلب فوق صندوق بجوار الحائط يسقط فوقه قرطاس من الشمس آت من كوة فى السقف مفتوحة ، ثمة مسحوق آخر مفرود على سطح اناء ومنشور تحت قرطاس الشمس . أقول لزوجة معلمى على استحياء : «هو معلمى بيعمل إيه ؟ » . تبتسم الغمازتان فى خديها ويبتسم كل وجهها الطيب المستدير كالبطيخة ، تقول بلهجة مشوقة : «أنا عارفة ياخويه اسأله » . فأنظر الى معلمى فاذا بأصابعه الطويلة السرحة تقبض على عظمة كتفى وتغمزها فى ود عميق : «بعدين حابقى أقول لك » ، فاذا بى أنبسط من هذا القول الودود ، ثم أقوم لأفتح الدكان ..

غير أننى سريعا ماعرفت حقيقة الأمر ، فسرعان مانيط بى كتابة خطابات الى مدراء فى هيئات صناعية كبرى ، ووكلاء فى القاهرة ، ورؤساء شركات ، بل ووزراء أيضا ، بكلام عجيب يمليه معلمى «سعد الله » ، يسأل عن أخبار العينة الفلانية التى أرسلها بتاريخ كذا بموجب طرد بريدى بعلم الوصول رقم كذا ، ينبىء عن تجربة جديدة أجراها فكان من نتائجها كذا وكيت ، يقول المحرر فى جريدة المصرى أنه اكتشف أن السماد الفلانى الذى توروده الشركة الفلانية فيه نسبة كبيرة من كذا وكذا مما يفسد تربة الأرض ويجعلها مرتعا للدود والحشرات ،

نعم فاعلموا ياحضرات المسئولين الكبار الكرام ان لم تكونوا تعلمون أن الأرض هى الأخرى تتعفن وتدود بعد موتها كالجسد البشرى سواء بسواء ، وبعدها لايمكن احياؤها ثانية مهما فعلنا ، وأن العلاج الناجع ياسيدى أدامك الله هو اضافة المادة الفلانية وتخفيف المادة العلانية » ..

ثمة ردود كثيرة كانت تجىء ، وكان على أن أقرأها لكننى لم أكن أفهم منها شيئا على الإطلاق ، ولا هو أيضا ، فكان يستوضحنى الأمر سطرا سطرا وعبارة عبارة وكلمة كلمة ، وقد يشير الى كلمة فى صدر الصفحة بالمطبعة قائلا : «أمال إيه دول ؟ » ، فأقول له أنها اسم الهيئة أو الوزارة أو مكتب صاحب الخطاب . فيرسل عينيه الصغيرتين الصافيتين الى بعيد وقد شاب ابتسامته قليل من الأسف يحمر له وجهه وتتعوج بعض ملامحه ، ثم يشوح قائلا : «ولع الوابور » ، فأشعل الوابور وأضع البراض فوقه حتى يغلى الماء ، فيقول هو بعد برهة طويلة : «فين الشاى ؟ » ، فأقول له : «مااحنا لسه ماشتريناش » ، فيدفع لى بقرش تعريفه أشترى به . وقد يشرب الشاى بأدواره الثلاثة ومع ذلك يسأل بعد برهة : «أمال فين الشاى ؟! » ، فأقول له : «ماأحنا شربناه » فيقول وهو يدفع لى بقرش آخر : «طب اجرى هات لنا غيره » . وكثيرا ماكنت أضبطه فى المساء مختليا بنفسه فى القاعة الجوانية ، فاردا هذه الخطابات أمامه على السرير يمعن فيها النظر بدقة كأنه معها فى حوار عميق ، يحاول اختراق سطورها وكلماتها الغامضة التى لم نسمع بها من قبل . كذلك كثيرا ماكنت آراه فجأة ساحبا عكازه ، بقفزتين اثنتين يصير فى الشارع ، يجرى خلف «قاسم افندى » المدرس الالزامى ، أو «حمادة نصار » كاتب التفتيش الحاصل على الشهادة الابتدائية ، يدعوه ــ بعد اذنه ، ولو تكرم ــ خمسه ، ثم يقتاده الى الدار كأنما لأمر جلل ، يفتح الباب صائحا فى جموع الدجاج والبط والأوز ، يدخل القاعة مرددا : «اتفضل ياحماده بيه » ، يرتب له طرف السرير على عجل ، يجلس الرجل ، يفتح المعلم سعد الله دولابا غائصا فى الحائط ، يسحب لفة خطابات مبرومة حول بعضها ومحكومة بأستك ،

يفردها ، يطلب قراءة الألفاظ المكتوبة بالانجليزية وتفسير معناها بالبلدى ، لكن أحدا لايفلح فى ذلك لأنها اسماء مصطلحات كيمائية كما يقولون له لايفقهون فيها شيئا ، الا أنه يروح يقدم اقتراحات بالمعنى ، أيكون كذا ؟ أيكون كيْت ؟ احتمال أن يكون المقصود كذا مادامت قد وردت الكلمة الفلانية ، والقارىء لايملك الا أن يردد خلفه : «جايز .. يجوز .. جايز .. يجوز » ، الى أن يخرج وهو يدخر ابتسامته الساخرة ، لكنه فى العادة لايطلقها أبدا ، بل يودع معلمى «سعد الله» بنظرة تقدير عميق وان شابها قليل من الاستهجان ..

متسامح معلمى الى أقصى درجة . حدث أن طلبته احدى الهيئات لمقابلة مديرها المسئول وتقديم مالديه من عينات والتخاطب بشأنها . كنا فى شهر رمضان وموسم الخياطة على أشده ، وليس فى الدكان سوى صنايعى واحد يعتمد عليه فى شغل الماكينة وتركيب الأقطنة ، أساعده أنا فى تركيب الزراير وشغل العراوى ، ومعى «حنا» ابن زوجة معلمى من رجل آخر . كان أصغر منى بقليل وكان سمينا مرغددا ، بارد الطبع يخلو من الحماس والخشونة ، وكان معلمى يعامله بمعزة أكثر من أولاده ، ولا يهينه فى الشغل ، ويصر على ادخاله المدارس والصرف عليه ، فالولد يتيم ، وهو أمانه ، بل هو أكبر مسئولياته فى هذه الحياة . ولكن يبدو أن المعلم «سعد الله» حينما قرر السفر الى القاهرة لمقابلة ذلك المسئول رغم ضيق الوقت وزنقة الموسم ، أوصى ابن زوجته أن يجعل باله من الدكان وألا يغادره . فجاء الولد «حنا» ليسهر معنا ، وكنا نسهر حتى الصباح ونفتح عند الضحى . كبس النوم على الولد فنام . بعد مدفع الامساك أمرنى الصنايعى أن أنصرف لكى أجيء مبكرا فأفتح الدكان . على امتداد ضوء الكلوب فى أرض الشارع لحقت بأبى فى مسجد العصاروة قبل خروجه من صلاة الفجر ..

فى الضحى عندما ذهبت لأفتح الدكان فوجئت بصوات فى دار المعلم ، واذا بالولد «حنا» قد ذهب الى المستشفى ، والصنايعى الى دوار العمدة ، واذا بالخبر يقول أن الصنايعى القذر اعتدى على الولد فى الليل أثناء نومه ، بوحشية ،

فأسال دمه ، وصرخ الولد فجاءت أمه تجرى وذهبت من فورها الى العمدة . فى المساء جاء المعلم «سعد الله» فالتقاه الخبر عند أول الطريق فاربد وجهه واكتسى شحوبا وأسفا عميقين . ماأن وصل الى الدار حتى جلس على رصيف الدكان وانخرط فى بكاء عميق حاد ، يهم بشق ثوبه فى كل شهقة . الناس من حوله يطيبون خاطره ، لكنه نهض ، وانطلق جريا الى المستشفى حيث اطمأن على الولد وبكى عنده كثيرا ، ثم أصر على أن يأخذ بثأره تفتيتا لرأس هذا المعتدى بهذا العكاز ..

اندفع يجرى بكل غضب الى دوار العمدة، يصيح : «هو فين وريهولى بس عاوز اشوفه» ، والناس والخفراء يعدلونه برفق . فى الصباح الباكر حرص على أن يكون أمام الدوار قبل ترحيل الصنايعى الى البندر . العكاز فى يديه يهتز ويتوعد . فما أن خرج الصنايعى من حبس الدوار والخفراء يكتفونه حتى قفز المعلم «سعد الله» نحوه كالأسد ، ثم وقف أمامه يرتعش فى غضب عظيم ، وأخيرا صاح بكل رقة : «بقى كده ! .. كده ياحنفى !.. اخص عليك وعلى تربيتك .. اتفوه» . ثم بان على وجهه الأسف فى الحال ، داراه بقوله فى نبرة لاتقل أسفا : «يلا روح اتلقى وعدك .. ربنا ينتقم منك» . وفى صبيحة اليوم التالى فوجىء به الصنايعى فى مركز الشرطة والعسكر يهمون بوضع الحديد فى يديه لترحيله الى النيابة فى المديرية . انفجر المعلم «سعد الله» باكيا ، ودخل للمأمور فتنازل عن المحضر ..

بعدها نسى المعلم «سعد الله» امر السماد لبضع سنوات ، وغاب الصنايعى فى محلات كثيرة فى بلدان أخرى هربا من الفضيحة ، وانتقل الولد «حنا» الى بلد بعيد يتعلم فى مدرسته الداخلية . ثم سرعان ماهجر «الصنايعى» مهنة الخياطة وفكر فى فتح دكان للبقالة فتوسط له «أبو سماعين» لدى معلمى — وياللعجب — الذى باعه جزءا من قطعة أرض يملكها بجوار دكانه مباشرة ، أقام «حنفى» فوقها دكانا لبيع الأقمشة والأقطنة والأزرار وخيوط الحياكة بجميع أنواعها . ثم أن معلمى سرعان مارجع الى هوايته القديمة : اجراء التجارب

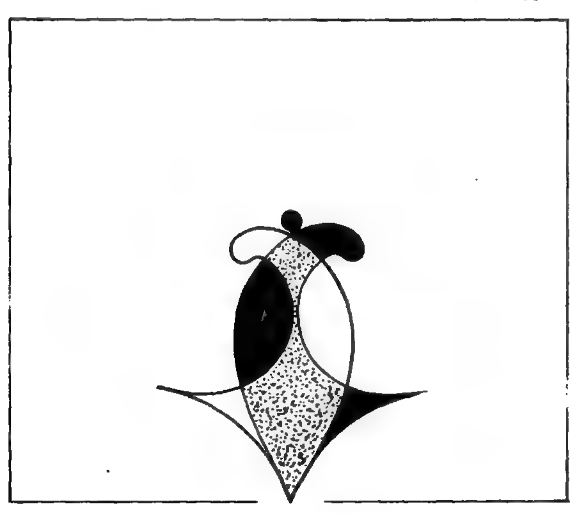
الكيماوية ، وارسال العينات الى كثير من الجهات والهيئات والوزارات ..

تسعون فى المائة من هذه التجارب وهذه العينات وهذه الخطابات كان «أبو سماعين» حاضرا فيها ــ كان يشعل حماس معلمى قائلا اذا استمع منه إلى عبارة جديدة : «قلت هذه فى الخطاب أم لا ؟» ، فيقول معلمى : «مش فاكر» ، وينظر الى يستذكرنى ، فيقول «أبو سماعين» : «لازم تقولها» . فنجىء بورقة جديدة ، ليمليها ، و«أبو سماعين» صيغة أكثر شمولا وأكثر مدعاة للاحترام ، حافلة بلا سيما وبيد أن وما الى ذلك من عبارات ينبسط لها معلمى وينشرح صدره ..

قلت لـ«أبو سماعين» بعد تشويحته الساخرة تلك : «يظهر أن المعلم سعد الله اكتشف عينة جديدة» ، فاذا به يطلق ضحكته المزمومة : «هوهوهو .. و .. ه » ، ويضيف : « الله يكون فى عونه ويساعده » . قلت له : « مش جايز يجيب نتيجة ؟» . قال : «جايز قوى قوى .. ليه لأ ؟ .. بس المشكلة ان اختراعه لابد يركب عليه ناس ثانيين من أهل المهنه .. بتوع المصطلحات .. اللى فاهمين كل حاجة فيها .. اللى يقدروا يعبروا عن فكرتهم بلغة المهنة .. هى دى عادة الدنيا .. مخلوقات تأكل مخلوقات .. وحتى الكائن الانسانى الأرقى يأكل الأقل منه رقيا ، يستوعبه ويتشرب كل محتوياته المفيدة ليظهر بها هو ، فيبدو كأنه الأصل فى المخلوقات فى حين أنه قائم بها ! » . لأفهم كلامه جيدا ، أعود فأسأله بشىء من الخبث والحذر : «لكن حمادة افندى نصار كاتب التفتيش قال لنا مرة أنه قرأ أحد الخطابات الواردة لمعلمى فوجد أنهم يقولون عن تجاربه أنها ملح طعام لاأزيد ولا أقل ! » . فابتسم «أبو سماعين » وبدا على وجهه أنه هو الآخر قد قرأ هذا التصريح الخطير ، لكنه قال فى لهجة واثقة : «لنفرض أنهم قالوا له ذلك .. أن كلامهم ليس قرآنا منزلا .. يجوز أنهم لم يفحصوا العينة جيدا ويريدون التخلص منه . وربما وجدوا فيها شيئا مهما ولكن طريقته فى التعبير عن هذا الشىء أغرتهم به ، كالذى يجد جوهرة ثمينة فى يد رجل حاف متخلف عقليا ، إنه سوف يحاول الضحك عليه واقناعه أنها شىء بلا قيمة ليأخذها ويعرضها هو بالشكل اللائق

بها .. هل يستطيع أحد منا أن يحكى قصة أبو زيد الهلالى أو عنترة مثلما يحكيها شاعر الربابة ؟ لاطبعا .. هكذا الدنيا .. يصنعها الأبرياء المخلصون ، ويستمتع بها التافهون المنافقون المغرضون ، والفهلويون والمحتالون ! .. وعلى كل حال فالمثل يقول من سار على الدرب وصل .. فمن يدرى ؟ .. لعل وعسى ! ..

لحظتها طب علينا معلمى ، فخشى «أبو سماعين» أن يكون قد سمعنا ، فظل مرتبكا لفترة ، ثم مالبث أن راح يدعو لمعلمى بالتوفيق والفتوحات الربانية ، ثم اكتسى وجهه بكآبة مفاجئة غاب خلالها شاردا ، ثم تحامل واقفا واضعا يده اليسرى فى سيالته واليمنى طليقة ، ثم اندفع الى الطريق متعجلا كأنما يسعى وراء مشوار خطير .



(١٣) أبنـــاء الواجهـة

كل الناس فى بلدتنا يعرفون بعضهم البعض ربما الى سابع جد ، يعرفون أيضا شجرة العلاقات ، فهذا فلان ابن فلان ، خاله فلان وابن عمته فلان وصهره فلان .. الا «أبو سماعين» لانعرف له عما أو خالا أو أى صلة على الاطلاق . وقد تعود الناس الا يسألوه عن أى شىء من هذا القبيل ، إنه «أبو سماعين» وكفى ، وهو مع ذلك معروف لكل الناس مألوف لكل الناس بل ومشهور اكثر من عمدة البلدة نفسه ، ثم إنه هو الوحيد المسموح له بدخول كل البيوت بلا سبب واضح ، حيث يرتمى جالسا بجوار أهلها منكمشا على نفسه فى انتظار حسنة أو كوب شاى أو ربما كلمة ترحيب طيبة ..

لا أحد يراه يأكل أبدا . كذلك لايعرف أحد أين يبيت ، لكننا نراه أحيانا يغسل ثيابه فى أى ترعه ، أو يستحم فى ميضأة المسجد القريب من ديارنا ..

كثيرا ماكنت أراه يجلس فى مندرتنا بين أبى ورهط من عائلتنا . لم يكن وحده أليفا بل كان اسمه أيضا أليفا ، لكنها تلك الألفة التى تقوم بيننا وبين الأشياء ، فهو أليف كصورة جدى «الكلاف بيك» المعلقة على حائط مندرتنا فى مواجهة الداخل من بابها ، وسط برواز مذهب ، قريب الشبه جدا من أحمد عرابى زعيم الفلاحين ، نفس الذقن السكسوكه والبيون الأسود البارزفى فتحة ياقة القميص الافرنجى ، والطربوش القصير ، تطل من عينيه نظرة أراها فى جميع أبناء عمومتى ..

مندرتنا هذه العتيدة شهدت كثيرا من الأمجاد ، ففيها جلس الكثيرون من علية القوم فى أزمنة متعددة ، فيها جلس أفندينا نفسه أثناء زياراته المتعددة لجدى فى فترات الاستراحة التى كان يقضيها جدى فى بلدتنا ريثما تعود الاسرة الخديوية من مصيفها فى أوروبا ، حيث يتحرر جدى من رسمياته وينطلق كأحد البكوات الكبار يقضى وقتا فى الاسكندرية ووقتا فى بلدتنا ..

كان لجدى عشرة أبناء ، سبعة رجال وثلاث نساء . وكانت الأسرة الخديوية قد أنعمت عليه باقطاعية سبعمائه فدان ونصف بور يقوم هو باصلاحها وامتلاكها ، وقد فعل ، ومن عرقه وشقائه أكمل المئات السبع الى عشر ، منتفعا بخبرة وسواعد أصهار له من بلدة مجاورة لبلدتنا ، حيث توفروا على الأفدنة فأصلحوها وتولوا زراعتها وتوريد ريعها الى جدى ، ثم علموا أعمامى الفلاحة فلم يدخل منهم المدارس سوى ثلاثة فقط هم «عم سعد» و«عمى سعيد» وأبى . أما «عمى سعد» فقد تخرج فى الأزهر الشريف وأصبح شيخا كبيرا فى الأزهر لايزور بلدتنا الا فى الأعياد . وأما «عمى سعيد» فقد تخرج هو الاخر فى الأزهر ولكنه كان حلو الصوت مهتما بالموسيقى فاشتغل صيتيا ومقرئا للقرآن الكريم ، ولست أدرى هل لحلاوة صوته أم بحكم صلة جدى بأفندينا اشتغل «عمى سعيد» صيتيا ومقرئا خاصا بسراى أفندينا يحيى لياليه الدينيه الدائمة فى الأشهر الحرم . وأما أبى فقد تخرج فى مدرسة المهندسخانة وعمل موظفا بهيئة الفنارات . وكان أبى وأخواه «سعد» و«سعيد» من مشاهير الناس فى العب كله لنشاطهم السياسى المسموع وخدماتهم التى يؤدونها لكل من جاءهم يحمل بطاقة توصية من أحد فى البلدة . لكن شهرة أبى — رغم أنه أصغر اخوته — قد تفوقت ، لأنه كان من أقطاب الوفد وكان دائم الاحتكاك بالسلطات البريطانية ودائم الزيارة لمعتقلهم .

أما «عمى محمود» و«عمى فارس» و«عمى عطيه» و«عمى عبد الخالق» فقد كانوا يفلحون الأرض فى البلدة . كانوا يشغلون هذين البيتين الكبيرين المهيبين ، بيت بالطوب الأحمر يضم عشرين قاعة وزريبة ومنحا للجمل ومخزنا

للتبن وآخر للحبوب ودهليزا كبيرا فى ركن رطيب منه ثلاثة أزيار للماء على قاعدة من الأسمنت ، وملحق به من الخلف تعريشة للفرن تسمى الدويرة ، والفرن يشتعل يوميا للخبيز الكبير أو لخبيز لقمة طرية كالرقاق والفطير والقرص أو لدس الأرز وهو غذاء يومى . يمتد جدار هذا البيت ـــ وفى منتصفه البوابة ـــ الى الداخل ، حيث ينكسر يمينا بجدار الزريبة مكونا حارة سد . ابتداء من نهاية حائط الزريبة يمتد الى الخارج جدار البيت الثانى ، حيث تنتصفه هو الآخر بوابة كبيرة ضخمة لاتقل عن التى تواجهها مهابة وأصالة ، هذا البيت مبنى بالطوب النيىء فى دوره الأول ، ودوره الثانى مصنوع من الخشب البغدادلى المغفق بالطين ثم الجير الملون ، وهو متصل بالبيت المجاور من فوق بواسطة تراسينة خشبية تعبر الحارة بين البيتين ذات سور حديدى مشغول بالمخرطة . وكان واضحا أن هذا البيت ذا الدورين كان مخصصا كاستراحة خاصة لأبنائهم المقيمين فى العاصمة ومن يجىء معهم من ضيوف حيث كان الدور الثانى المصنوع من البغدادلى مكونا من ثلاث حجرات كبيرة تتلقف الرياح والشمس من جميع الجهات وكانت مليئة كلها بالأسرة النحاسية والبوريهات والكراسى العباسى والسجاجيد الثمينة وأشياء كثيرة عاصرت آخر معارك النزاع حولها بين أبى وأبناء عمومتى ، وأما الدور الأول فقد كان عبارة عن مندرة كبيرة جدا وملحق بها دهاليز يغلق عليه باب متين حيث توجد به دورة المياه والسلم الصاعد للدور الثانى ..

«عمى محمود » كان عميد عائلة الكلافين حتى فى حياة جدى ، وكان عملاقا فتيا كثير الانجاب بلغ أولاده سبعة وأربعين ذكرا وأنثى من أربع نساء فى عصمته وخمس مطلقات لكن كل أولاده يعيشون معه فى حوزته . وكان زعيما لأولاد الليل والفتوات والأشقياء ، لايشاركهم الاجرام ولكنه يشكمهم ويقهرهم ويستخدمهم عند اللزوم لمصلحة عامة ، دائم الانتقاد لفسولة رجولتهم ويعتبرهم عيالا على الرجولة الحقيقية ، أى شىء يضيع فى المنطقة يجىء اليه المصاب ويشكو جليل مصابه ، فيستفهم منه عن بعض الأوصاف وبعض المعلومات ، ثم يهز

رأسه فى هدوء قائلا : «خلاص انحلت » ، ثم يميل على أحد التملية ـــ وماكان أكثرهم فى ديارنا آنذاك ـــ هامسا بشىء ، فيذهب التملى ليغيب ساعة أو أكثر مسافة مايتناول الضيف الغداء والشاى ، ويعود ساحبا خلفه أحد الأولاد الأشقياء قائلا : «أهه» ، فيشير له «عمى محمود» بطرف العصا على الأرض أن يجلس ، فيجلس متقرفصا على مبعدة خوفا من استطالة العصا ، يزغده عمى بالعصا فى صدره زغدة خفيفة لكن الولد ينعدل تلقاءها متربعا وقد جحظت عيناه فى استكناه المجهول . يفتل «عمى محمود» شاربه بحركة ذات معنى مركزا النظر فى الولد صائحا : «فين ياولد كذا وكذا وكذا .. اللى سرقتوه اول امبارح من الحتة الفلانية .. بأمارة كذا وكذا » ، فيفتح الولد فمه ليتكلم ، فيضرب «عمى محمود » الأرض بطرف عصاه صائحا : «الحاجة دى تيجى دلوقت .. يلا قوم .. خمس دقايق بالعدد » ، فينتفض الولد مستردا روحه قائلا : «حاضر ياعم محمود » ، وينطلق ليعود بكل شىء بعد حين قصير ..

هكذا كان «عمى محمود » كما وصفه لى «أبو سماعين» . أما بقية أعمامى الفلاحين فلم تكن لهم مثل هذه الشخصية ولكنهم كانوا ذوى احترام كبير هم أهل له . وكانت العائلة بفضله مرهوبة الجانب ، اذ يشاع عن «عمى محمود » أنه كان لاعبا بالنبوت لايباريه أى فارس فى الأرض ، لدرجة أنه كان يضرب النبوت فى الأرض فيزرعه زرع البصل ، ثم يقف فوق طرف النبوت بقدم واحدة ويبرم جسمه حول نفسه وربما يؤدى طبقة ذكر دون أن يقع . غير أن الكارثة الكبرى التى منيت بها عائلتنا مبكرا هى موت «عمى محمود » الذى جمحت به الفرسة ذات يوم فاندفعت تجرى عمياء بين الحقول ليختطفه من فوقها فرع جميز عتيق يلقى به على الأرض ممزق الجبهة ، وكان مشهد دفنه عظيما اذ حضره أفندينا واستمر سرادق العزاء أسبوعا كاملا فى استقبال المعزين من كافة البلدان .

على أن لواء الفروسية فى العائلة انتقل فى الحال الى عمتى «نجية الكلافة» التى كانت هى الوحيدة فى اخوتها موازية فى قوة الشخصية لأخيها «محمود» ،

وكانت متكلمة وصاحبة واجب تقيم على مذبحة عشرات المئات من العلاقات المتينة القوية ، وكانت أيضا صاحبة سطوة حتى لقد شغلت فراغا تركه «عمى محمود» وتواجدت فى كل مجلس كان يتطلبه ، وظل اسم الكلافين يعبر معها البحور والكفور والحقول لأداء واجب العزاء أو الفرح فى بلاد بعيدة ، وظلت هى تلعب دورها بكفاءة عالية الى أن مات جدى «الكلاف بيك» فتحولت هى الى حيوان شرس يعض جميع اخوتها دون رحمة ، وراحت تدخل كل يوم فى قضية أمام المحاكم مع واحد من أخوتها حول مواريث تدعى ملكيتها بناء على توصيات زائفة تزعم أن أباها أعطاها لها قبيل موته ، ولم تتوقف قضية من قضاياها الا بموت خصمها — اخوها فى نفس الوقت — حتى أختها الصغرى التى كانت تكفلها أرادت أن تستولى على نصيبها فماتت هى الأخرى بفعل الحسرة .

حينذاك كان أبى قد أحيل الى المعاش وجاء يحضر تقسيم التركة ويحصل على نصيبه منها . فى مجلس التقسيم الذى يضم علية القوم فى البلدة قيل لأبى : «تختار نصيبك من الأرض فى أنهو حوض ياعبد الفتاح افندى ؟» . وكان أبى اسكندرانيا مرفها لايفهم شيئا فى الأرض أو شئون الفلاحة ، ويبدو أنه قد ردد الكلمة التى يسمعهم جميعا يرددونها فى الاسكندرية عند تقسيمهم للأراضى : «على واجهة!»، باعتبار أن الأرض هناك تقسم للمبانى فتصبح الواجهة مهمة، اذ قال أبى هو الآخر بعد أن وضع ساقا على ساق منجعصا : «أنا مش حاتنازل عن ان الأرض بتاعتى تكون على واجهة !» . فذهل القوم وتبادلوا نظرة حرجة تمنعهم من الضحك الساخر ، لسان حالها يقول : مابال هذا العبيط يصر على هذا الطلب الغريب ! ان الأرض التى على واجهة لاتصلح للزراعة مطلقا ، يجور عليها الطريق ويرملها ثم أنها تصبح طريقا سهلا يخرم منه العابرون . تطوع أحدهم لتنبيهه على سبيل ابراء الذمة : «حتبنيها ياعبده افندى ولا إيه ؟» . قال أبى مستمرا فى الغشومية : «أنا حر بقى» . ونشطت عمتى «نجيه» وبخت هذا الرجل فى خبث شديد قائلة له أن يترك أبى يختار مايشاء دون مراجعة ، لتكون فى

الظاهر قد انتصرت لرغبة أبى ودافعت عنه ، وفى الباطن تغريه بالاستمرار فى غشوميته حتى يأخذ الجانب البائر من الأرض المطلة على الطريق لتتسع أمامها الفرصة فى اختيار نصيبها ضمن الأرض الخصيبه ، فالمعركة التى كانت تخشى قيامها كانت ستدور حول هذه القطعة المالحة المجدبة من الأرض ومن ذا الذى سيقبل أن تكون من نصيبه ولكن هاهو ذا أبى يحل المشكلة بجهالة فائقة فأهلا به وسهلا ..

وهكذا كان من نصيبنا البوار أنا وإخوتى طول حياتنا . طاردتنا النكتة فى شوارع البلدة والتصقت بطفولتنا ، حيث أطلق أهل البلدة علينا جميعا لقب «أبناء الواجهة» وكانت النكتة تزداد التصاقا بنا يوما بعد يوم فتزداد عمقا وسخرية ، اذ أن أبى صرف عليها كل ماكان فى حيلته محاولا اصلاحها ولكنها أبدا لم تؤت بأى ثمرة . وفى لحظة حزن وضيق تسلل اليه «الحاج مصطفى الحداد» واقنعه بضرورة التخلص منها ، ثم اشتراها ببضع مئات من الجنيهات وتركها للزمن يرفع من سعرها حين يمتد اليها العمران .. فاستباحها كل أهل البلدة وأقاموا فوقها ألعابهم ومسامراتهم الليلية . ورغم أن ملكيتها انتقلت رسميا الى «الحاج مصطفى الحداد» الا أنها ظلت تحمل اسم لعنتنا ، ظل الناس يسموننا أولاد الواجهة ويسمونها أرض الواجهة ، ويقولون لبعضهم البعض : سنعلب الكرة اليوم فى أرض الواجهة ، أو سنتقابل غدا عند أرض الواجهة ..

وكانت عملية تقسيم التركة قد اقتضت أن يستقل أبى بالبيت ذى الدورين . فكان يستقبل المرشحين والضيوف فى المندرة ، ويقضى القيلولة فى المقعد فى الدور الثانى حيث حجرة النوم المطلة على البحرى ، وفى العصارى يجلس لصق الشباك البحرى المطل على حارة جانبية تستقلها عائلة صغيرة عميدها شيخ خفراء البلدة سابقا ، ويروح يتصفح الجرائد والمجلات والكتب ، ويطل من الشباك ليرى جانبا من مزارع البلدة وجانبا من مقابرها العالية . كان فى تلك الأثناء وحيدا ، حيث أن زوجته «الحاجة فاطمة» التى يسمونها بالاسكندرانية قد تمردت

على نمط الحياة فى البلدة ، ولم تعد تطيق العيش فيها مع أبى أو مع أى أحد ، وقد ضاعف من شعورها بالغربة أنها كانت عقيما لاتنجب ، ولم تكن هى الأولى فى حياة أبى بل كانت هى الثالثة ، حيث اكتشف أبى أن أولاده من الزوجة الأولى يموتون باستمرار فتأزم العيش بينهما فطلقها ، وبعد عام تزوج الثانية ليكتشف أنها تسقط باستمرار فى شهرها الرابع أو الخامس ، لايكتمل لها حمل أبدا ولم ينجح الأطباء فى معرفة السبب الحقيقى الا أنه قد يكون ضعفا أو خللا فى تكوين الرحم ، فتأزم العيش بينهما وطلقها وبعد عامين تزوج «الحاجة فاطمة» الاسكندرانية ليكتشف أنها غير مؤهلة للإنجاب أصلا ! ، فاحتمل قدره ووجد فيها زوجة صالحة تؤدى فروض الصلاة بانتظام ، فلم يشأ أن يطلقها خاصة أن العمر لم يعد فيه متسع لذلك ، وراض نفسه على ألا يكون له ولد رغم شدة حبه للأولاد ..

على أن «الحاجة فاطمة» الاسكندرانية بدأت تستريب من قعدة أبى بجوار هذا الشباك ذى النسيم العليل ! وصارت تستفسر منه سر ذلك وهو حائر لايدرى بماذا يجيبها سوى أنه شباك يطل على الخلاء الجميل ويحمل الهواء النقى وأنه لايغسل أعصابه جيدا الا فى هذه اللحظات التى يجلسها بجوار هذا الشباك . يكاد أبى يجن لأنها تطلب أسبابا أخرى لايعلم عنها أى شىء ، ولم يكن يدور بخلده مايدور بخلدها ، منذ نظرت من الشباك ذات يوم فرأت فتاة شقراء غاية فى الجمال تبارك الخلاق فيما خلق ، عمرها لايزيد عن اثنى عشر عاما لكن جسدها ناضج فائر وتبدو كامرأة فى الثلاثين ، كأنها جارية شركسية هربت من حريم السلطان وضلت الطريق فى هذه الحارة التى تستمد سمعتها من وجود بيتنا على ناصيتها ، فما أن رأتها ولاحظت جلوس أبى بجوار الشباك دائما حتى سقطت من طولها ، واستفسرت عن البنية فعرفت أنها ابنة المرحوم شيخ الخفراء المقيمة أسرته فى آخر هذه الحارة السد ، وأنها تعيش معظم أيامها فى المدينة مع أمها وأخوالها منذ وفاة أبيها وهى طفلة صغيرة . ورغم أن «الحاجة فاطمة» الاسكندرانية عرفت أن

هذه الفتاة بريئة تماما «مترببة على الغالى» فانها لم تحتمل ، وأيقنت أن أبى يعمد الى الجلوس بجوار الشباك من أجلها .. فصارت تنتابها حالات جنونية عنيفة ، تقوم فى الليل تصرخ وتشد شعرها وتمزق وجهها صائحة فى أبى : «طلقنى .. روحنى لأهلى» . عبثا يحاول أبى تهدئتها ، اذ يتزايد جنونها ، وتروح تلوك سيرة الناس ، وتلطخ سمعة الابرياء . عندها لم يحتمل أبى ، فصفعها ، فلعنته ، فبصق فى وجهها ، وفى الصباح أبرق الى أهلها فجاءوا ليأخذونها ، ولم يكن يعنيهم من كل ماحدث شىء سوى أن أبى بصق فى وجهها ، اذ كانت كل ثورة أخيها منصبة على هذه النقطة فلايفتى يصيح : تتف فى وشها ازاى هى قطة ؟! » ، ولكنهم فى النهاية حملوها بمفروشاتها وجهازها وورقة طلاقها وانصرفوا ، ليعيد أبى فرش البيت مما كان مختزنا لديه من مفروشات العائلة العتيقة ، وعاش وحده مدة عام أو أكثر وقد أدمن هذه الجلسة فى العصارى بجوار هذا الشباك ، ولكن قد أضيف اليه هم جديد لايستطيع منع نفسه من حمله ، ذلك هو متابعة الطريق فى انتظار مرور هذه الشقراء الفاتنة ، التى باتت شغله الشاغل . صحيح أنها فى الثانية عشرة من عمرها وهو قد تجاوز الستين ، لكنها ناضجة وهو لايزال فتيا متين البنيان ..

لم يطق صبرا ، فأرسل عمتى الى أم الشقراء الفاتنة ، وكانت لاتقل عن ابنتها صبا وجمالا ، وكان شبان كثار من عائلات كبيرة فى البلدة يدورون عليها هى لا على إبنتها، ويخطبونها هى لا إبنتها، وكان ذلك يرضى غرورها ويريح نفسها ولكنها كانت تتحرج من إبنتها ؟! . اذ كيف تتزوج هى من شاب صغير فى حين أن إبنتها عروس فى انتظار عريس مثله ؟! . فلما بدأت عمتى تكلمها فرحت غاية الفرح متصورة أن الكلام عليها هى ، أى أن أبى يريد أن يخطبها هى ، فهذا هو الشىء المنطقى الوحيد فى كل ماعرض عليها ، لكنها حين استوضحت الأمر وعرفت أن المقصود بالخطبة ابنتها لا هى ، ابتلعت غصتها لبرهة قصيرة ثم مالبثت أن شعرت بأنه قد آن الأوان لكى ينزاح الجبل الرهيب عن صدرها ، وسرعان ماوافقت ، ورضيت عن طيب خاطر أن تزف ابنتها الى «عبد

الفتاح افندى الكلاف ، سليل الحسب والنسب ... لتكون هذه الفتاة العزيزة الشقية — بعد سنوات قليلة — أما لى ولاحد عشر أخا وأختا أنجبتهم لأبى وهو يعبر بحر السبعينات من عمره الى شاطىء التسعين ..

حين تفتحت عيناى على الحياة كان كل شىء فى عائلتنا قد غبر ، وبات كل تاريخنا مجرد صور معلقة على حوائط متهالكة ، ومجرد أشياء بالية ، بضع ملاعق وشوك وسكاكين من طراز ملوكى ، سجادة تآكلت دائرة الوسط فيها كلها ، وأخرى متآكلة من الأطراف نفرشها للضيوف على الكنبة ، بوريه من خشب الأرو ، سرير نحاسى حائل ، زراير فضية لقمصان أبى ودبابيس لرباط العنق مرمية فى درج صغير بين صواميل ومسامير وبرايات أقلام وأسنان ريش ..

إن أنسَ لاأنسى ماكينة الغناء ، تلك التى لم يكن يديرها أبى أبدا ، فوق ترابيزة مائدة مستديرة ذات أرجل مخروطية ورخامة ثقيلة ترقد الماكينة مربعة الشكل فى حجم صندق النذور ، يجثم فوقها نفير كبير أحمر اللون مشغول بالحفر من الداخل على شكل زهرة اللوتس ، لها ذراع أنيق يرفعه أبى أيام كان يديرها — ليضع فى طرفه إبرة صغيرة جدا يأخذها من علبة نحاسية مزخرفة فى حجم علبة الكبريت كنت أبكى بكاء مرا حين ينتزعونها منى بالقوة ، بجوار الماكينة صندوقان كبيران من الابلكاش ممتلئان بعشرات الأسطوانات التى تنبعث منها رائحة حميمة ، الأسطوانة فى حجم المطرحة ، سوداء ، فى مركزها الدائرى دائرة صغيرة ملونة عليها كتابة وصورة ، أما الكتابة فهى اسم الأغنية واسم المطرب واسم شركة الأسطوانات وأما الصورة فهى صورة المطرب ، كل اسطوانة لها غلاف مربع من الورق المقوى تدخل فيه ، ينزع أبى الأسطوانة من غلافها ويضعها فوق سطح الماكينة وفى جانبها يد يديرها أبى طويلا حتى تمتلىء علبة الزمبرك ، ثم يتناول الذراع ويضع سن الإبرة على طرف الأسطوانة التى تأخذ فى الدوران لتنبعث من النفير أصوات غاية فى العذوبة ، موسيقى كأنها أصوات بشر ، وأصوات بشر كأنها موسيقى ، والكون كله يسبح لحظتها فى بهجة حبيبة أود لو تستمر الى مالا نهاية ..

غير أنها كانت مجرد لحظة عابرة لم تتكرر مطلقا ، ظلت محفورة فى نفسى سنين طويلة . أمى نفسها لم تكن تجرؤ على طلب ادارة الماكينة . فاذا افترضنا أنه ــ كما كانت تقول لنا حين نلح فى طلب ادارتها منه ــ لايديرها الا فى لحظة صفاء لكان فى وسعنا أن نتأكد أنه ليس ثمة من صفاء فى حياته على الاطلاق . ولهذا فقد بت اتحين الفرصة لرؤية وجه أبى منبسطا ذات لحظة كى أتسلل الى جنبه فى هدوء وحذر قائلا له : «آبا .. آبا .. دور لنا المكنة شوية » ، وأكون مستعدا للانفجار فى البكاء اذا مابدرت منه بادرة زجر . وكثيرا مابكيت ولويت بوزى وغضبت عن الطعام دون جدوى ، حتى تيقنت أن غضبتى لاتصيب أحدا سواى ، وعزوفى عن الطعام حرمان مؤكد لاحق لى فى المطالبة به فور انتهاء موعده بدقيقة واحدة ..

حين صدىء سلاح البكاء أغمدته فى صدرى . غير أن ملامح وجهى تحولت فجأة ولم تعد ملامح طفل أبدا ، حيث كنت أمر صدفة أمام مرآة البوريه الكبيرة فيلتقطنى فيها وجه مكلبظ مدهون بطبقة من البرابير والدموع الجافة بما تراكم فوقها من غبار ، أتوقف عنده ، يهولنى ذلك البؤس الشديد الذى يطالعنى به ذلك الوجه فى المرآة ، تسقط منى دفقات من أنفاس أمى حين تتنهد من حين إلى حين وبعمق كأنها ترسل روحها وتعود فتلتقطها كالكرة ، حتى لقد بت أتخيلها ترسلها ذات مرة فلا تفلح فى استردادها فأرتعد ويصيبنى هم على هم ، اذ هى الوحيدة التى تعطف على وتتوجع من منظرى .. أتكون هى التى علمتنى التنهد بعمق مثلما علمنى أبى التكشير ؟ يرن فى أذنى صوت أمى مشوحة بيدها فى وجهى كالعادة صائحة فى قرف وإشفاق : «ياساتر يارب .. تكشيرة ابوه بعينها .. ياشيخ فكها حبه .. فكوها فكيتوا عقل ضهرى أنت وأبوك » . يقول الوجه الذى فى المرآة أنها صادقة ، مع ذلك يلتوى بوزه أكثر فأكثر بشكل يغيظ حقا ، تربد ملامحه كأن ظل الكون كله ملقى عليها ، يقول صوت أمى : «أنت راخر مش قادر تكسى العيال ؟! .. داخل عليك العيد ومش عارف تحسبها !..

ياحرام .. ميعاد الطحين قرب ومعاكش فلوس ! ـــ تصفق بيديها مشوحة فى غل مكبوت ـــ إلّهى ربنا ينتقم منكم ـــ ثم مستدركه ـــ إلّهى ربنا ينتقم من الظالم ـــ ويرتعش صوتها كمليون قطة تموء دفعة واحدة مواء يقطع نياط القلوب ـــ حسبى الله ونعم الوكيل حسبى الله ونعم الوكيل » . أحس بزغدتها فى جنبى قاسية حادة . الوجه الذى فى المرآة مثل بكرة من الصوف دوائر دوائر ، رمادية متداخلة منبعجة توشك أن تنفرط ، كل الأشياء منقسمه ، خيوط الدمع المنسابة على الوجه الذى فى المرآة تكوى خدى ، فأنفجر باكيا ، فيتفطر وجهه باكيا معى ، من يومها أحببته رغم ماكان يثيره فى نفسى من كآبة خرساء أشعر معها بهم ثقيل ..

كل من يرانى من الأهل أو الجيران أو زوار دارنا وما أكثرهم كان يتوقف عند منظرى ويتصعب ويمصمص بشفتيه ، بعضهم يفعل ذلك فى نغمة تعطينى الاحساس بالشفقة أو التأسى أو الحزن من أجلى ، وبعضهم فى احساس بالتشاؤم والكآبة ، وهؤلاء يشوحون فى وجهى بقرف قائلين : «أعوذ بالله » ، فيرد آخر معلقا : «شايل طاجن سته » ، ثم يضحكون . تتطوع أمى قائلة أن السبب فى جعل وجهى هكذا مثل قعر الطاسة هو أن أبى لايدير ماكينة الغناء ، ثم تنظر فى وجهى وتبتسم ، فأعرف أنها تخلق بذلك مناسبة لأن يتطوع بعض الجالسين فيرجو أبى أن يدير الماكينة ولو لخمس دقائق حتى تنفك عقد وجه الولد . ومن أسف أنهم لم يكونوا يفعلون ، لأنهم بدورهم كانوا قد باتوا موقنين أن أبى قد خلع ماكينة الغناء من حياته الى الأبد ، بعد أن كانت تسليته الوحيدة طول الليل والنهار ، وكان يبدو حزينا أشد الحزن وهو يستمع اليها ، ويعلق أهل دارنا همسا قائلين أن هذه الماكينة هى جذر الحزن فى حياة أبى ، فهى تذكره بأيام عز غابرة بات يحب لو ينساها ، وكان ينساها بالفعل ، اللهم الا فى بعض حالات صفو نادرة يحلو له أن يستخدم الماكينة فى مقالب ضاحكة ، وسجل الذكريات فى مجالس بلدتنا يحفل بالكثير منها ، خاصة تلك المتعلقة بالشيخ عصران الذى كان

يحتكر الخطبة فى المسجد مستخدما قواه العضلية وعزوة عائلته مع أنه ممل جهول يقرأ من كتب صفراء خطبا عمرها مئات السنين ، وأحس أبى باشمئناط الناس جميعا منه وضيقهم بخطبه السقيمة فأراد الهزء به ، فأوهمه أنه — أبى — يستطيع أن يسجل له اسطوانة على هذه الماكينة بصوته على شرط أن تكون خطبة عصماء ، فمكث الشيخ «عصران» أسبوعا يعالج هذه الخطبة ويدبرها من مصادر قديمة ، ثم جاء لأبى فى الموعد المحدد بينهما ، وكانت الشلة التى يجلس معها أبى موجودة بكامل هيئتها ، وقد أضيف اليهم عدد كبير من علية القوم ممن علموا بأمر هذه العجيبة التى ستحدث اليوم فى مندرتنا . من بين الأسطوانات التى كانت عندنا اسطوانة مسجل عليها فاصل من الضحك الحشاشى مجرد ضحك ، ناس اندمجوا فى ضحك ماجن تعلو موجاته لتهبط من جديد ثم تعلو ، يتخللها شخر وغنج من الضاحكين غير مقصود . ثبت أبى هذه الأسطوانة عند بداية شخرة من هذه ، ثم سلط النفير فى مواجهة «الشيخ عصران» موحيا له أن يتكلم فيه ، وأدار أبى يد الزمبرك فملأه وفعل بعض اجراءات وهمية وأشار للجالسين بالصمت ، ثم صوب فمه الى النفير وقال سيداتى وسادتى نقدم لكم هذه الخطبة للعالم العلامة والحبر الفهامة العبد الفقير الى ربه تعالى الشيخ عصران ، ثم أشار للشيخ عصران ، الذى سمى باسم الله وصلى على النبى وآله الكرام أما بعد .. وراح يلت ويعجن ساعة بأكملها ينشال فيها وينحط من الانفعال والعرق والحماس ، نثر يتخلله شعر وأحاديث وآيات .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ثم صفق الجميع ، وقالوا — وكان بعضهم يعرف حقيقة الفولة — : «عايزين نسمع بقى الاسطوانة ياعبد الفتاح افندى» . فقال أبى : «حاضر» ، ثم أدار الاسطوانة فجأة فاذا بصوت الشخرة يندفع من النفير مجسدا تتلوه ضحكات نشوانة ماجنة ، واذا بالقوم كلهم ينخرطون فى ضحك مجنون ..

أسود يوم كان يوم أن خرجت هذه الماكينة من دارنا بكل ملحقاتها ، اذ كان مرض الصفراء والطحال قد حل بى أنا وشقيقى التالى لى مباشرة ، وتطلب

الأمر عرضنا على اكثر من حكيم خصوصى فى البندر ، الذى ماأسرع مايكتب الروشتة ، وروشتات الحكيم فى بلادنا شىء مقدس . رشحت أمى بعض الحلل النحاس والطشت الكبير لكن أبى لم يجد مفرا من التفريط فى ماكينة الغناء ، هكذا أقنعه «الحاج مصطفى الحداد» مرة أخرى فى سهرة له فى دارنا امتدت كالعادة حتى منتصف الليل فى ضحك وفرفشة وتدخين وشرب شاى ولعب طاولة ، ثم دفع لأبى أربعين جنيها وبعث فى الصباح من حملها ونحن نشيعها بصوات وولولة كما نشيع نعشا يضم رفات عزيز . وظلت هذه الحادثة تصيبنى بغصة ولوعة كلما تذكرتها أو سمعت صوتها ، لم يكن حزنى على فن أو ماأشبه انما كان حزنى لأننى واخوتى لن نجد بعد اليوم شيئا نتباهى به على الأولاد . لكن ذكراها لم تمت حقا الا بعد أن فوجئنا بظهور ذلك الشىء المسمى بالراديو ينتشر بسرعة فى أكثر من بيت ثم فى أكثر من دكان .

مخطىء أنا حين ظننت أيام ذاك أن سبب حزنى من البداية كان مجرد عدم استجابة أبى لطلبى فى ادارة الماكينة . فالواقع أنه كانت هناك عشرات الأسباب التى تجعل منى حزينا بالفطرة ، يكفى أن أنظر فى وجه أبى ، الذى مارأيته ضاحكا قط ، ويكفى أن أنظر فى عينى أمى ، لأجد الحزن فيهما يسافر مسافات بعيدة الغور ، مجرد رؤية عينيها يدفعنى الى الشعور بالرغبة فى البكاء حزنا عليها . أراها لاتزال فتاة صغيرة ، وأرى أبى طويلا كالنخلة فيه خشونة ومرونة . شعر جسده تجاوز مرحلة الشيب الى مرحلة الاحتراق والتفحم ومع ذلك يبدو قويا جبارا وان كان مسنا . هى رفيعة الخصر ممشوقة القوام ناهدة ، كمهرة اليفة وديعة ، حمراء الوجه ينساب شعرها الذهبى الغزير فى ضفيرتين سخيتين مبدورتين تنتصفان عند الحاجبين ، كتعريشتين حول عشين بارزين ، تنطلق منهما عينان تحومان على وجه العجوز تغمرانه بالحنان والدفء ثم تعودان الى العشين ، صوتها الغليظ الدافىء يعكس عراقة أنثوية كأنها بنت أمنا حواء مباشرة ، بقدر مايعكس نبرة الشهامة فى أصوات الرجال الأصلاء . وكنت كثيرا ماأسائل نفسى : ماكنه

ذلك القدر الذى يحكم على فتاة صغيرة كهذة جميلة مثلها أن تتزوج كهلا كهذا فى عمر جدها الثالث وتنجب منه زرية عيال يعجز عن اطعامهم على نحو مايطعم الأولاد فى أقل العائلات فقرا ..

الى أن حدث ذات صباح مبكر أن قمت مندفعا نحو الكنيف أفرغ بولتى ، فاذا بى أرى أمى واقفة فى قلب الطشت عريانه تماما كما ولدتها أمها ، يتصبب شعرها مع خيوط الماء بالصابون على جسدها ، واذا بأبى مرتديا الفانلة والسروال مشمرا ذراعيه ممسكا بالليفة والصابونة يدعك جسدها برفق ويصب بالكوز ماء ساخنا يأخذه من الدست النحاس الكبير ، فبدت هى طفلة صغيرة جدا رغم ضخامة حجمها وبدا هو عملاقا يغسل جسد ابنته ، ولم يفزع من ظهورى وإن كانت هى قد انكمشت على نفسها قليلا فى قليل من الحياء والحرج ، لكننى ارتددت مذعورا أرتعش بمشاعر غامضة ..

فى المساء نتقلب على المرتبة المفروشة فوق حصير على الأرض فلا نعرف متى صعدت هى الى السرير ذى الناموسية البرتقالية اللون المقفلة على صمت كاذب وان بدا عميقا ، وضوء القمر المتسلل من الشباك المواجه للناموسية يرسم على الناموسية شبكة غليظة من ظلال أعواد حديد الشباك ، تمتد مربعاتها لتشطر وجوهنا وأقفيتنا فأظل لبرهة طويلة استشعر الصمت وأحاول الغوص فيه ولكن أنفاسا دافئة أحس أنها تكاد تتكلم بين مربعات الظلال ، صوت كلام يوشك أن يؤوب الى صمت ، وصوت صمت يوشك أن يؤوب الى كلام . غير أن مربعات الظلال لاتلبث أن تنتفض كأنها ترقص على موسيقى خفية ، ينساب ارتعاشها فى اوصالى شيئا فشيئا كارتعاشة فخذ أمى تحت رأسى عندما كانت تفعل ذلك لتجلب لى النعاس ، وبالفعل يستغرقنى النعاس ..

وفى الصباح لانعرف متى استيقظت ولكننا نشم رائحة الحياة فى لحظة نكون فيها بين النوم واليقظة ، ورائحة اللبن المغلى الذى يجود به علينا أبناء عمومتى

كل يوم ، ورائحة وابور الجاز المشتعل ، ورائحة عرق أبى الذى رماه فى طشت الاستحمام فى الحجرة المجاورة ، وقطع الجبن القريش التى ستوزع علينا كل واحد قطعة فوق رغيف عريض كالمطرحة . هى واقفة له بالفوطة والصابونة حتى ينتهى من الفطور ، تناوله الصابونة ، تنحنى كانحناءة ضوء الشمس الذى كان مارا من أمام الشباك فتعرف على لونه فى الناموسية البرتقالية فاتحد معها فى تمازج بديع . تمتزج عينى باللبن المخلوط بالشاى والكوب محاط بساق المتربعتين رغم خوفى وتوقعى من تكرار النحس بأن أنتبه فجأة فأرى الكوب مندلقا لسبب من الأسباب يتضح دائما أننى مصدره . الإبريق النحاسى سمهرى القوام يشبه قوام أمى تماما ينحنى هو الآخر فى يديها ليصب خيط الماء فوق يدى أبى وهو يقلب الصابونة الكبيرة الزرقاء المربعة بينهما ، فيلمع فص الياقوت الأحمر فى الخاتم الفضى فى بنصره ، يتمضمض يبصق فى الطشت يتمخط . تعتدل أمى ، تهتز شرخة الشمس البرتقالية ثم تستقيم فى وضعها من جديد . أبى يتناول الفوطة ويجفف بها فمه ويديه . يكون الشاى بغير لبن قد أعد ، يحلو له أن يتركه حتى يرتدى ثيابه . تفتح أمى درج البوريه المستطيل ذى المقابض النحاسية الصدئة ، تخرج «القطنية الشاهى » . يخلع أبى ثوب النوم فاذا هو يبدو كخيال مآته عملاق ذى ساقين رفيعتين تغطيهما وبرة من شعر كثيف محترق يتصاعد الى مافوق ركبتيه وتغوص تحت سروال كبير بحجر مترهل وتكة ذات شراريب ، الصديرى فوق الفانلة أمّ كم ، تتدلى من ابطه كتينة الساعة فى جيبها الصغير وأخرى تمتد نحو الإبط الآخر علقت فيها محفظة جلدية كبيرة ذات جيوب لاحصر لها كلها فارغة الا من بعض أوراق خاصة فيما عدا جيبها الكبير يحوى قروشا قديمة لاتصلح للصرف ولكنها مثل الراقوبة يزعم بموجبها حالفا للآخرين أن النقود لم تفرغ من جيبه قط . هذه المحفظة كثيرا جدا مايحتدم النقاش بينه وبين أمى حول طلب تطلبه فاذا هو ينزع المحفظة من عروتها ويقذف بها فى وجه أمى صائحا بعنف وعصبية : «خدى المحفظة أهى يامره خليها تنفعك ! » .. لحظة ذاك يتدخل الأسف ليعوج ابتسامة أمى على ركن فمها كأن الشفتين تريدان

الرجوع فى الكلام والعودة لحالة الصفاء ، لولا أنها تثق فى فراغ المحفظة والا مافرط فيها هكذا ، بل أنه ــ تقول فى تحفظ وأدب ــ لم يفعل هكذا الا لكون المحفظة فارغة ، ثم انها تكتم رغبتها فى البكاء وتزعم أنها لم تتأثر ، تهز كتفيها وتقول فى لامبالاة كاذبة : «وأنا مالى أنت حر .. إن كان على أنا أقدر أعيش طول العمر من غير أكل .. أكلت فى بيت ابويا كفايتى لحد ماأموت .. الدور والباقى على العيال دول» ..

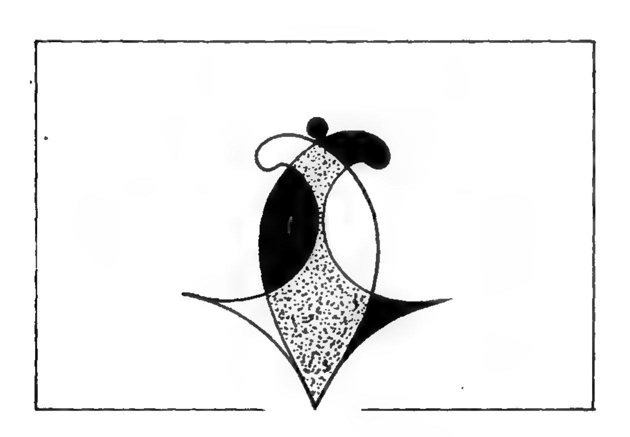
فيبدو على أبى أنه قد ندم على عصبيته ، مع ذلك لايريد النزول عن كبريائه حتى فى لحظة كهذه ، أرفع عينى عن كوب الشاى وأغرزهما فى عينيه فأحس كم هو حائر مهان ، هو الذى استأنف حياته من أول وجديد بعد أن انتهت رسميا وفعل مالم يفعله شاب فى العشرين مكافح مناضل ، يبدو الآن كتلميذ صغير غارق فى الخجل حتى اذنيه ، يزداد عصبية وجعيرا بغير داع ، يتراجع عن ثورته فى التو ، يرقق من لهجته فجأة : «ياستى ربنا يسهل ماتحملليناش الهم أكتر ماالحنا» ، لكنه يشعر أنه لم يتقن الاعتذار ، فيشعر بالبواخ ، فيرفع صوته ثانية فجأة أيضا : «أحسن والله أسيب لك الدنيا وأطفش» ، فتشهق النظرة فى عينى أمى كطائر أفزعته طلقة رصاصة طائشة ، تظل النظرة الوجلة تنتفض على مدخل العينين لبرهة طويلة منفوشة الريش مرهقة ، وفى العادة تظل هكذا طول النهار ..

تحاول اعتقال نظرتها وهى تناوله الجلباب الصوف ذى الأقطنة الحريرية ليرتديه فوق القطنية ، فينقلب فى الحال الى عملاق بحق وحقيق ، ثم يجلس على الكنبة محاولا نسيان عصبيته بقراءة سورة اذا وقعت الواقعة ليس لها من دون الله كاشفة ، ولا نعرف لماذا هذه الآية بالذات يحلو له ترديدها صباح كل يوم قبل الخروج . تقعى أمى أمام الكنبة ، فتكبر الاستدارة أسفل قناة ظهرها ، تمد يدها فتسحب الحذاء الأيض على بنى من تحت الكنبة ، حيث يستخرج أبى من فردتيها فردتى الشراب يلبسه فى قدمين تلوت أصابعهما فوق بعضها . أمى تمسح

الحذاء بذيل ثوبها حتى يلمع ، تتناول قدمه وتضعها فى الفردة وتعقد رباطها عقدة وشنيطة ، ثم تفعل بالاخرى ، ونحس كأنها تكاد تحتضن قدم أبى وترقيها من الحسد . واذ يقف ليعدل طوقه أمام مرآة البوريه تكون هى قد سحبت الطربوش الذى يفضله ، من بين عمودين من الطرابيش معلقين فى مشجب بجوار السرير ، يأخذه أبى فيسوى زره الأسود ويمسحه بكم ثوبه ثم يضعه فوق رأسه بعناية جاعلا الزر فى الخلف تماما ، فتستطيل قامة أبى وتعلو . تسحب أمى البالطو وتنفضه بفرشاة هتياء ثم تفرده خلف ظهر أبى يمد ذراعيه الى الخلف ويدخلهما فى الكمين ويردهما ويتهندم ، ويعلق عوجاية الشمسية فى يسراه ، وبيمناه يمسك العصا الأبنوس ذات القبضة المشغولة من سن الفيل على هيئة أسد يمد رقبته الملفوفة بالشعر يقال أن منها اثنتين فقط واحدة لدى الخديوى والأخرى هى هذه . يستدير ليشرب كوب الشاى فى شفطتين ، يجلس ليلف سيجارة رفيعة يشعلها ثم ينهض ، ماشيا ، تخطو أمى وراءه فنخطو فى أثرهما لنهبط السلم الخشبى الكبير ذى الدرج والدرابزين المشغول بالخرطة . نعبر الدهاليز ليفتح أبى الباب ويخرج ، تقول له أمى : «ربنا معاك .. مع السلامة » . فى الغالب لايرد . فى الغالب أيضا تغلق الباب وراءه بهدوء ثم ترتد لنرى الدموع تنحدر على خديها بغزارة لايوقفها مسحها بكمها ، ترفع ذيل ثوبها وتتمخط فيه . تظل طول النهار تحاول تهدئة نظرتها التى تأبى الا الشرود الطويل عن العشين الجميلين . لكنها كثيرا ماتستعيد رونقها ، اذ أن أبى سريعا مايعود ذات مساء وفى عينيه وملامح وجهه رضاء جم ينبىء عن انتفاخ المحفظة بأوراق مالية وفيرة ، ذلك أن أبى يعمل فى عمل هامشى متصل بمصلحة المساحة لكنه يدر عليه دخلا مجزيا بعض الشىء وإن كان مشقيا ، حيث تخصص فى تخليص مستندات وأوراق ومسائل ومصالح قانونية خاصة بالناس لدى مصلحة المساحة ، فكان خير وسيط بينهم وبين المصلحة ، بخبرته يعرف الاجراءات وأماكن المستندات ودورات الأوراق بين المكاتب وصيغ الطلبات التى ينبغى أن تقدم للمصلحة ، فينوب عن الناس فى فعل ذلك كله مقابل أجر يضيفه على الرسوم الرسمية المطلوبة ، وقد اقتضاه ذلك أن يسافر كل يوم الى المدينة حيث

يمشى على قدميه ستة كيلو مترات فى الصباح الباكر ليصل الى محطة القطار فيركبه سبع محطات حيث مبنى مصلحة المساحة فى البندر ، ويرجع بعد انصراف الموظفين لينزل فى نفس المحطة ويعود ماشيا نفس المسافة ليكون فى البلدة قبل صلاة العصر ، ويقولون فى بلدتنا أن هذا المشوار اليومى الساخن هو الذى يطيل عمر أبى ويعطيه الصحة ..

ثم أننى واخوتى ماكدنا ندب بأقدامنا على الأرض حتى اتجه كل منا نحو صنعة يتعلمها حتى لو أراد الذهاب الى المدرسة ، اذهب الى المدرسة لابأس مادام هذا على الأقل اجباريا ، فان استطعت بعد ذلك ان تنفق على نفسك بنفسك لكى تواصل التعليم فأهلا وسهلا وتكون اذن رجلا . هكذا كان أبى يقول لنا على الدوام ، ثم يؤكد أن الصنعة فى النهاية هى الأهم مهما تعلمت وصرت أفنديا : صنعة فى اليد أمان من الفقر هكذا قال الأولون .



(١٤)

عمــــتى الكلافــة

لى عمتان كبيرتان باقيتان على قيد الحياة : عمتى « نجية الكلاف » وعمتى « خديجة الكلاف » . وكل منهما ليست مجرد عمة ، فكل عمة هى أكثر من هذا بكثير ..

ياما ضمت القعدة فى مندرتنا كل أبناء عمتى « نجية الكلاف » وكل أبناء عمتى « خديجة الكلاف » ، فضلا عن أبناء عمومتى وماأكثرهم . لعمتى « خديجة الكلاف » أربعة أبناء كبار هم : « أحمد الجرف » و « شعبان الجرف » و « فايق افندى الجرف » و « ستات الجرف » . يفرح أبى كلما جاءوا لزيارتنا والجلوس معه قليلا . أما أبناء عمتى « نجية الكلاف » فانهم قبيله : ابنها « عبد العظيم الفقى » ، وابن ابنها « على عبد العظيم الفقى » ، وابنة ابنها « حميدة عبد العظيم » ، و « شلباية عبد العظيم » ، وابنتها ـــ اخت عبد العظيم ـــ « هانم الفقى » ، وابنتها الأخرى « تحفه الفقى » . كانوا أيضا يجيئون لزيارتنا ولكن على طريقة عجيبة ، فأحدهم يجيء فى الأول ، ثم يجيء بعده من يستعجله ، ثم يجيء من يستعجل الاثنين ، وهكذا الى إن يحضروا كلهم . وحينئذ تضيق دارنا وتصير فى لغط لانعرف ان كان احتفالا أم معركة ، خاصة أن لـ « تحفه الفقى » ابنة عمتى « نجية الكلاف » أربعة أبناء كبار مخنشرين هم « مغاورى » و « مرشدى » و « نفيسه » و « نعيمة » ، وكانوا أيضا يحضرون لتصديع رأس أبى بشكاواهم التى لاتنتهى من عمتى « نجية » ..

دار عمتى « نجية الكلاف » متاخمة لدارنا من الجانب الأيمن ، حيث يمكن ان نقفز السطح من دارنا الى دار عمتي الملاصقة لتصير بعد قفزة أخرى فى بيت عمتى « نجية » التى من فرط شهرتها فى البلدة استغنى الجميع عن اسم « نجية » واكتفوا بـ « الكلافة » ، فاذا قالوا : الكلافة ، فليسوا يقصدون عائلتنا بل يقصدون على وجه التحديد عمتى « نجية الكلافة » ..

مع ذلك فان الود الأكبر كان قائما بيننا وبين عمتى « خديجة » رغم أن دارها تبعد بضع حارات ، لكننا نختصرها ونعبر حائط الدار الخلفى القريب منا نوعا . عمتى « خديجة » وأبناؤها أسرع ناس يتواجدون فى دارنا . اذا استمعوا صياح أبى فى الدار أو فى الشارع قفزوا الجدار وحضروا لمعرفة السبب ، فان كانت مشادة بينه وبين أحد فانهم يأخذون له حقه على نحو طيب . ونادرا ماكان أبى يتدخل فى عراك بسببهم ، فهم على درجة كبيرة من الطيبة والأدب ، اذ ورثوا رقة عمتى « خديجة » وحسن أخلاقها ، فقد كانت هى الصغرى ، وقدر لها أن تعيش مع حدى فى مدينة الاسكندرية صيفا والقاهرة خريفا والأقصر شتاء . بيضاء هى شاهقة ، بمينة ، لها اكثر من لغد تحت ذقنها ، تمشى كالمحمل ، تتكلم بلهجة الأسياد وان تواضعت ، تخلط كلامها بألفاظ فصيحة ، وآيات وأحاديث ، بأمثلة شعبية لاحصر لها ، حكاياتها لاتنفد ، تكلم الرجال كأنها الأخشن ، والنساء كأنها الأشد أنوثة ..

أما عمتى « نجية الكلافة » فقد كان فيها سمار أبى . صوتها يشبه صوته الخالق الناطق ، نفس البحة ، نفس الانفلات لدى أى انفعال ، حيث تندمج فى زعيق خطابى هائل ، بكلمات كبيرة ، حتى ليخيل لمن يستمعها أن الأمر جد خطير ، فى حين أنه ربما كان تافها . يأتينا صوتها من أمام دارها قافزا سطح دار عمى واصلا الينا فى المندرة ، فيفك أبى تربيعة ساقيه ويبحث بقدميه عن الشبشب تحت الكنبة فى لهفة مذعورة ، يرتدى ثوبه ويسحب عصاه مندفعا . نندفع نحن خلفه الى أن يلف هو من الشارع العمومى ليصل الى دارها فى الحارة السد الملتوية

نكون نحن قد قفزنا السطح وصرنا فوق سطح دارنا نستطلع الخبر ، فما تكاد تشعر بنا حتى تنخرط فى الصياح بحماس اكثر ، حتى يلحق بها أبى ويسألها من فوره : « فيه إيه ياكلافة ؟ » . فتجيبه فى خطبة عويصة . ينبرى هو الآخر مزعقا زعيقا فيه توعد وتهديد بالويل . يلتم الناس ، يعودون به الى المندرة ، ثم ينتبه الجميع فى المندرة الى وجود « أبو سماعين » ، فيصيحون به كأنما لنسيان الأمر : « ولع الوابور ياأبو سماعين » ، فيشعل الوابور على الفور وتبدأ زردة الشاى ، ثم لاتلبث عمتى الكلافة أن تجىء متحاملة على عكازها لترضية أبى . أما عمتى « خديجة » فتكون أول الواصلين ..

ماأندر ماتزورنا عمتى « الكلافة » ، لكن وجودها قائم بيننا على الدوام وبشكل شديد الحدة . اذ هى تجلس على الدوام فوق مصطبة أمام دارها الواقعة على ناصية الحارة السد ، بجوارها المسجد ، باب الميضأة ملاصق للمصطبة ، لاتكف عن الصياح بصوتها المبحوح القريب من صوت الرجال . هى قصيرة القامة ، ضئيلة الجسم نسبيا ، هى وأبى فى سمرتهما وملامحهما أكثر شبها من أى أحد فى عائلتنا بصورة جدى الكبير المعلقة على حائط المندرة تنفضه أمى كل يوم بخرقة نظيفة هو وزجاج المصباح البللورى المتدلى من السقف بجنزير ورمانة تشدها أمى فيهبط المصباح فتغسل زجاجته الأنيقة الكبيرة وتعمر المصباح بالجاز ، تدفع الرمانة فيصعد المصباح نحو السقف فى ايقاع صوتى جميل ..

يعلم أبى أن صياح « الكلافة » لايعنى بالضرورة عراكا يستدعى نهوضه لاغاثتها . هو الوحيد الذى يستطيع تميز نبق العراك من صوتها ومن نوع الكلمات التى تقولها . أحيانا تنبه أمى قائلة : « باين عمتى الكلافة بتتخانق » ، ينصت أبى لصوتها الذى راح يزأر على ناصية الحارة وحده ، فبعد انصاتة سريعة يقول أبى أنها تزعق للعنزة التى أكلت قمحها المنشور ، أو لولد نجس وضوءها بماء قذر ، أو للجيران الذين استلفوا المحراث فلم يردوه ، أو لابنها الذى نرفزها بكلمة . صوتها أعلى صوت فى منطقة دارنا ، يغطى على صوت المؤذن بل على صوت خطيب

الجمعة ، يشوش على المصلين يلخبط غزلهم ، يلعنونها فى سرهم ، لايمنعهم من الجهر باللعنات الا اكتشافهم فجأة أن أبى هو الذى يقف على منبر الجمعة خطيبا . أبى نفسه كان يحس بالحرج ويتزعج ، غير أنه كان أشد جنونا منها ، لم يكن يتورع عن قطع الخطبة والخروج اليها ساحبا سيف المنبر ، يعبر فناء الميضأة ليصير أمامها ، يقترب منها صائحا بها : « إختشى بقى ياكلافة .. مش عارفين نصلى .. انتى إيه .. معندكيش إسلام ؟ » ، حينئذ ترفع « الكلافة » عكازها متأهبة للقتال ، غير أنها قبل أن تشرع فى لعن آباء الأبعد الانجاس تضع من يدها تندة فوق عينيها ناظرة فيه فتكتشف أنه أخوها ، مع ذلك لايكون لديها مانع من الاستمرار فى صياحها ، لكنها تراها فرصة لاظهار طيب أصلها ، وأنها من عائلة ذات تقاليد مقدسة ، فاذا هى تستدرك قائلة : « حاضر ياخويه .. حاضر » ، ثم يصعب عليها أن فمها سيغلق ، فتروح تستأنف قراءة ماكانت تقرأه من أوراد وصلوات لايعرف أحد كيف تبدأها أو كيف تنهيها ، يصعب على أبى كذلك أن يتركها محرجة بعد شخطته ، فى نفس الوقت يجب أن يظهر سيطرته على أخته ولو كانت أكبر منه سنا ، فاذا هو يميل عليها هامسا ببعض كلمات يسترضيها بها ، ثم يعود الى المسجد ليستأنف خطبة الجمعة من أول وجديد . يظل صوت « الكلافة » صامتا حتى قيام الصلاة ، وفى عز ركوع المصلين يتسلل شيئا فشيئا ثم لايلبث أن يعلو مشوشا على السور والفواتح والتحيات . حينئذ يكون ختام الصلاة معركة حامية بين أبى وعمتى « الكلافة » ، حيث يقف هذه المرة على ملأ من المصلين يوبخها توبيخا شديدا ، ويستنزل عليها اللعنات ، يطالبها بالكف عن أن تكون قاسية مع الناس ، ينذرها بأنها ستظل تكره فيها الخلق الى أن تلقى بنفسها فى جهنم الحمراء حيث تتلقى جزاء طبعها الفظ ..

ثم انه يتركها ويمشى ، لتنقطع الصلة بينها وبيننا أياما تقصر أو تطول . لكن أبى لايكاد يسمع صوتها من بعيد حتى يتمعن برهة كأنه يفكر بأذنيه ، فيأخذنا الانتباه معه وبعد برهة يفيدنا قائلا : « فيه طفل حدف طوبه على بطتها » . وفى لحظة معينة تراه ينتفض ويجرى اليها فنجرى وراءه لاغاثتها ..

على قدر ماكانت تفرحني زيارتي لدار عمتي « خديجة » كنت أشعر بشيء كالمهانة كلما زرت دار عمتي « الكلافة » ..

فى دار عمتي « خديجة » كنت أرى وسط الدار نظيفا . هذه قاعة إبنها « شعبان » . وهذه قاعة إبنها « أحمد » ، أما إبنها « فايق » فهو وكيل محام فى دسوق ، لكنه اذا جاء البلد كان أكثر أبهة من المحامى نفسه ، وأكثر منه لباقة ، يدخن بشراهة ، ويرمى السيجارة بعد انتصافها مباشرة ، نتفرج عليه كلنا بانبهار شديد ، يحاجج المشايخ والسياسيين وكل من هو غير وفدى ليثبت له بطلان آرائه وخطلها . أما إبنها « شعبان » فجندى فى الجهادية ، ومهنته فى الأصل صيد السمك ، عشقها فتعلمها فكسب منها ، خاطب لأخت خطيبة أخيه « أحمد » ، قاعته مغلقة على مايحوشه فيها من عفش للزواج ، عمتي « خديجة » تفتحها للضيوف لتفرجهم على مافيها ، احيانا لتفرجني أنا وحدى قائلة : « وآدى ياسيدى كذا وكذا » ، ثم تفاجئني بشيء من الصوف الجميل اسمه « الشرز » ، تلبسني اياه وتثنى أكامه الطويلة فيحتويني بالدفء والشكل الجميل ، تقول : « إبن عمتك استغنى عنه بعد أن ضاق عليه فخذه لك يدفئك » . قاعة إبن عمتي « أحمد » مفتوحة على الدوام مع أن فيها بضاعته ، اذ هو بائع سريح ، يبيع الأطباق الصينى والأكواب والصوانى النحاس والترابيع وعقود الفل والترتر والأستك والغوايش والمناديل والكيزان الصاج وفوق ذلك بعض أصناف البقالة يشتريها من البندر ويعبئها فى خرج وقفصين يضعهما على حمار يسافر الأسواق فى القرى المجاورة ، حتى بعد ان افتتح دكانا ظل يسرح فى الأسواق تاركا زوجه تبيع فى الدكان وهى عروس لاتزال . وكنت أجد فى نفسى الجرأة على فتح الصناديق مهما كانت محرزة ، وأن آخذ منها ما أشاء . لم تكن هى تنتظر حتى يلفت الشيء نظرى ، بل كثيرا ماتجيء لى بحلوى من أماكن خفية ، وبقايا طعام حلو ، تقول لى وهى تربت على ظهرى : « كل ياخويه » ، فأجدنى آكل فى شهية . وتقول لى : « أجيب لك تانى ؟ » ، فأقول : «الحمد لله » ، ولا تأمن أن تتركنى أعود

وحدى من الطريق الطويل ، بل تصعد السلم وتسقطنى فى الشارع برفق من فوق الجدار الخلفى ، لأنطلق عدوا الى بيتنا مباشرة .

أما دار عمتى « الكلافة » فان جسمى يقشعر كلما دخلتها . المرات القليلة التى دخلتها فيها كانت لأسباب ، فمرة مع أمى ، وأخرى مع أبى ، وثالثة لأعطى عمتى « الكلافة » طبقا من الكسكسى عليه فخذ بطة مما طبخناه يوم موسم ، وهى عادة يصر أبى عليها ، لكل أخت من أختيه نصيب فى مطايب موسمية حتى ولو كانت مليونيرة وهو شحاذ ، حتى ولو كان طبقا من الكسكسى وفخذ بطة .

كثيرا ماكنت ألعب مع العيال فى حارتها . يقودنا اللعب الى الوقوف بجوارها على المصطبة . تدفعنا عنها بالشتم لنا وللذين خلفونا . أتخلف عن العيال ، أريها نفسى ، تنظر فى طويلا فلا يبدو عليها أنها تعرفنى ، يداخلنى اليقين أنها لاتعرفنى الا وهى موجودة فى دارنا ، أما عند دارها فلا . فان حدث ودخلت دارها وجدتها قذرة غاية القذارة ، الدهليز متصل بالزريبة ولافرق بينهما فى شىء ، ورائحة الروث تختلط برائحة اللبن والقشدة ، فى السقف فتحة كبيرة لا يتساقط منها ضوء قدر مايتساقط من حطب وجلة ، على الحائط يتساند نحو الفتحة سلم من الخشب غير متماسك بعض درجاته مشبوكة من ناحية واحدة ..

ذات يوم كان إبن عمتى « شعبان » يساعدهم فى تطليع الزريبه . مهمته أن ينحت روث البهائم المتراكم على الأرض ، يملأ منه غلقانا ، تحملها « شلباية » و « حميدة » و « نفيسة » الى الخلاء فى كوم كبير ، حيث يجىء « مغاورى » و « مرشدى » و « على » أبناء خالهما فيحملون هذا الروث فى الأغبطة على ظهور الحمير الى الحقل لتسميد الأرض به . عند الغداء كنت معهم متعلقا بذيل « شعبان » إبن عمتى ، ورحت أتفرج عليهم حيث امتدت الطبلية والتف حولها مجموعة هائلة من الأيدى والأذرع المتطاولة المتداخلة تكاد تتناطح ، لاتعرف يد من هذه ولا ذراع من هذا ، وطبق المحشى من الكرنب يرفع ليمتلىء من جديد

عشرات المرات ، و « عبد العظيم » إبن عمتى « الكلافة » يبدو كالمذعور يريد ضمان ثلاث محشيات على الأقل من الطبق كله ، فيخالسهم ويطبق كفه على ثلاث محشيات يبرز منها واحدة فقط بين أصابعه ، ثم يدس كل ذلك فى فمه دفعة واحدة فيزلطة زلطا ثم يوحوح ويدمع من سخونة الأكل وحموه ، لفرط ارتباكه وقعت احدى اختلاساته فى حجرى ، فمال ليأخذها ، فنظر فى عينى لأول مرة فوجدنى أبحلق فيه مذهولا ، فلم يقل لى : « كل » ، بل قال لى وهو يفشخ حنكه مبتسما عن أسنان صفراء غليظة : « لمؤاخذة يالإبنى أصل العيال حيسرعونى » » .

فى ذلك اليوم تقريبا عرفت — لأول مرة — أن هذا ليس شقيق ذاك ، وأنهم ليسوا جميعا أبناء عمتى « الكلافة » . فـ « على » و « حميدة » و « شلباية » هم فقط أخوة اذ هم أبناء « عبد العظيم الفقى » إبن عمتى « الكلافة » . أما « مغاورى » و « مرشدى » و « نفيسة » و « نعيمة » فهم أيضا أخوة اذ هم أبناء « تحفة الفقى » إبنة عمتى « الكلافة » أيضا ، و « تحفة » هذه قد ماتت منذ زمن بعيد ، وزوجها أب أبنائها الأربعة قد مات هو الآخر منذ زمن بعيد ، وأن عمتى « الكلافة » أخذتهم وربتهم فصاروا يخدمون فى أرضها كأبناء للدار ، وأصبح خالهم « عبد العظيم الفقى » خالا وأبا وسيدا للدار بعد موت أبيه . عرفت أيضا أن لعمتى « الكلافة » ابنة كبرى اسمها « هانم الفقى » متزوجة من ابن عم لها نصف شيخ ونصف فلاح يدعى الشيخ « عبد المعبود الفقى » ولها منه رجال متزوجون وعرائس كالورد ، وحينما عرفت هذا تذكرت أننى كثيرا ماكنت أراها تستوقف أبى فى الشارع فتسلم عليه وتحب على يده قائلة : « إزيك ياخال » ، وكان أبى يربت على ظهرها قائلا : « إزيك انتى ياهانم وازى العيال » ، ثم ينصرف كل منهما الى حالع كأن شيئا لم يكن ! .

« مغاورى » ضخم الجثة كالباب .. يشتغل كحمار ، لكنه اذا حرن على الشغل يلا السلامة . يدخل المسجد لا ليصلى بل لينام فيه حتى تتكسر ضلوع

الأرض ، ثم يذهب خاله « عبد العظيم » ليأتى به ، يشترى له دخانا وجلبابا ويعطيه بعض قروش ، يضع أمامه سفط العيش فيأتى على كل مافيه مع طاجن لبن رائب . لاأحد يستكثر عليه ذلك فانه يقوم بشغل الدار كله تقريبا ، مع ذلك لايرى القرش الا اذ حزن ، أما اذا اشتكى لأبى من سته الكلافة وقرعها أبى بكلمتين فانها تنهال على « مغاورى » شتما وتوبيخا يستمر أسبوعا على الأقل ، لأنها كلما رأته تذكره بأنها لوربت كلبا لطمر فيه وعف عن شكواها ، فى حين لايكف « مغاورى » عن الضحك ، ضحكته تشبه ضحكة « أبو سماعين » تماما ، اذ أنه بارع فى تقليدها ، يزم شفتيه عند الضحك حتى لكأنها شفتا « أبو سماعين » وكأنه نفس الفم : « هو هو ..و ..و ..ه » . تغتاظ عمتى « الكلافة » وتصرخ فيه : « بطل بقى الضحكة المهببة دى .. داهية تسم بدنك .. ماانت تلاقيك زيه .. طالع زيه .. نفسك تعيش صايع وضايع » ، فيعيد الضحكة من جديد أكثر عمقا : هو هو ..و ..و ..ه » . ولو كان أبى حاضرا وضحكها أمامه فان أبى يسلقه بنظرة وبكلمة واحدة : « تأدب ياولد » ، فيسكت فى الحال ، فأحس أنا أن أبى هو الآخر يكره هذه الضحكة المليئة باللامبالاة والسماجة وقلة الذوق ، لهذا فانه لايكتفى بزجره بل يصيح فيه بعد برهة : « يلا غور من قدامى جاك بلا » ، فيقوم « مغاورى » بالفعل الى ركن بعيد ، فلا يلبث أبى أن يصيح كأنه يريد أن يصالحه : « ولع الوابور على الشاى » .

مسموح لـ « مغاورى » بالتجول فى دارنا ، فهو فيها على الدوام ، يساعدنا ، يذهب بالطحين الى الماكينة ويعود به مطحونا ، يقضى لأبى الطلبات والمشاوير البعيدة ورغم أن أمى تكاد تكون أصغر منه سنا فانه يناديها قائلا : « يامرات خال » ، ولا يرفع عينيه فى وجهها أبدا ، ليس فى فمه سوى كلمة واحدة : « حاضر » . يتجسس دائما على ملابس أبى الصوفية التى يلاحظ أن أبى يهجرها قليلا ، لديه تاريخ دقيق لكل جلباب ، متى جاء وكيف والاحتفال بشرائه ومن الذى فصل والاحتفال باستلامه وفى كم مناسبة وكم حفل وكم سفرية

لبسه فيها أبى ، ومن أى مكان أكلته العته وفى أى موضع نقرته نار السيجارة وما اذا كان الترزى قد قلب لأبى الثوب على الوجه الداخلى عند تجديده أم اكتفى بتغيير الأقطنة فحسب ، يذكر أمى دائما بالجلباب الفلانى والجلباب الفلانى أين ذهب . تكون أمى محتفظة بالجلباب ، لكنها تظل تتناسى ناظرة الى أبى نظرة ذات معنى حتى يقول لها قولته المعتادة : « اذا كانت تنفعه إديها له » ، فتعطيها أمى له ، وحين يرى أبى الجلباب على جسد « مغاورى » بعدها فانه يثور ويقول لأمى : « مين قال لك تديها له ؟ .. دى لسه فيها لبسة ياوليه ! » ، لكنه يعود فيقول : « زى بعضه بقى .. نصيبه » . لايزعل « مغاورى » من أبى ، ولا من أى أحد ، بل عمرى مارأيته زعلانا قط ، انما هو على الدوام يزم شفتيه ويضحك ضحكة « أبوسماعين » الشهيرة ..

يتصادف أن يدخل « أبوسماعين » فى تلك اللحظة . يتضايق أبى لأول وهلة ، يقول لمغاورى فى شىء كالود : « افتكرنا القط جه ينط » ، فلا يعلق « أبوسماعين » بغير ضحكته الشهيرة يطلقها فيما هو متجه الى ركنه المعتاد فى مندرتنا على الكنبة المقابلة للكنبة التى يجلس فوقها أبى ، حيث يتقرفص . أما أبى فلا يلبث أن يداخله قليل من الابتهاج يحاول اخفاءه مع أنه فى عينيه ، أنا وحدى أحسه ، لأننى أعرف أن « أبوسماعين » ربما يسرب الى أبى عدساية أفيون صغيرة من تحت ترابيزة الوسط حيث يتلقفها أبى ويدسها فى فمة خلسة . حيث يوجد « أبوسماعين » لا أحد غيره يتولى سلطنة الشاى ، يقدم الكوب لأبى قائلا : « الشاى ياعبد الفتاح بيه » ، ولمغاورى قائلا : « الشاى ياسى مغاورى » . يرد أبى محرجا من لفظ البكوية الذى لم يعد فى الواقع يستحقه اليوم : « طب حطه قدامى » . ويرد مغاورى : « طب ياسيدى من يد مانعدمها » . ثم يتصادف أيضا أن تدخل عمتى « خديجة » تجر نفسها لاهثة : « سا الخير ياخويه » ، وتجلس على طرف الكنبة جوار الباب . يقول أبى : مسا النور ياخديجة » ، ثم يمد ساقيه على ترابيزة الوسط واحدة فى اتجاه عمتى « خديجة » والأخرى فى اتجاه « مغاورى » ، حيث يتناول كل منهما ساقا ويروح يدعك فيها مركزا الدعك بين

المفاصل ، وأبى يتلذذ من دعك عمتى « خديجة » ، فيداها رخصتان وأصابعها طويلة مشبعة بالدفء تضخ حنانا ، تلك كانت ميزة فى عمتى « خديجة » بوجه عام ، اذ ما تكاد تلمس أحدا أو يلمسها أحد حتى يحس برغبة دافقة فى أن يرتمى فى حضنها ، ذلك الحضن العريض الذى يخيل الى أنه يتسع للعالم كله . أما أصابع « مغاورى » فانها كعشرة من المسامير الحدادى ، تخربش ساق أبى تجعله يصرخ كل حين بفزع : « ياجدع ماتبقاش حيوان » . و « مغاورى » يشد وجهه الغليظ كالدربكة ويزم شفتيه الغليظتين ضاحكا ضحكة « أبوسماعين » «الشهيرة» هو هو هو..و.. «» وعمتى «خديجة» تحدجه من تحت الى تحت بنظرة استنكار مشوبة بالأسف وغيظ مشوب بالحنية ، تنهيها قائلة : « جاك سد بالك » ثم تعدل وجهها الملغد ذى الملامح الطفولية ، فتنجاب عن صفحتيه سحب الدماء . يسرح أبى قليلا ، يسرح الجميع تبعا لذلك ، يعم صمت أنيس لبرهة يتخللها صوت الوابور يون والماء يغلى مزغردا فى البراض ، واذا بالضحكة الشهيرة تقطع علينا الصمت الجميل فجأة ، خنفاء ذلك الخنف اللطيف المتفرد ، الذى يعطى الضحكة شخصيتها الحقيقية ، فتضحك لها فى الحال اذ هى صادرة هذه المرة من « أبوسماعين » نفسه أطلقها معبرا عن ابتهاجه المفاجىء بمنظر الشاى وهو يفرز رائحته وشمخته ثم وهو يخر من بزبوز البراض فى الكوب الصاج محدثا نغما جميلا ورغوة يصفها « أبوسماعين » بأنها مخملية ، وستة الأفيون تحت لسانه تكون قد غذت لعابه بجفاف يستلذه ، ويطلب له الشاى والتدخين بشراهة . وحيث تنتهى الضحكة لتتواصل من جديد فى نفس طويل غير ممل يصيح فجأة ودون سابق تمهيد : « يسقط مصطفى الحداد » ، ثم ينكمش على نفسه دافنا رقبته فى كتفيه علامة الخوف من ضربة قد يوجهها اليه العمدة وهو بعيد . نضحك كلنا لهذه الجرأة المفاجئة ، يستطرد « أبوسماعين » مغنيا على غير العادة مقلدا استغاثة الفجر : « نجار خطف حداد .. دقة وعمله شاكوش » . فنضحك فى نزق عال ، ويبدو على أبى أنه قد أعجب بهذا الرأى . يشفط « أبو سماعين » الشاى متلذذا ويميل برأسه ناحية أبى ليسأله نفس السؤال ربما

للمرة المائة ، فى كل مرة يسأل بنفس البراءة كأنه يسأل لأول مرة: «لكن الحاج مصطفى الحداد العمدة كان عايزك ليه ياعبد الفتاح بيه يوم مابعت لك الفجر !؟ » . الأعجب أن أبى هو الآخر يرد عليه كأنه يرد لأول مرة ، بنفس الحماس ، فيحكى كيف أنه لبس ثيابه وصلى الفجر ثم مضى الى دار الحاج مصطفى الحداد يستطلع الخبر ، فالحاج مصطفى الحداد من أصدقائه القدامى وحين يطلبه فى لحظة كهذه فمعنى ذلك أنه تعرض لأمر جلل وعليه فليذهب اليه من فوره ، فما أن دخل أبى عليه فى حجرة الجلوس حتى وجد رهطا من علية القوم عرف أنهم جاءوا متخاصمين ، وجىء بالقهوة لأبى ثم بادره الحاج مصطفى الحداد قائلا : ياعبد الفتاح افندى ياكلاف .. مارأيك فى كذا وكذا ؟ ثم روى له موضوع الخصومة القائمة بين هؤلاء الجالسين دون أن يصرح بأسمائهم ، وأفلح فى روايتها فاذا هى شىء لايستحق الخصومة أو لايستحقها الى هذا الحد ، قال أبى هذا بكثير من الأسف والاشمئزاز ، ثم أردف قائلا : ولكن لماذا طلبتنى أنا فى هذه اللحظة الحرجة من الليل ؟ فقال الحاج مصطفى الحداد : لكى تعطى ردا اسكندرانيا .. ان خصومتهم فى نظرى تستحق واحدة اسكندرانية ، وقد بحثت فيمن يصلح لهذه المهمة فلم أجد من هو أجدر منك بسحبها من الأنف باعتبارك اسكندرانيا أصيلا ، وحينئذ نظر أبى اليه مذهولا لبرهة طويلة يتأمل خلالها وجه العمدة فى استنكار ، ولم يجد مفرا من أن يسحبها بالفعل مجلجلة من أنفه ، لكنه سحبها على العمدة بأن قال فى نهايتها : « حنبخل عليك بشخرة ؟ دا أنت مقامك عندنا شخر للصبح » ، ثم ظل فى بيت العمدة حتى الصباح يضحك ويلعب الطاولة ، ثم ان هذه باتت عادة عند العمدة ، فكلما كان جالسا مع أبى وجاء من يعرض عليه خصومة تافهة ينظر الى أبى قائلا بلهجة ذات معنى : « إيه رأيك ياعبد الفتاح افندى فى الشكوى دى ؟ » ، فيشير أبى — مجرد الاشارة — الى أنفه ، فيستدير العمدة ناظرا للمتخاصمين : « سامعين ؟ » ، وبهذه الطريقة ينفض الموضوع ! ..

اذ ينتهى أبى من هذه الحكاية الضاحكة يعاجله « أبوسماعين » قائلا : « لكن بالمناسبة إية رأيك فى الحاج مصطفى الحداد كعمدة ياعبد الفتاح بيه ؟ » ، فيخالسنا أبى النظر معتقلا ابتسامة خبيثة طفولية ، ثم يشير الى أنفه . فيبدو على « أبوسماعين » الأنبساط الشديد ، ويصيح : « مش كده برضه » .. هو فعلا لازم ينشخر له ! » ويطرق الأرض بكوب الشاى فى تصميم كأنه قد قرر أن يقلب للحاج مصطفى الحداد ظهر المجن ..

تناديني أمى من وراء باب الدهليز . أذهب اليها . تشير طالبة أذنى . أراها قريبة الشبه جدا من عمتى « خديجة » فى كل شيء ، حتى فى شكلها ولكن بدون لغد ، انما رقبتها الطويلة مبرومة مثل كوز العسل مطوقة بدوائر دوائر فوق بعضها حتى مشارف ذقنها المسحوب ممتدا الى الأمام ، وجهها أحمر فيه بعض نمش كحبات العدس ، شعرها أشقر مثل شعر عمتى « خديجة » لكنه يحتفظ بلمعته الرصينة . أرتمى فى حضنها ، تهمس فى أذنى قائلة لى أن أذهب لعم « أبوسماعين » وأهمس فى أذنه قائلا : « أمى تقول لك اخلع هذا الجلباب لكى تخيط لك رقعة فيه عند الكتف » ، فأحس بسعادة غامرة وأقول لها : « طيب » ، وأعود الى المندرة جريا ، فلا أكاد أصل حتى أصيح بصوت عال بما قالته أمى . فيضحك الجميع ، وتصيح أمى من الدهاليز مكسوفة ، فى صوتها بحة آسرة : « داهية تكسفك واد » . ويبدو على « أبوسماعين » أنه لم يسمع شيئا . أما أبى فينظر له نظرة جانبية فيها دهشة مصطنعة كأنه لم ير الجلباب من قبل . تخفض عمتى « خديجة » وجهها وتعود سحب الدماء فتهب على صفحتيه من جديد ثم تبقى محتبسة . يشوح « مغاورى » قائلا : « هى الجلابية فيها حاجة تتخيط ؟ داحنا يمكن مانعرفش نقلعها له ! دى لازقة فى جتته ! نسلخها بقى ! أحسن طريقة نبل الحتة المقطوعة صمغ ونلزقها على كتفه ! بس الخيط أرخص من الصمغ ! خلاص بقى تخيطها له فى كتفه والسلام ! » ، ثم يندفع ضاحكا ضحكة « أبوسماعين » الشهيرة ، يبالغ فى مطها وتعميق صوتها فى الحنجرة دلالة على شدة الانبساط ، يصير منظره مضحكا الا أننا مع ذلك لا نضحك حتى

لانشجعه ، يعبر « أبوسماعين » عن تسخيفنا فيطلق ضحكته ساخرا من « مغاورى » ومنا معا ، يتبارى الأثنان فى اطلاق نفس الضحكة ونحن نضطر الى الضحك منهما معا ، لكن العجيب أن ضحكة « مغاورى » تهزم ضحكة « أبوسماعين » وتبتلعها ..

مرة أخرى تناديني أمي فأجرى اليها . تعطيني جلبابا قديما نظيفا مطبقا وفيه رائحة الدولاب . ماأن أراه حتى أتذكر أياما كثيرة تساقطت من فوق كتف أبى عبر هذا الثوب ، وقد نجحت يد أمي فى غسل آثار الأيام عنه وها هو ذا لايزال عليه القيمة ومازال فى طوقه متسع لجسد آخر . تعود فتأخذه منى وتقلب فيه بدقة تبحث عن فك تخيطه أو رقعة تداريها ، اتأملها : أتكون عمتى « خديجة » قد طبعتها بطابعها أم أن أبى قد وضع فيها دماء عمتى الحبيبة ! هم يقولون أن عمتى « خديجة » هى التى استقبلت أمي أيام كانت عروسا صغيرة ، وتكفلت بتعليمها فنون الطبخ والغسل والتنظيف والاستعداد للرجل ، والرجل هو أبى وليس له اسم آخر فى حديث يدور بينهما ، علمتها طبائعه وخصاله ، وتولت عنه عقابها على ماقد يقع منها من أخطاء دون أن تعطى « الرجل » علما بشيء ، لأن عدم افشاء السر يعطى لعمتى فرصة تضخيم شخصية أبى وتضخيم عقابه فيما لو علم . مهما يكن من أمر فان أمي نسخة طبق الأصل من عمتى « خديجة » ..

أحمل جلباب أبى القديم الى « أبوسماعين » المتكور فى ركنه ، أعطيه له . ينظر لى نظرة امتنان خفية ، يقول متصنعا عدم الاهتمام : « طب حطها جنبى » . أترك الثوب بجواره وأرتد مكسوفا . كالثعلب الماكر. ينهى « مغاورى » دعك ساق أبى وينهض ، يتسلل نحو الجلباب ، ينقض عليه فجأة ، يفرده ويقلب فيه بامعان ، تطل من عينيه نظرة شيطانية ، يردد : « دا مايجيش على قده ! .. دا واسع عليك ياأبوسماعين .. مايستحملكش ! » . وماندرى الا وقد ارتدى الثوب وراح يلف حول نفسه فاذا الجلباب متسق عليه تماما وله زهوه . تصيبنى فجيعة ، أقلب البصر بينهم كأننى استنجد بهم لانقاذ الجلباب . وجه أبى يقول

أنه موافق على ماحدث وان كان يتقلص محاولا الايهام بأنه مستاء لذلك . وجه عمتى « خديجة » غارق فى سحب الدماء يرسل نظرة تحتية تحتج بشدة ، تتصعب مصمصمة بشفتيها : « جاك سد بالك » . وجه « مغاورى » جامد كجلد الدربكة فى عينيه نذالة داكنة اللون تقول أن ماانسدل على جسده يستحيل خلعه . ها هو يروح ويجيء مستعرضا طول الثوب ووسعه كأنه فى دكان الترزى لحظة استلام ثوب جديد . وجه « أبوسماعين » ينظر الى الثوب وفى عينيه نظرة أحار فى تفسيرها ، أرى فيها حزنا شديد الأسف على ثوب كهذا يضيع منه هكذا ، أرى كذلك فرحا شديدا باتساق الثوب على جسد « مغاورى » ، لحظة إخال أن الدموع ستطفر من عينيه يصيح هو مطلقا ضحكته الشهيرة : « هو هو هو ..و ..هـ » ، ثم يضيف : « آخر تمام عليك وحق جاه النبى » . يتبجح « مغاورى » قائلا : « بجد ياأبوسماعين ؟ » . فيقول فى صدق حقيقى : « مبروك عليك ياولد » . لايتكلم أبى . تجيء أمى من الدهليز منفوشة كدجاجة كانت تبيض ، تطل من عينيها نظرة فزعة مهزارة معا ، تصيح : « طب اقلع اقلع .. هو انت ايه ؟ طربة ماتردش ميت ؟ .. ماانت لسه واخد واحد من كام يوم ... خلى فى قلبك رحمة » . يصيح « أبوسماعين » فيما لا نعرف ان كان يمزح أم هو جاد : « لا والله ماهو قالع .. وحق جلال الله مايقلع .. خلاص .. طلع الثوب من نصيبه وأنا لاأرضى أن يخلعه بعد ما لبسه وجاء على قده » . يصيح « مغاورى » بضحكته . يرد عليه « أبوسماعين » بنفس الضحكة . يتجه « مغاورى » نحو الباب قائلا : « أما اجربه كده » ثم يختفى ، فنعرف أننا لن نراه الا بعد بضعة أيام ..

بعد خروجه مباشرة يقول « أبوسماعين » معلقا : « الواد الطور ده مش ناوى يتجوز بقى ؟! » ، فلا يرد عليه أحد ، اذ أنه يومىء الى موضوع سبق الكلام فيه كثيرا بدون أى نتيجة فلم يعد أحد يفتحه بعد ذلك ، بل ان الكلام فيه بات شائكا وغير مستحب ! . ذلك أن عمتى « الكلافة » منذ سنوات

طويلة تزمع تزويجه من « شلباية » بنت خاله « عبد العظيم الفقى » ، ولقد شاخ هو ، وتعنست هى ، وتضخم جسدها فأصبحت كالغولة لكنها مثيو ، كل الناس يميلون الى المزاح معها واستدرار شتائمها ، كلهم يموتون فى كلمة من لسانها أو نظرة من عينيها الا « مغاورى » فانه لم يعد يحس بها مطلقا ويبدو أنه لايحس بغيرها . البنت « شلباية » أنثى بمعنى الكلمة ، ورجل بمعنى الكلمة أيضا ! أنثى تعرف متى تعتصم بحياء الأنثى ، ومتى تخلع البرقع وتأخذ حقها بالذراع كشهامة الرجال ، منذ خطبتها جدتها « الكلافة » لابن عمتها « مغاورى » وهى تعتبر نفسها عروسا مع ايقاف التنفيذ لأجل غير مسمى ، ومن طول الأجل لم يعد يهمها الزواج فى كثير أو قليل ، كانت تعرف أن لا مفر من زواجها منه ، فأين تروح من جدتها ؟! وكانت تعرف ألا طريق لها نحو الرجال مهما تحزبت بها الامور ، فأين تروح من أبى وهى التى ان قابلته صدفة فى حارة انزوت فى أى باب ودارت نفسها حتى يختفى . كانت تحمل شبها كبيرا من أبى ومن جدتها ، وكانت هى الأخرى تفخر بين الناس بأنها من أسرة تصادق أفندينا . كانت لاتكره « مغاورى » وفى نفس الوقت لاتحبه ، فأصبحت كما يقول أبى فى أمسيات المندرة تتلذذ بالتأجيل لعل فيه الخلاص بالنسبة لها . وتقول عمتى « خديجة » أن البنت ياقلب أمها باتت لاتطيق منظر هذا الولد ، وأن كثرة تأجيل الزواج قست قلبها وأنستها أنها امرأة من الأصل ، والولد لانخوة فيه ولا حرارة ، لايفكر فى شراء أى شيء أو جلب نقود من أى عمل آخر ، لايتلحلح ، ينتظر أن تقوم جدته المسكينة بتجهيز كل شيء وهو يركب على الجاهز ، البنت أجدع منه ، تستطيع التجهيز لنفسها بنفسها ، لكن هذا لايرضيها ، فليس « مغاورى » هو الذى تقدم من أجله هذه التضحية ، « شلباية » تريد رجلا يعتمد عليه فى زنقة الأيام . وأعرف من كلام نسوان حارتنا مع أمى حين يجتمعن فى الدويرة للخبيز فى فرننا ، أن « شلباية » نسيت أمر الزواج منذ تزوجت التجارة وذاقت حلاوتها فوجدتها أحلى من مليون رجل كمغاورى ، فهى ماشاء الله شاطره ، تتاجر فى الحبوب والمعيز والدجاج ، والطرح والمناديل ، تتاجر حتى فى النقود ، اذ تقرض الناس

نقودا على ذمة محصول بكمبيالات تصرفها مضاعفة عند الحصاد محصولا تختزنه وتبيعه بعد ذلك بثمن أغلى ، أصبحت ذات رأسمال كبير ، « الكلافة » تعرف ذلك وتشجعها وتقترض منها أحيانا ومرغمة ترد لها القرض كما الآخرين تماما ، « مغاورى » هو الآخر كثيرا ما يقترض منها ثمن ورقة دخان وقد تعود ألا يرده وتعودت ألا تسأله كأنها تلهيه عنها بأى ثمن ..

أجارنا الله من « مرشدى » شقيق « مغاورى » ، ملعون ، استعنت عليه بالله هكذا تقول أمى عنه دائما . يبدو طيبا غلبانا لكنه فى الواقع لئيم جدا . يبدو أيضا عبيطا وهو مخزن خبث . طويل كالناف وقدمه طويلة فكأنه المحراث وقد صلبت قامته . رفيع لكنه صلب . يتراهن على حمل الناف والمحراث معا بأسنانه من الأرض والنهوض بهما واقفا . مدمن مراهنات ، يتراهن على أى شىء وبأى شىء ، وليس فى فمه سوى كلمة : تراهنى ؟ .. يشرب صندوقا كاملا من ذلك الذى يسمونه بالكازوزه ، يشرب كيلو شاى مطبوخا فى برميل ، يأكل فدانا من البطيخ والشمام ، يأكل — أحيانا — الغائط الناشف ، شريطة أن يكون ناشفا والا فضت المراهنة ! . أشهر مراهناته تلك التى على مص مخزن من القصب ، وبالفعل مصه كله فى ثلاث ليال ونهار لم يكن يكف خلالها عن المص الا ريثما يذهب للكنيف ويفرغ بولته ويعود ، ويقال أنهم كانوا ينتهزون فرصة غيابه للحظات فيغذون المخزن بلبشتين أو ثلاث من القصب ..

دماغه صغيرة ووجهه يشبه القلقاسة المتغضنة . مندهش على الدوام تتكرمش جبهته فى خطوط متصاعدة تحت طاقيته الصوف المزينة من الحواف الحائلة اللون . نظراته سطحية لكنها عميقة القلق . على العكس من أخيه « مغاورى » لايحب قعدة الدكاكين لشرب الشاى ، وان جلس فلسبب ، لايدفع اشتراكا فى سلطنة الشاى لكن اذا عزمت عليه بكوب من شاى الدور الثالث فانه يشربه فى الحال ويرد الكوب كأن شيئا لم يكن دون كلمة شكر بل ربما اعترض على مساحة الشاى . خنيس كما تقول عنه عمتى « خديجة » . شيلته واطية كما يصفه

أبى ، إذ يرفع حاجبيه من تحت جبين مشخن بالانحناء ، فتصعد من عينيه نظرة بلهاء ومغيظة فيبدو كأنه لايعجبه منظرك . كثيرا مايرى أبى مقبلا نحو مكان يجلس هو فيه ، فينتفض الجالسون كلهم ويبين عليهم الترحيب الا هو ، يتململ كالقنفذ ناظرا الى أبى كأنه لايعرفه ، مع أنه ربما يكون قد طعم من يد أبى منذ برهة سابقة ، يشخط فيه مغيظا : « اتعدل ياحيوان » ، فيعتدل على الفور ضاحكا ، قد يصفعه أبى أو يزغده فى جنبه بسن العصا أو ربما يتهال عليه ضربا بها ، فلا يتوجع أبدا ، كل ما يفعله يصيح بما يشبه بكاء الصبية الشائخين : « معلهش والنبى ياخال » . فى معظم الأحيان كان أبى يتجاهله فيسلم على كل الموجودين ماعداه ..

فى مرات كثيرة يقابلنى فى شارع بعيد وتبقى عينى فى عينيه فلا يبدو عليه أنه يعرفنى . وفى مرات كثيرة كان العيال فى حارة الجرانه يزنقوننى وينهالون على ضربا وتشليتا وتمزيق ثياب ، جزاء شتمة شتمتها لأحدهم أو طوبة قذفته بها فى حارتنا ذات يوم يكون « مرشدى » بالصدفة مارا أو جالسا ، فاذا به يقف ويتفرج علينا ، ويرانى مهانا ، وأضطر الى الصياح به : « حوشنى يامرشدى » ، لكنه ببرودة ينصرف . أذهب فأشكوه لأبى ، فيضربنى من غيظه ..

« مرشدى » هو المسئول عن الرى فى دار عمتى « الكلافة » ، وعن نقل السباخ ، فلا تجرؤ بهيمة على المراوغة ، ولا يجرؤ ترس ساقية على العطل . كل البهائم تخشاه وترتعش من قسوة قلبه فى لوى أعناقها ونخسها وضربها بفرع شائك . كذلك كل السواقى تعمل حسابا — وهى الجماد — لقدرته فى ارغامها على الدوران ولو بثلاث أسنان فقط من ترس الساقية . ذو شهرة كبيرة فى هذه الناحية ، يستدعيه الناس لشد حزام جمل متكبر صلف ، لكسر أنف بغلة جامحة يدمى ظهرها ، لشد بهيمة سقطت فى بئر ، ويعتقد الجميع أنه حين يركب الحمار سارحا أو عائدا فان الحمار يتراقص بفهلوة لاقناعه بأنه غير متضرر من جسده حتى يكف أذاه عنه ..

مغرم هو بالخوض فى المصارف لا لتطهيرها بل لتعكيرها ، يسد عليها بعقالات من الطين يضعها بصبر عجيب فيصنع بذلك أحواضا من الماء العكر ليتسنى له أن يمسك كبريات الأسماك يدا بيد ، وقد حظى بشهرة فائقة فى البلدة ، حتى أنه باع ذات يوم سمكة فى حجم صبى ، لكنه فى العادة كان يشوى على شاطىء المصرف أطايب ما اصطادت يداه ثم يقرقزه ويعود بالباقى فيبيعه فى أماكن معلومة بأسعار يحددها هو فلا ينزل عنها مليما .

ذهب مرة يستقبل عمتى « الكلافة » ـــ جدته ـــ عند محطة القطار التى تبعد عن بلدتنا خمسة كيلومترات . أدركه المطر فى الطريق وظل يهطل فوقه حتى أغرقه .. وكانت عمتى « الكلافه » قد وصلت الى المحطة بالفعل منذ ساعات وأرسلت مع أحد الراكبين تطلب ادراكها بالركوبة حيث أنها متأخرة ـــ أى قد ألم بها مرض مفاجىء ـــ على المحطة . لهذا كان الحمار يدرك توتر « مرشدى » فاندفع يمشى مسرعا فوق الزلق دون أدنى نهيق أو تلكؤ . قرب المحطة فوجىء « مرشدى » بشبح منحن فوق عكاز يركض فى الوحل مقبل تحت مظلة المطر المنهمر ، فلما حاذاها بالركوبة عرفها ، فشخط فيها بغضب : « بقى كده ياولية ! .. تخضينى وتجيبنى على ملا وشى فى المطرة .. والآخر تطلعى مش عيانة ! .. طب والله مانى موصلك ! » ، ثم لوى رقبة الحمار واستدار عائدا وهى تصيح خلفه بأعلى صوت من اللعنات . فى منتصف الطريق ـــ يحكى هو ـــ صعبت عليه فعاد اليها بالركوبة وأركبها وراءه ، ومضى كلاهما يصيح طوال الطريق مغطيا على صوت المطر ، هو يسب ديك المطر والدنيا وجميع الذين تسافر اليهم جدته ، وهى تستنزل اللعنات عليه وعلى اليوم الذى لمته فيه وربته وسمنته ! ..

كل بضعة شهور يذاع خبر زواجه ، من أرملة فى عزبة العلمين ، أوثيب فى عزبة العبيد ، أو بنت سيئة السمعة من عزبة صباح ، وليس من اشاعة تشير الى فتاة فى وسط البلد . فى كل إشاعة تذهب عمتى « الكلافة » الى أحد الأماكن متوكئة على طفل وعكاز ، تقيم سرادقا من الصياح والعراك ، تلعن آباء وتقذف

شرف أمهات ، وتنتهك أسرار عائلات تدعى أنها عائلات وهى ليست سوى لمامة تريد خطف أولاد الناس . يلف « مرشدى » على معظم الدكاكين والمصاطب ، يقول فى كل مجلس — بشىء من الاحتجاج المنطوى على فخر وغبطة — أن الولية تفرج عليه خلق الله وتجر له المشاكل مع الناس ، والله يجازى ولاد الحرام اللى بيوزوها ويملوا دماغها ! ..

لطالما الحت عليه عمتى « الكلافة » بأنها ستزوجه من « حميدة » بنت خاله « عبد العظيم الفقى » ، متناسية مأساة شقيقتها « شلباية » مع شقيقه « مغاورى». لكنه يقول ساخرا أن مسألة أن يتزوج هو من بنت خاله هذه خرافة مثل خرافة أخيه « مغاورى » ، بل ان مسالة ان يتزوج أصلا فى حياة جدته أمر يشك فيه . يهز يده حول أذنه صائحا بحاجبين مرتفعين من الدهشة : « الوليه دى فاكرانى أهبل برياله ؟ » ، ثم يشوح فى وجهها : « ياوليه فضك من السيره دى بقى حرام عليكى » ، وهى تبسبس قائلة : « أصلك منتاش وش نعمة » . يتصادف أن يكون « أبوسماعين » خارجا من المسجد لحظتها ، فيتوقف لدى الزعيق — شأن أى واحد فى بلدتنا — لكنه يصيح ساخرا : « حتقوم حرب ولا دى مجرد مفاوضات ! » . يقول « مرشدى » كأنه يستبعده : « مفاوضات ياأبوسماعين .. مفاوضات » . يرد « أبوسماعين » وقد وجد فرصة للمزاح : « لعل بنودها وتوصياتها .. » . تقاطعه عمتى « الكلافة » بجفاء غريب : « اطلع انت منها ياأبوسماعين محدش انتدبك » . يطلق « أبوسماعين » ضحكته الشهيرة ثم يمضى ، ويمضى خلفه « مرشدى » الى حيث لايعرف أحد ، لكنهما لابد أن ينفصلا بعد خطوة أو خطوتين ..

الوحيدة التى تزوجت من أبناء « تحفة » بنت عمتى « الكلافة » هى « نفيسة » ، التى كانت منكسرة وغلبانة ، وكانت أنثى لاضريب لها فى العائلة الا أنها عوراء . يغازلها كل الناس علنا ، ربما كانت الوحيدة بين أبناء بلدتنا يرى الناس كأن من حقهم مغازلتها على المكشوف دون حرج كأنها مباحة للجميع ، لكن

الشيء الذى يثق منه الجميع أن أحدا لن يحصل منها على أى شيء رغم مايبدو عليها من سهولة وسيولة ، فأى غزل فيها مهما كان كلامه مكشوفا فانه لايخدش حياءها ، لايجعلها تهتز أو ترتبك . أما اذا تجرأ واحد وكشف عن نية سيئة فانها — دون حرج كذلك — تفرج عليه طوب الأرض ، وتجعل من لايشترى يتفرج ، وتكون فرصة لأن يسترضيها الجميع على حساب الفاعل ..

تسرح فى حقول الوسية أحيانا مع الأنفار بسبعة قروش فى اليوم ، تنقى اللطع ، تنقى الأرز ، تجمع القطن . فى غير مواسم الشغل تساعد بعض الاسر القريبة فى غسيل قمح أو نقل طحين أو ربما تطاليع زريبة ، تملأ أدوار الماء من الطلمبة البعيدة فى العصارى حيث ينتظرها جموع من المعجبين . على أن الجميع قد أصيبوا بالاحباط يوم خطبها أبى لواحد من أبناء عمومتى كان ابن ليل طالع فى المقدر جديد ، استطاع أن يجرب شطارته على أبناء البلدة ففى ظرف شهور قليلة منع الألسن من التعرض لخطيبته بأى غزل، بل منع الناس من النظر اليها فى غير تحفظ، خوفا من تهوره وجنونه الشرس. فلما دخل عليها حبسها فى الدار وعاملها بكل شدة ، وباتت تحبه حبا صار حديث العائلة كلما التقت فى مناسبة .

أختها « نعيمة » لم يسعدها الحظ . بدأت تشيخ كابنة خالها « شلباية » . لم تكن جميلة لكنها لم تكن دميمة . اكتسبت من ابنة خالها شطارتها وجرأتها . من صغرها نشنت على ابن خالها « على » ، عرفت بالغريزة أو بالايحاء من جدتها أن مصيرها سيكون له شاءت هى أم أبت ، فراحت تعد نفسها لأن تحبه . كانت خفيفة الدم على غير عادة دار « الكلافة » بوجه عام . فى الخامسة والعشرين من عمرها . ذات غمازتين طويلتين غائرتين فى الخدين . خمرية اللون غليظة الملامح نوعا ، لكنها غلظة مقبولة بل وشهية . تعصب رأسها بتربيعة مشغولة بالفل والترتر تقصعها للخلف ليظهر شرخة من شعرها الأسود المسبسب على جنبها حتى حاجبها الأيسر ، ودوائر الفل والترتر فى لقاء مستمر مع حركة رمشيها السوداوين وتطلعات عينيها الواسعتين . لاتتكلم كثيرا ، تجيد الكلام بعينيها المفحمتين ، لكنها اذا تكلمت أسرت القلب ببحة دفء فى صوتها ..

غير أن «على» ابن خالها يشبه أخاها «مغاورى» فى كل شىء ، لكنه يمتاز عنه بخفة دم قليلة ، اذ هو لايتمكن من ضم شفتيه على أسنانه الكبيرة فتظل أسنانه عارية أبدا تطفح بالابتسام الخبيث الماكر على الدوام بسبب وبدون سبب . يكفيه من الوجد نظرة يلقيها على ابنة عمته وهى تخطر فى دارهم ليل نهار ، أو جلبابه تغسله له بعناية خاصة ، ذلك أن أمه قد ماتت هى الأخرى منذ زمن حيث لم يرها ولا يتذكرها . فى غير مواسم الشغل ترى «على» دائم الصرمحة يعاكس الكلاب اذا تقاربت ويفرقها بالطوب اذا تلاحمت يفزع أفراخ الحمام ويطيرها من أعشاشها ، يصطاد اليمام والعصافير بنبلة ترديها قتيلة . مع ذلك فالبنت «نعيمة» تتغزل فيه وفى شلفيه وأسنانه ، ترد عنه اذا هاجمه أحد فى غيبته ، ربما تدخل فى عراك مع جدتها اذا أمعنت فى شتيمته . يتوقع لها الناس أن زيجتها ان تمت فسوف يكون ذلك نتيجة لشطارة «نعيمة» وسعيها الدائم ..

الكل يحسدها مقدما ، ذلك أن «على» هو الذى سيرث الأرض بعد موت جدته وأبيه ، ولسوف يصبح كل شىء فى الدار ملكا للبنت «نعيمة» ، بل ان أمى نفسها ترشحها لخلافة الدار بعد «الكلافة» ويحلو لـ «أبو سماعين» أن يداعبها فى الطريق كلما صادفها قائلا : «مرحب بالكلافة الصغيرة» . فتقول له ببرود ساخر وهى تتجنبه : «حاسب حاسب .. جه دورك يا أبو سماعين انت راخر .. النبى تسيبنى فى حالى» . يشيعها بضحكته الشهيرة ، ثم يمضى مخترقا الزقاق الى الشارع العمومى بخطوات هادئة واضعا يسراه فى سيالته واليمنى طليقة لكنها مرتخية بجواره ، يتلفت حواليه يمينا ويسارا كلما وجد ناسا يجلسون فى الشارع أو على مصطبة دكان ، لايقول سلام عليكم أبدا ، بل يعتبر أن مجرد نظرة يلقيها هى السلام ، وسواء عنى الجالسون بالرد أم تجاهلوه فانه يظل ماضيا فى الطريق اذا لم تعجبه القعدة أو لم يجد فيها متسعا له .



(١٥)

العروة غـــــير الوثقـــى

ليس وحده الذى كان يستريح لقعدة دكان معلمى «سعد الله» الترزى ، بل يفضلها ناس كثيرون من الذين هم على قد حالهم ، وهم الأغلبية بالطبع فى بلدتنا ، وثمة من الكبراء والمطربشين والمعممين يفصلون ثيابهم ويزورونه من حين لآخر ويتواضعون بالجلوس معنا ربما لساعة أو أكثر حتى انتهى من شغل عراويهم وتركيب أزرارهم ، وهؤلاء معظمهم من الأقباط الذين يختلط عليك الأمر فيما اذا كانوا أقباطا أم مسلمين اذ هم يحملون نفس الأسماء ويسلكون نفس السلوك ويأكلون نفس الأكل وتغلق عليهم فى النهاية حارة واحدة بل ربما دار واحدة ، وقد لايكتشف الانسان أنهم أقباط الا صدفة ، وقد ينسى الواحد منا ذلك فلا يعود يتذكره الا فى لحظة صدفة أخرى ، لعل من أغربها أن الواحد منا اذا تأكدت له أمانة واحد أمانة مطلقة وسلوك منه عفيف متسامح فانه يبدأ يتساءل هل فلان هذا مسلم أم قبطى ؟! . هذا بالاضافة الى أقباط من البلدان المجاورة الذين يحبون التفصيل عند معلمى «سعد الله» ، وهؤلاء حينما يلتقون بمعلمى فانهم يسيلون حبا وتتدفق بينهم ذكريات لاتنفد ، وكان حضورهم يعتبر مهرجانا تنشط له الدار فى توضيب غداء ويشغى الدكان بحركة جميلة مفرحة كحركة العيد والمواسم وأحظى فيه ببقشيشات سخية وغداء شهى لذيذ قد لايتوافر فى دارنا الا يوم سوق أو يوم موسم . نجم هذا المهرجان وكل المهرجانات لابد أن يكون «أبو سماعين» ، عالم برمته يتقرفص جالسا يرسل الضحكات ويستقبل الهبات وينشر وعيا اذا استمعت اليه أصابتك منه فوائد كبيرة وان أعطيته الطرشاء فأنت من الخاسرين ولن يزيدك

الطرش الا غلطة صدغ وقفا . اكتشف أن هؤلاء وأولئك من زبائن معلمى الأغراب على علاقة طيبة عميقة بـ «أبو سماعين» ، هم الوحيدون فى هذه الدنيا الذين يقدرون «أبو سماعين» تقديرا هائلا كأنه راهب أو إمام ، وينتظرون قولته الأخيرة فى كل أمر يطرحونه : «ولا إيه رأيك يا أبو سماعين ؟» ، فيفتى ربما بكلمةواحدة لكنها منتهى العدل وان قست على أحد الأطراف فلا يملك هذا الطرف الا قبولها خاصة اذا كان منذ برهة قد أحسن الى «أبو سماعين» بقرش أو بزردة شاى ..

تنفض كل المواكب ذات لحظة الا «أبو سماعين» موكب بذاته لاينفض أبدا . ربما لهذا ينشغل الناس به كموكب من الأفاعيل والأقوال تلهيهم عن البحث فى أصله وفصله ؟ من أين جاء والى أى عائلة ينتمى ؟ هل سبق له الزواج هل أنجب هل كان له مثل كل الناس أبا وأما وان كان فماذا كانت ظروفهما وماذا كانت شغلة أبيه وفى أى بلدة نشأ ؟ أم ترى تعامله بلدتنا باعتباره شيئا طبيعيا كشجرة تنبت بلا مقدمات هنا أو هاهنا كبزوغ المياه فى قطعة أرض دون أن يستجلبها أحد كوفود أسراب الطيور ككلهم جميعا قبل أن تستقر جدودهم جذورهم هاهنا . هذا وذاك صحيح تماما ، فأبو سماعين مثل كل الظواهر الطبيعية له فوائد جمة على الجميع ومع ذلك هو مسخة للجميع ولهذا يبيت لغزا محيرا بالنسبة لى أحمل همه وأنشغل به . أشعر أن معلمى «سعد الله» الترزى ربما يكون هو الذى أصابنى بعدوى الانشغال به أكثر من اللازم ، غير أن هذا الشعور سرعان مايتلاشى وتظل رغبتى مشتعلة فى معرفة الكثير عن هذا الرجل الذى أصابنى منه فضل عظيم ، اذ ــ بفضله ــ أصبحت ولدا لبيبا كما يصفنى الكبار ، نعم فلقد نقلت عنه هذه الصفة لا عن أبى وان كان خطيبا مفوها ينظم الأشعار ، ومنه ــ لا من أبى ــ تعلمت الكلام المنمق ونطق أسماء المشهورين بتفخيم ، وكيف أقول «يادكتر» و «ياباشمهندس» وياصاحب المعالى ، وعرفت أسماء كتب لم أرها عند أبى ، وأسماء رجال من عائلتنا لم أسمع بهم فى محيط عائلتنا من

قبل . ويكفى أن تاريخ أبى عرفته منه بل هو الوحيد الذى كشف لى عن أبى ولولاه لظل أبى مجرد آدمى يسكن معنا فى بيت واحد ، كذلك عرفت الكثير من المعلومات عن البلاد والبنادر وطبائع الناس ، كنت من غفلتى أنساق مع المهرجين الفارغين الذين يشوشرون على «أبو سماعين» فى لحظات التجلى النادرة مرددين صيحتهم الخبيثة المعهودة : «آخر تمام .. شغالة حلو قوى» — يقصدون الأفيونة طبعا ومن ثم فكل مايقوله تخاريف مخدر . غير أننى كلما تقدمت سنة فى المدرسة التى أخرج منها الى دكان معلمى كل يوم قرأت فى كتبها أشياء كثيرة جدا سبق أن قالها لى «أبو سماعين» وسمعت من مدرسيها معلومات سبق أن حكاها أبو سماعين ، فكنت أزداد له تقديرا وأعود اليه بمزيد من الانتباه ، أدفع البقشيش الذى أحصل عليه كله لأشترى له قطعة أفيون حتى يتسلطن ويحكى لى بصفاء ذهن مايصفو له ذهنى أنا الآخر ، كأنما الأفيونة التى جرع مرارها جنيت أنا ثمارها اليانعة ! .

كنت ازداد له حبا ، وفى أعماق لحظة صفا أتذكر فجأة سؤالى الأبدى الذى تعودت أن انساه فى حضوره ، الحق انه تعود ان ينسينيه ، حتى صرت لا أذكر ان كنت سألته أم لا مع أننى أتذكر أنه قد رد على سؤالى ذات يوم بكلام غامض . الى أن جاءت لحظة صفاء تمكنت فيها من ضبط عينيه فألقيت فى صفائها سؤالى : «هل كنت متزوجا من قبل ؟» — آملا ان يحكى لى شيئا أى شيء عن ماضيه الذى يسبق رؤيتى له فى مندرتنا ذات يوم موغل فى القدم . حينذاك نظر فى عينى فلم يجد طفولة كالعهد به بل وجد حصارا رجوليا ، فلمعت فى عينيه نظرة تفح بالفجيعة جعلتنى أحس بالندم على سؤالى ، لكن هذه الفجيعة فى عينيه سرعان ماتحولت الى لمعة سخرية مالبث أن غطاها بضحكته الشهيرة : « هو هو هو .. و ..و .. ه» ثم أضاف متخلصا منى : « طبعا تزوجت .. ألست رجلا ؟ » بمزيد من الارتباك شرحت له قصدى : أين زوجه مثلا وأولاده ؟ ..

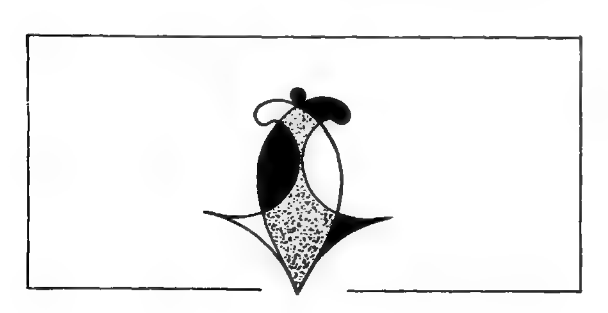
أطلق ضحكته هذه المرة عالية ، حتى خلت أنها انفتحت لأول مرة

وتخلصت من الخنقة اللصيقة بها ، ثم أخذ يوصلها من جديد كلما انتهت ، ثم قال فى جدية شديدة : « لقد ماتت زوجتى .. ثم مات أولادى .. نعم ماتوا .. ماتوا جميعا وهم رجال وصبايا .. صدمنى الزمن فى كل شيء .. حتى لتختلط على الأمور .. أحيانا يخيل الى أنهم على قيد الحياة وأننى أراهم كل يوم رؤية العين وأعيش معهم ليل نهار .. ثم أفيق وأصحو على الواقع .. على الحقيقة .. حقيقة أنه لم يعد لى زوج ولا ولد ولاأى شيء .. قطعت الحياة أسبابها بى لكننى لم أقطع أسبابى بها !؟ . كان هذا الكلام أعمق مما أريد ، وكنت على وشك الاستطراد فى الأسئلة الفرعية لولا أننى أفقت على أصداء صوته ترتعش فى الأفق الملاصق لعزبة العلمين برنين الحزن والأسى العميقين ، وثمة قطرات من الدمع تنهمر دفعة واحدة من عينى أبوسماعين لتمحوها يده ويعود الجفاف الى عينيه كأن شيئا لم يكن .. فكانت هذه المرة الوحيدة التى رأيت فيها « أبوسماعين » يبكى .يومها ظللت أشعر بالاستياء من نفسى طول النهار كأننى ارتكبت جرما أدى الى بكاء رجل يقود لواء الضحك والسخرية فى بلدتنا ويضع النكتة الحارقة ! ..

وقد لاحظ معلمى « سعد الله » الترزى اضطرابى النفسى بعد انصراف « أبوسماعين » فسألنى ماذا بى ؟ فقلت له ــ طامعا أن يطلب الصفح لى منه ــ ماقد حدث بينى وبين « أبوسماعين » بالحرف الواحد . فابتسم معلمى لأول وهلة ابتسامة ذات معنى غامض ، ثم انه ركز فى وجهى عينين تطل منهما عواصف الدهشة العظيمة ، لخصها فى قوله : « بقى إنت ! .. ماتعرفش اذا كان أبوسماعين قد تزوج أم لا ؟! » ، وبدا كأنه يحاكمنى . فقلت مسرعا : « كنت أريد أن أعرف لا أكثر ولا أقل » فعظمت الدهشة فى عينيه وصاح من عجب : « ليه هو انت ماتعرفش ؟! » . قلت بصدق : « والله مااعرف » . خبط منصة التفصيل بالهندازة الخشبية التى يقيس بها الأثواب ، ثم قال لنفسه : « لا اله الا الله .. جايز .. ماعادش فيه حاجة مدهشة ! » . فما كان من اللغز الا أن زاد غموضا ، فقلت لمعلمى : « وهل هذا شيء يتعين على أن أعرفه ؟ .. أقصد ماالغريب فى أنى لاأعرفه ؟ . قال معلمى متحاشيا النظر الى : « أنت بالذات

يجب عليك أن تعرف كل شيء عن أبوسماعين !» . ثم صمت معلمى وراح يلف سيجارة بدت لى عملية لفها كأنها استمرار فى الموضوع . وكنت أنقل البصر بينه وبين مواطىء سن الابرة حتى لاتتشوه عروة فتشوه وجه الثوب ، ولاحظت — رغم اضطرابى — أن غرزتى منضبطة ودقيقة فأنهيت تقفيل العروة من طرفيها وقلت لمعلمى فيما أعيد عقد الفتلة من جديد : « لكننى أشعر بأنى قد أذنبت فى حق أبوسماعين وإلا ما بكى وحكى هكذا .. اننى لاأستطيع أن أصف لك صوته الذى لايزال يهدر فى داخلى بعمق ويرجنى رجا » .

قال معلمى « سعد الله » الترزى وهو يبتسم فى أسف : « أنت ياولد تستاهل قطع رقبتك .. لكن .. لاعليك .. هيجت أحزانه الدفينة الله يجازيك يابعيد .. لكن .. لاعليك .. هو طبعا لايتصور أنك لاتعرف أصله فظنك تسخر منه أو تؤلمه .. لكن لاعليك ! .. لعله شعر بعدم أهميته لدى أسرتك مع أنه صديق حميم لأبيك ويجلس فى مندرتكم كل يوم .. لكن لاعليك .. هو طبعا من المؤكد يعرف أنك برىء لاتقصد شيئا » . ثم شد نفسا عميقا من السيجارة كتمه فى حلقه وسربه من أنفه فى خيطين واهنين كأنه يسرب أسرارا صدئت من كثرة دفنها تحت ركام الأعماق ! .



(١٦)

فتــــاة المـــوال

حكى معلمى « سعد الله » الترزى هذه الحكاية لما رآنى مغرما بالحكايات :

ــ فى يوم من ذات الأيام .. ولايحلى الكلام الا بذكر النبى سيد الأنام .. كانت هناك أسرة صغيرة مكونة من ثلاثة أفراد ، تعيش فى قرية مثل قريتنا تتبع أيضا مديرية الغربية مثلنا .. هذه الأسرة ياولد ، كانت عبارة عن رجل خواص ، يصنع من خوص النخيل قففا وغلقانا وسلالا وأسنة .. وزوجة غجرية ، تصيدها من قبائل الغجر التى كانت تضرب خيامها كل حين من الزمن حول القرية ، كما يحدث عندنا أيضا .. كانت جميلة ياولد ، والناس كانوا يحسدونه عليها ياولد ، يقولون فى أنفسهم ولبعضهم البعض لحظة التجلى : كيف حدث هذا ؟ من الذى جمع الشامى على المغربى ؟ .. كان يشاع عنه ياولد أنه فى الأصل غجرى مثلها يفهم لغاها ويعرف كيف يضحك عليها .. أما الحقيقة ياولد فهى أن هذه الغجرية الحلوة كانت قد تعبت من الرحيل وأحبت أن تستقر ، فما صدقت أن وجدت أمامها الخواص يطلب يدها حتى وافقت فى الحال وعاشت تحت سقف دار له صغيرة بلا سقف فى حقيقة الأمر محصورة بين دارين كبيرتين لاثنين من أعيان البلد المحترمين كل دار منهما تفتح على شارع بعيد ويستطيع أهل الدارين أن يروا من الشبابيك والسطوح كل شىء فى داره حتى التعريشة الصغيرة المظللة التى ينام الرجل تحتها مع زوجته، وكل أهل البلدة كانوا يتمنون أن يكونوا مطرح سكان هذين الدارين ليتمكنوا من رؤية الغجرية الحلوة عارية ذات لحظة فى حين أن سكان

هذين الدارين لايفعلون ذلك أبدا لأنهم لن يروا سوى البؤس والغلب والعذاب مجسدا...

الغجرية الحلوة أنجبت للخواص ولدا ، سماه ابراهيم على إسم أبيه ، وتوقفت عن الانجاب تماما حتى ضاق الخواص بها وبالولد .. كان الخواص افيونجيا قراريا ياولد ، يتكور فى ركن التعريشة كسحلية صفراء يجدل الخوص ويخيطه بفتائل يصنعها من ليف النخيل .. يظل طول النهار يسب للولية ديك الذين خلفوها والبلد التى رمتها عليه ، وتسب له سنسفيل جدوده الذين ربما لايكون لهم وجود من الأساس .. يثب عليها كالقرموط يبرك فوقها ويروح يضرب دماغها فى الأرض وتروح هى تخربشه ، يزأر فيها وتصوت ، الى أن يهدهما التعب فينفصلان ليعود هو الى جدل الخوص وتعود هى الى تزغيط البط والأوز وكنس الفناء ، وليس بغريب أن تراهما بعدها مباشرة يتغديان معا من مشنة واحدة ، وتشعل ركية النار وتصنع له الشاى ، وحين يتكيف يمازحها قائلا أن المرأة التى تكف عن الولادة يصبح الذكر أفضل منها ، وتمازحه قائلة أنه فى الأصل من بذرة فارغة ، وأنها تشك أن له أبا ، وأنه لابد قد جاء الى الوجود صدفة وأن ابنه جاء هو الآخر كذلك ، هنا قد يدلق على وجهها كوب الشاى الساخن فتجرى الى بعيد صارخة ، فينفلت عياره ويروح يلطش للولد تلطيشا قاسيا ، قائلا أنه وجه فقر أغلق باب الخلفة وراءه لقد سمم رحم أمه هذا الملعون : قم ياابن الكلب من أمامى والا قتلتك لقد تمنيت أن يكون لك أخ واحد على الأقل ولكن مؤخرتك نحس فى نحس رفضت أن يجيء وراءها أحد فعش كأبيك وحيدا طول عمرك ولتأخذك الشياطين أنت وأمك ..

لكل شيء نهاية ياولد . طلع الصبح ذات يوم فلم يجد الخواص زوجته .. الطريف ياولد أنها لمت كل شيء ينفعها حتى البط والأوز عبأته فى قفصين وتوكلت على الله .. قالوا أن ولدا « بوارديا » من حملة السلاح ابن ليل بلفها ودبر لاختلاسها بليل من الخواص الذى لا يستأهلها .. لكننى أقول لك ياولد أن طبع الغجرية نفسه هو الذى بلفها ، هو الذى تغلب فسحبها الى الرحيل من جديد

بعد أن صدمه الاستقرار ولم يجد فيه حلاوة تذكر .. وبقى الولد يعانى من ذل أبيه ليل نهار ، يجدل له الخوص ويفتل الفتائل ويقضى الطلبات ويسرح بالسلال ولا شكر ولا حنية ، دائما يعيو الخواص بهرب أمه الغجرية التى لاأصل لها ، الى أن فقد الولد صبو فبات يرد على أبيه الكلمة بمثلها ، ويغلبه فى الرد ، فيحاول ضربه فيزوغ منه ويجرى فيتوعده فلا يعود .. فأين يذهب هذا الولد ياولد ؟ ..

شف يا ولد .. الدنيا تأخذ وتعطى .. الولد ابراهيم وجد من يعطف عليه وفى الدار المجاورة لهم مباشرة ، دار الحاج سالم الفرنوانى ، فقد كان ابراهيم يحب صابر ابن الحاج سالم الذى يكبو ببضعة اعوام تناهز العشرة .. صابر هذا ولد طيب ومجتهد مثلك ياولد ، ربنا يعطيك مثله ، كان يذهب الى المدرسة ويخرج منها الى الكتاب كل يوم ليحفظ ويمكث بقية النهار ينقل أرباع القرآن من المصحف الى لوح خشبى مدهون بالزنك ومزخرف ، بقلم من البسط يغمسه فى دواة بها حبر أسود مصنوع من هباب الفرن حيث تقوم عملية النسخ بمساعدته على الحفظ .. هذه العملية بهرت الولد ابراهيم مثلما انبهر من صابر الذى يحن عليه ويصاحبه ، فراح يعبر عن سروره بخدمات يؤديها اليه ، يصنع له الحبر بكميات وفيرة ، يبرى له أقلام البسط حتى صار خبيرا بسن القلم المفلوق بالطول من منتصفه ، بجميع أنواعه الخطية ، فسن للرقعة وآخر للنسخ وثالث للثلث ورابع للكوفى وخامس للتاج ، بصبر اكتسبه من الجلد على جدل الخوص .. قل ان الولد تعلم الخط لتجريب الأسنان على اللوح ، ثم اذا هو يتعلم نطق الحروف وتجميعها فى كلمات ، ثم بات صاحبه يمليه ليكتب فى كراريس الواجبات ، أو يملى هو ليكتب صاحبه ، أو يمسك بالكتاب ليستظهر صاحبه مايكون قد حفظه ..

قل ان الولد ابراهيم صار شيئا مهما بالنسبة لصاحبه ، بات مثل روحه التى لا يستطيع الاستغناء عنها ، فبه أصبح صابر صاحب عقلين لا عقلا واحدا ، وجهدين لا جهدا واحدا ، ويتقدم فى امتحاناته عاما بعد عام بتفوق ..

أهل الواد ناس ميسوطين كما قلت لك ، بعثوا بابنهم يطلب العلم العالى فى القاهرة فى الأزهر ومدرسة الحقوق .. رأس صابر وألف سيف أن يأخذ ابراهيم معه .. وهكذا انتقل ابراهيم الى القاهرة مع صاحبه يسكنان فى حجرة واحدة ، حيث ينهض ابراهيم بكل الأعباء من كنس وغسل وتنظيف وطبخ عدس وشراء فول وطعمية وفضلا عن ذلك يساعده فى المذاكره ، فكان هو الذى يذاكر حقا ، وكان دائما هو المستعد الأول للامتحان ، وكان متودكا ، أكثر جرأة من صاحبه وأوسع حيلة وأشد صلابة .. بهرته أم الدنيا فأحب مقاهيها ومحلاتها فصار يجلس عليها ويتكلم مع الناس فى السياسة وفى كل شىء ، ويعود فيجهز الغداء لصاحبه فيحدثه عما قرأ ورأى فى شوارع القاهرة ، ويحدثه صاحبه هو الآخر عما قرأ ورأى فى دار العلم ويحدثه أيضا عن بعض الاشتباكات السياسية بين الطلاب ..

رح يازمن تعال يازمن تخرج صابر فى مدرسة الحقوق بتفوق فاشتغل وكيلا للنيابة ثم قاضيا ثم محاميا كبيرا جدا ياولد .. وكلما ارتقى درجة ارتقى ابراهيم درجات .. فبعد أن كان هو الخادم الذى يفعل كل شىء أخذ يسعى حتى أقنع سيده بالزواج وسعى حتى فى اختيار العروس واختبار سمعتها ، ثم انتقى للعروس خادمة فقيرة صغيرة ، ثم سعى حتى انتزع من أهل سيده مبلغا عظيما اشترى به دارا جميلة تحوطها حديقة ويسمونها الفيلا ، أشرف على ترميمها وزخرفتها حتى غدت عروسا .. عند افتتاحها خصص الدور الأول منها للمكتب والمكتبة ، والدور الثانى لاستقبال الأهل والضيوف ، والدور الثالث لنومه ومعاشه . أما ابراهيم فقد استقل بالشقة التى كانا يسكنانها من قبل ..

افنديا اصبح ابراهيم عقبال أملتك .. وكان هو الماكينة التى تقوم بتشغيل مخ الأستاذ وتجهز له الكتب والمجلدات التى سيأخذ منها المقولات والقوانين والأخبار والأحداث .. ثم ان دائرة معارفه قد اتسعت ، فالأستاذ صاحبه القديم — مضياف بفلاحيته ، سياسى بطبعه أبا عن جد ، محرض ، ذو صوت خطير مؤثر ، وبلاغة فى القول تفتت الصخر من كثرة مايعبىء فيها من مشاعر ، لى

زبائن من بلدته يقولون أنه حين كان يزور البلدة ويخطب الجمعة فى مسجدها ينخرط القوم فى البكاء والنواح ولا يتركونه يختم بسهولة .. داره فى القاهرة مثل داره فى البلدة لاينقطع عنها الزوار ليل نهار ، من أصدقائه وزملائه وتلاميذه ومريديه ، الحديث قائم كأنها مكلمة ، والمعارف تتدفق على الموائد فى الشعر والفن والأدب واللغة والنحو والصرف والانجليز وأحمد عرابى وصحبه وسعد زغلول ورفاقه .. لاتدهش ياولد اذا قلت لك أن دار الأستاذ صابر الفرنوانى ـــ الذى بات أحد المرموقين فى القاهرة كلها ـــ كان يؤمها سعد زغلول ورفاقه باعتبارهم بلديات وأصدقاء.. الأمر ببساطة ياولد أن الأستاذ صابر بيك الفرنوانى كان يشتغل بالسياسة ، كان فى تدبير مستمر هو ورفاقه ضد البريطان والملك الذى يحميه البريطان وضد ناس لا حصر لهم ممن ينتفعون من الملك والبريطان معا ومن خراب مصر كلها بعضهم أجانب مستحكمين فى البلاد وبعضهم مصريين مخالب قطط فى الوزارات والقصر وكل الحكومات .. وكان كل يوم فى سين وجيم ووجع دماغ لذيذ على قلبه ، وكثيرا ماكان البوليس السياسى الأجنبى يهاجمه ويفتش بيته لسبب من الأسباب بحثا عن منشورات أو فدائيين أو أسلحة أو أى بلاء أزرق ..

فتك فى الكلام ياولد .. فأقول لك أن الأستاذ قرأ يوما فى أحد الجرانين مقالة لكاتب مشهور فأغضبه ، ولست أذكر لماذا أغضبه ، فقال له ابراهيم افندى لماذا لاترد عليه ياأستاذ فى نفس جرنانه مثلما يفعل الكتبة والنقدة والساسة ؟ فقال الأستاذ والله فكرة ياابراهيم افندى ، ثم أخذ يملى عليه ردا ناريا ، ثم ان ابراهيم افندى وضعها فى مظروف مطبوع عليه اسم الأستاذ واتجه الى عنوان الصحيفة ، فطلب رئيس تحريرها وسلمه المقالة باعتباره مندوبا عن الأستاذ .. من يومها لم يتوقف ابراهيم افندى عن زيارة هذه الصحيفة كل بضعة أيام بل أصبح يزورها كل يوم بل أصبح له مكتب صغير فيها ، اذ أن الأستاذ الفرنوانى قد أصبح من كتاب هذه الصحيفة الدائمين بمرتب كبير فعين ابراهيم افندى سكرتيرا خاصا له يرافقه على الدوام ويحمل أسراره ..

للأستاذ زبائن فى كل البلاد خاصة بلاد مديريتنا ، اذ أن لمكتبه فروعا فى كل مراكز مديريتنا يديرها محامون شبان والأستاذ لا يحضر الا فى القضايا الكبيرة فاذا حضر اهتزت المديرية كلها ، ولابد أن يكون فى صحبته « ابراهيم افندى » فضلا عن وكلائه ومساعديه الذين لاحصر لهم ، فابراهيم أفيونته ، أحسن من يذكره بالمواعيد وأحسن من يقف وراءه فى المحكمة بالأوراق والمذكرات والمستندات يقدم له كل ورقة فى حينها كأنما هو يشارك ذهن الأستاذ فى المرافعة ..

من بين زبائن الأستاذ واحدة استعنت عليها بالله ، شيطانة من شياطين الزمن ياولد .. من عائلة كبيرة فى العب كله يعرفها الأستاذ حق المعرفة نظرا لشهرتها كعلم على نار عائلتها .. أبوها كان مقربا من أصحاب البلاد .. وكان رجلا طيبا مصليا حاجا ومزكيا ، ولأبنائه شنة ورنة .. وكل أبنائه كذلك ياولد .. الا هى .. حتى ليتساءل الناس لمن يطلع هذا الطبع الجاف الأسود ؟ .. قصيرة هى ياولد ، قميئة — (تلمع فى عينى معلمى نظرات وجلة فيها ومضات من الحرج والخجل تعود أن يلمع كلما تحدث عن أحد بألفاظ غير مناسبة) — تموت فى النقار والمشاكسة وخلق المشاكل ، دائمة الاهانة للناس بغير سبب ، تعاملهم كأنهم خدم فى معيتها فى حين أن شكلها أبدا لايسر ، قد تراها فى ثياب رثة وحذاء مبرطش لكن حديثها ولهجتها تنسيك شكلها ، وطريقتها فى الكلام تدلك على أنها من علية القوم ، وأنك أمام داهية شريرة لاقبل لأحد بمقاومتها .. مع ذلك يحترمها الناس فوق خوف ، يحترمونها لكونها من عائلة مسموعة وفى نفس الوقت يخشون بطشها المؤكد اذا مااستنفرها انسان ربما لأتفه سبب ! ..

لقوة شخصيتها جاء حين من الدهر أصبحت هى رأس العائلة دون منازع أو شريكا رغم وجود رجال أقوياء من أشقائها لكنهم كانوا يحسون بقوتها فلا يعارضونها فى شىء ، خاصة أن صلابتها واستمساكها برأيها كان يعود بالنفع على الجميع ، فبفضلها ياولد لم تتنازل العائلة عن شىء بل انها كانت عند اللزوم تمسك النبوت مسكة الفتوات الأصائل وتلقى به خطبة فى ساحة المعركة تبين فيها الى أى

حد هى قادرة على رد أى عدوان وحدها . بل كانت أثناء الخطبة تستعرض مهاراتها فى اللعب بالنبوت واللعب بالكلمات وتوجيه الشتائم المنتقاة ، ولديها شتائم لكل مستوى من مستويات البشر ، ولكل عائلة قاموس خاص من الشتائم يليق بها ، اذ لكل عائلة مطاعن ومخاز تجيد هى صياغتها الساخرة فى كلمات كبيرة متقنة الصنع راعية راهبة لاهبة ، أى والله ياولد ، ولذا فكل العائلات تتقى شرها ، وأتخن شنب فى بلدتها لابد أن ينحنى لها ويلقى عليها السلام كأنه يلقيه على عائلة بكاملها هى عائلتها ، ويحدثها — لو حدثها — فى تحفظ وندية ، ترعشه أن تطاول عليها فيتأدب فى الحال ويجر ناعم ..

على قدر اتساع علاقاتها هذه ياولد ، كانت مشاكلها وقضاياها ، كانت زبونا ثابتا فى مكتب الأستاذ واسمها مكتوب على عشرات الملفات .. هب يازمن مات أبوها .. هب يازمن تحولت كل قضاياها الى ناس من أقاربها حول مواريث وعقارات وأنصبة ومشاكل جوار .. كان لها ابنة جميلة تعجل خراط البنات فى خرطها وتسويتها عروسا لاضريب لها فى أى مكان ، سمراء مثلها لكن ملامح وجهها تقول بأنها أميرة من الأميرات ، رقتها تقول أنها من بنات الحور السمراوات .. كانت تصطحبها كثيرا فى زياراتها المتعددة لمكتب الأستاذ فى عاصمة المديرية ، وكانت تقوم بزيارات لمنزل الأستاذ فى القاهرة حاملة الخيرات والهدايا تضمن بها صداقة زوجة الاستاذ .. هب وقع ابراهيم فى غرام البنية ووقعت البنية فى غرامه ..

يادار مادخلك شر .. هكذا قالت الولية لنفسها ، فأى عريس يمكن أن تنتظره لابنتها خيرا من ابراهيم افندى بجلالة قدره ؟ .. كان يبدو أكثر أبهة من الأستاذ ، وأكثر اهتماما بشياكته وأناقته ، وأربطة العنق الثمينة الزاهية والقمصان الحريرية المزركشة التى يتلقاها الأستاذ كهدايا من زبائنه وأصدقائه يحولها كلها لابراهيم افندى الذى لايستنكف من لبسها ، والترزى الذى يفصل للأستاذ حلله الصوف المعتبر هو نفسه الذى يفصل لابراهيم افندى ولكن على نسق الموضات الحديثة الشائعة بين الشبان من خلال الأجانب والكتالوجات لدى أولاد الذوات ،

واذا كان الأستاذ يلبس طربوشا على رأسه فان أبا خليل كان يلبس قبعة أنيقة كالأجانب ، وله أيضا عصاته الأبنوس التى لايحملها فى حضرة الأستاذ .. كل ذلك كان يجعل كثيرا من الزبائن القرويين الذين جاءوا منجذبين بسمعة الاستاذ يرون ابراهيم افندى فيتصورون لأول وهلة أنه الأستاذ ، فاذا ماظهر الأستاذ نفسه بجسده الضخم وطربوشه القصير تتهدل ملابسه الأنيقة على بدنه تهدلا يوحى بالأرستقراطية ممسكا بالمنشة تحت ابطة يعتدل الجميع ثم يهبون واقفين فاغرى الأفواه لسان حالهم يقول : أيوه كده هو ده الأستاذ الحقيقى .. مع ذلك لا يفقدون احترامهم لابراهيم افندى بل ان الاهتمام كله كان منصبا عليه ، والكل يتودد اليه ويعامله باحترام شديد وتملق ، وهو يسلك فيهم مسلك الزعماء قل ، الرؤساء قل ، النجوم جائز ، فكل ذلك كان لائقا عليه جدا ياولد ..

الولية شافت هذه الأملة قالت ياما هنا ياما هناك .. لكن شيئا ما فى طبعها ياولد قال لها أن تلعب بهذه الورقة قدر ماتستطيع ، خاصة أن ابراهيم افندى حصل لها على تنازل من الأستاذ عن نصف أتعابه فى كل قضاياها المقبلة .. وصارت كل يوم والثانى فى زيارة لمصر حتى تتعرف على ابراهيم افندى جيدا عن قرب وتعرف حدوده المادية وقيمة مايمكن أن يدفعه من مهر وما الى ذلك ، رغم ذلك كان ابراهيم افندى كل يوم والثانى فى البلد حتى يشبع من البنية ويتعرف على شخصيتها من قريب .. والبنية فى كل يوم تزداد تعلقا بابراهيم افندى وحبا له حتى كادت تجن به وبحلاوته وبدخلته الدار عليهم أمام البلد . كان حبها واضحا ومحسوسا للناس كلها .. متأسف ياولد .. أقصد كان الناس كأنهم يحبون هذا الحب ويتمنون لو اكتمل فكانوا يشاركون فى اشعاله اذ يمتدحون البنية عند ابراهيم ويمتدحون ابراهيم عند البنية .. ثم ان الأغنيات بدأت تدور فى الأفراح حول حبهما الوليد بقوة جبارة ، وبعد أن كانت أغنيات أفراحنا تتحدث عن جلباب الحبيب وطاقيته وكيف أنه يدخل فى المساء عاوجا الطاقية واللاسة الحرير ، أصبحت الأغنيات تتحدث عن البدلة : قلمين قلمين يابدلته ، اشارة الى بذلة

ابراهيم افندى المقلمة ، وتتحدث عن الساعة التى فى معصمه ، بل تتحدث عن بيت يشبه القصر : «لما ويالما ويالمية.. حمام بحنفية بدورة ميه» .. وكشأن بلادنا فى كل قصص الحب العلنى بدأت المواويل تنتظر بلهفة أن تكتمل هذه القصة لكى تنطلق فى سوامر الرجال وعلى شطآن المصارف ووسط الحقول تؤنس وحشة الليالى السود ، وسواء اكتملت القصة أم لم تكتمل فان المواويل تقوم باستكمالها على النحو الذى يرضيها ياولد .. والذى يرضيها دائما ياولد هو ميلها الى صف الحبيب والمحب على السواء ، الى صف الحب على طول الخط ، لأنهم كلهم يحبون ياولد ، ويقع عليهم نفس العدوان ، يحبون وتقف فى وجوههم عشرات العراقيل التى تبدأ وتنتهى كلها فى من أنت ومن أى عائلة وكم من أملاك تملك ، مواويلنا مثلنا حزينة ياولد ، مجروحة ، تستنزف دم الشعور بالعدوان تسجل غدر الزمان تندد بالقساة الواقفين فى وجه الحب حجر عثرة بين القلوب المتآلفة ..

كانت المواويل على أهبة الانطلاق ياولد ، لتجعل من قصة الحب هذه عالما محققا معترفا به .. ولست أدرى ياولد سر ماحدث .. ترى هل كانت هذه الولية العجيبة تتصرف من تلقاء نفسها فى طريق أن يكتمل الموال ، أم أن الموال هو الذى أرسل اليها وفود الأغنيات القصيرة اللماحة لكى يدفعها من طرف خفى الى أن تتصرف فى صالحه على النحو الذى يهوى ؟! .. اذا لم تكن تفهم من قولى هذا شيئا ياولد فأنت لست غبيا إنما أنا نفسى لست أفهم منه شيئا !! وقد نستفتى فى ذلك أبوسماعين فهو الوحيد الذى يستطيع أن يوضح لنا هذا الامر ، ويقينى أنه سيقول مايقوله لى دائما من أن الموال هو الفرخ الذى تنشق عنه بيضة كامنة فى صدورنا فينطلق مرفرفا بأجنحة قوية ترمح به الى بعيد بعيد ليعود الحنين به الينا أو بنا اليه فحينا يرفرف على مداخل صدورنا من فوق أبراجها العالية يبدو لنا وكأنه طير جديد غريب وافد علينا لأول مرة ليمكث فى ضيافتنا طويلا ..

هل تراك قد خرفت ياولد ؟ .. ربما .. ولكن الولية مقصوفة الرقبة طول عمرها من بين الأسلحة التى يستخدمها القدر فى هجماته على الآمنين من عباد

الله ، انها بعيدة النظر اكثر من صقر ، حادة الذكاء أكثر من طائر الوقواق الذى يختار عشا على مزاجه وحاضنة على مزاجه فينتظرها حتى تغادر العش ليدخل فيرمى بيضها فى الهواء ويبيض بدلا منه بنفس العدد ونفس الحجم ونفس اللون كل ذلك فى وقت قصير ثم يمضى لحال سبيله لتجىء الحاضنة الأصلية الغشيمة فتنام على بيض غيرها وتدفئه حتى يفرخ ليغادرها الى الابد جنسا مختلفا عن جنسها !! ــ (وبهذه المناسبة لقد سمعت عن هذا الطائر من عمك «أبو سماعين») ــ قاسية أكثر من شيطان ، استطاعت أن تدخل فى زوارق الأستاذ وعب زوجته فتعرف كل شىء عن دخيلة الأستاذ ودخيله ابراهيم افندى ، عرفت كل أسرار الرجل ، وفهمت سر هؤلاء الشبان الذين يجتمع بهم فوق سطح الفيلا لوقت طويل كل حين ، وفهمت أن الصناديق الكبيرة التى تدخل وتخرج من سلم الخدم لابد أن تكون أسلحة توزع على هؤلاء الأولاد ليطلقونها سرا ليس فقط على الجنود البريطان بل على كل جنود البريطان حتى لو كانوا أبناء عرب .. وكانت تفرض نفسها على بعض جلسات الأستاذ بدهاء ولباقة لانظير لهما بين كافة الساسة والسلك الدبلوماسى ، كلامها وسلوكها يجمع بين قوة أبناء البلد وحرصهم على قيم الشهامة والجدعة وافتدائها بالموت ، وبين زلاقة لسان المثقفين المتعلمين وما يحفل به كلامهم من عبارات فصيحة ، هى بجلستها فوق الكرسى المسمى بالفوتيه الفاخر تبدو كومة من السباخ الأسود لاتعرف لها رأسا من ذنب ، ولكن حذار ان كنت تراها لأول مرة ، فان هى الا هنيهة قصيرة حتى ترى لها حضورا يكاد يلغى حضور كل الحضور برطانتهم وثقافتهم ولفهم ودورانهم .. قصر الكلام ياولد أنها فهمت وتأكدت أن الأستاذ ليس يعمل فى صالح أهلها ، فهمت ذلك على طريقتها وتأكد لديها احساس لايقبل التشكيك فيه أن هذا الأستاذ وصحبه وشبانه أولاد كلب سل مل ، رعاع ، ومعنى كل مناقشاتهم هذه وتحركاتهم هذه شىء واحد لخصته لنفسها : انهم ليسوا يحبون طبقتها لأنهم ليسوا من علية القوم مثلها ، لقد كان المفروض أن يكونوا خدما واجراء عند امثالها ، ولو أن الزمن يسير سيره الطبيعى لظلت فى مرتبة الأميرة وظلوا هم فى مرتبة الخدم ، صحيح أن أباها

كان مجرد موظف فى الخاصة الملكية ولكن أليس المثل يقول : حمار الأمير أمير الحمير ؟ أيا كان مركز أبوها فانه مركز فى الدائرة وهذا يدل على أنه شخص مميز بميزة الهية ! أليس الله يعطى المواهب من يشاء ويعطى كل انسان على قدر مايستحق ؟ أليس من شئونه وحده جل جلاله أن يكون هذا السلطان سلطانا وهذا الأمير أميرا وهذا الخفير خفيرا وهذا الأجير أجيرا ؟ أليس الله يقول قوله المقدس وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات ؟! فما بال هؤلاء الرعاع أبناء الرعاع يلجأون لمثل هذه الأفاعيل ضد أسيادهم ، هل جزاء أسيادهم الباشوات والبكوات والسلطان أن أكرموهم وجعلوهم أفندية محترمين ؟! ...

هكذا فكرت الولية .. لكنها فكرت من ناحية أخرى فى شىء آخر ياولد ، حيث تذكرت أن الوجاهة والأبهة آخذة فى الانسجاب عنها وعن عائلتها شيئا فشيئا ، وأن السبب فى ذلك هو ظهور ناس جدد من أمثال هؤلاء الفلاحين الأجراء الذين تسميهم الأسرة الخديوية بالأوباش والذين مع ذلك قد باتوا يمتلكون الاقطاعيات وينافسون أهلها وطبقتها فى مظاهر الحياة ثم تكون المصيبة الكبرى أنهم يريدون اقصاء السلطان عن كرسيه الممنوح له بحق الهى فيا للعجب ! لقد اختاره الله للسلطنة ولم يختر هو السلطنة! فما بال هؤلاء يزعمون أنهم متعلمون حافظون لكتاب الله وهم فى الحقيقة يسعون نحو الكفر ومحاولة تعديل ارادته سبحانه !..

قل ان الولية الملعونة كرهت الأستاذ من أعماق قلبها ، لكنها ذكية لم تصرح بذلك بل راحت تبالغ فى اظهار الود له ، بل صارت تغمز له فى الحديث معه غمزات جنثية يفهم منها أنها موافقة تمام الموافقة على مايفعل ، وأنها تبارك هذه التحركات ، وربنا يوفقكم ياأستاذ ويبلغكم منالكم ويبعد عنكم أولاد الحرام .. والواقع ياولد أن صوتا آخر فى نفسها صاح بها أن تمسك العصا من المنتصف ، أن ترتبط أسبابها بهؤلاء الجدد الذين قد يكون لهم فى مستقبل الأيام شأن ربما لم يبلغه أهلها ، مع ذلك كان فى أعماقها احساس يقول لها أن أبناء الفلاحين هؤلاء

لايجب أن يملكوا القوة والا تجبروا وأذلوا ابنتها ، لكن احساسها بقوة البريطان كان يعطيها كثيرا من الاطمئنان ، فطالما أن البريطان باقون يؤنسون وحشة البيت السلطانى فانهم لن يسمحوا بذهاب القوة الى مثل هؤلاء ! ان وجود البريطان هو الضمان الحقيقى الكافى لأن تظل ابنتها تضع ساقا على ساق وتصيح فى أهل زوجها بأنها من محاسيب افندينا .. تأكد ياولد أن مقصوفة الرقبة هذه كانت تعتقد أن نار البريطان ولا جنة أمثال هؤلاء الأستاذ ورفاقه ، فهم على الأقل بريطان تجرى فى عروقهم دماء السيادة والعراقة أما هؤلاء ففلاحون تجرى فى عروقهم دماء الذل والعبودية وليس لعبد ذليل أن يمتلك القوة والسلطان والا فقل على الدنيا السلام .. أقول لك هذا ياولد وكلى ثقة ! ..

بقى على مقصوفة الرقبة أن تتيقن من ابراهيم افندى نفسه باعتباره صاحب الرمة ، ماذا يملك وكم رصيده فى البنوك وابن من هو .. ولم يكن ذلك بعسير عليها ياولد .. فسرعان ماعرفت أصل ابراهيم افندى وفصله ، أمه الغجرية الضالة ، وأبوه الخواص الذى مصه الأفيون فمات ودفن فى مقابر الصدقة ، التحاقه بخدمة الأستاذ منذ الطفولة ، هو اذن لا أصل له ومن العار أن تتزوج ابنتها هى من فسل تافه مثله ، ثم ان هذه الأبهة وهذه الأهمية كلها مثل شيكات بدون رصيد ، ليس وراءها مركز حقيقى موثوق به ، ان طلع أو نزل مجرد خادم حقير حتى وان لبس ثياب السادة ، سيادته هذه مثل سيادة سيده مجرد مظهر وسلوك مستعارين لايسندهما عصب سيادى حقيقى ، ان السيادة ليست هى أن يكون لديك خدم وحشم وأن تأمر فيهم وتنهى ، السيادة هى أن تكون سيدا بطبعك فيك سيادة موروثة عن اجدادك الاقدمين ــ هكذا هى ترى والعياذ بالله ..

وهكذا أضافت هذا الى ذاك فوجدت أنها الخاسرة لا محالة ، واستكثرت على نفسها أن تهب ابنتها فلذة كبدها لرجل بارز فى الظاهر ضائع فى حقيقة أمره وينتمى الى ناس يناصبون أهلها العداء لله فى لله ! ماذا يكون وجهها أمام الناس ؟ ستكون فضيحتها بجلاجل ، ان معارفها وأصدقاءها كثيرون ولكنهم كلهم

من طائفة الأستاذ وصحبه أما اعداؤها فقليلون لكنهم من طبقتها هى وعداؤهم جارف ولسوف يكون هذا الزواج مطعنا لها فى مقتل ، فو الله لن يكون .. وأغلقت كل أبواب الكلام فى موضوع الزواج نهائيا .. سدت فى وجه ابراهيم افندى كل السبل : لأ يعنى لأ ، انك يمكن أن تطول القمر أما ابنتى فانها أبعد من القمر ، هى من طريق وأنت من طريق ، ياستى يهديك يرضيك لا فائدة .. جاءها الأستاذ بنفسه مع لفيف من رفاقه فأكرمت وفادتهم على أكمل نحو ثم رفضت الحديث فى موضوع الزواج رفضا قاطعا .. وحينا طرح عليها الأستاذ مواضيع من قبيل شراء كذا باسم العروس وكتابة كذا رصيدا لها فى البنك ، قالت أنهم لو أعطوها كرسى السلطنة فان زواج ابنتها من الخواص لن يكون ، هذا أمرها قد أصدرته ولا راد له حتى لو توفاها الله بعد برهة ! ..

الصدمة كانت قوية جدا ياولد ، كانت مدمره .. (ولمع الغضب فى عينى معلمى وراح يبحث عن علبة الدخان ليلف سيجارة يهدىء خلالها غضبه وتوتره)
ـــ مدمرة لمن ؟ .. للقلبين العاشقين بالطبع ياولد ، قلب البنية وقلب الجدع ، بل قلب البنية على وجه الخصوص .. هددت المسكينة بحرق نفسها وفعلت مايلين قلب الحجر لكن قلب أمها لايلين .. ومن هنا انطلقت شرارة الموال ياولد ، فبدأت طلائع الموال تتردد بصوت عال يرنحها الأرغول وتؤيدها السلامية ويعززها الدف .. سافرت طلائع الموال الى مصر القاهرة وأبلغت ابراهيم افندى تفاصيل مايجرى للبنية العاشقة المسكينة التى باتت تتقلى فى النار وحدها .. فجاء ابراهيم افندى ليكمل نهاية الموال ، جاء سرا وفى عز الفجر ، بعد أن كانت رسله قد سبقته قبل ذلك بأيام فدبرت وأحكمت ، وعند الفجر كان الليل المنسحب قد ترك رداءه الأسود على ثلاثة أشباح تمشى على هيئة ثلاث نسوة يحملن البلاليص على زعم جلب المياه من الترعة ، لكنهن توغلن فى السير الى مسافة بعيدة حيث كان ابراهيم افندى فى انتظارهن بالأوتوموبيل .. ولم يكن سوى الفتاة وشابين من رجاله متنكرين .

فى عصر اليوم التالى ، وبينما كانت دار مقصوفة الرقبة يخيم عليها سواد مفزع رهيب تمتد ظلاله الى الحوارى المجاورة كلها ، ويشيع فى الجو توترا وينذر مأساة دامية ، وكان الموال قد اكتمل تماما وبدأت مقاطعه تتلوى مثل القطار بين الحقول وترفرف على الصدور مثل الطائر العائد من رحلة الاياب كالمطر يتسلل بين شقوق الأفئدة المتوترة الشرقانة معززا هذه المرة بكل الآلات الموسيقية يرن فى كل الحناجر ويطرب كل الساهرين ويشجى كل المجاريح ، ويعلنهم بكل أناقة وشعور بالانتصار ان ابراهيم افندى قد أخذ حبة قلبه وأن الطائر الشريد قد ولف على عشه ناجيا من الريح والرصاص متخطيا الجسور والبحور ..

هدر الموال جنونا خطيرا فى قلب الولية الملعونة فزادها جنونا ، اندفعت تجرى يمينا وشمالا ، تقوم لتتكفىء ، وتنهض لتتعثر ، تقيم النيابة وتشد المركز والبوليس كله ، ترسل الرجال والوفود للمفاوضات بالرضاء والتسليم تارة وبالتهديد المريع تارة أخرى ، لكن دون جدوى ، لقد نفذ السهم ، فالبنية ليست قاصر والجدع بلغ سن الرشد والزواج صحيح على يد مأذون شرعى بموافقة الطرفين وبحضور الشهود ولاينقصه من مراسيم الزواج أى شىء حتى المهر وقائمة العفش مشرفان ، حتى الفرح أقيم على أكمل وجه .. فعادت الولية مكسورة الجناح خائبة لانصير لها فى الوجود .. فتوارت عن الأنظار ، وكفت عن السفر ، ولمت لسانها الا فى حالات الضرورة العاتية ، ولجأت الى الصلاة تستعدى السماء على اعدائها ، وكانت جرثومة الانتقام تأكل فى صدرها على مهل ، فاذا هى تنخرط فى لعن ابنتها والتبرؤ منها متوقعة لها الضلال والخسران جزاء ما ارتكبته فى حق العائلة من تشويه لسمعتها ومرمغة لشخصيتها هى فى التراب ، سوف يصيبها الله بنكبة لاتنجو منها الى الأبد بنت بطنى ! سوف تأكل الكلاب لحمها باذن الله ! أهذا من طبعنا ؟ أيتضح أن فى عرقنا بذرة فاجرة ونحن لاندرى ؟ أيحق لى بعد اليوم أن أمسك النبوت وأصرخ بأعلى صوتى قائلة أنا الفلانية جئت أنازلكم ؟ أيحق لى الآن أن أنطق حتى باسمى؟ أن أخرج حتى من دارى؟ ليت الأمر أمرى وحدى إذن

لهان ! لكن خبرونى كيف أدارى وجهى أمام أشباح تزورنى ليل نهار تكاد ترفع على رأسى الأحذية وهى التى لم تكن تجرؤ على رفع عينيها فى وجهى من قبل ؟! أو دلونى كيف أهرب من هذه الأشباح التى أمقتها وفى نفس الوقت تفرض على ضيافتها ولا أستطيع طردها من بيتى ! انكم بالطبع لن تخبرونى ولن تدلونى ليس لأنكم لاتريدون بل لأنكم لاتستطيعون وليس فى طوقكم هذا الذى أطلب أنا أيضا لن أفعل لهذه الضالة أو لخطيفها شيئا ليس لأنى لاأريد بل لأنى كذلك لاأستطيع ! انما الذى سيفعل بهما معا هو الله لاأحد غيره استعنت به على كل ظالم جبار ! حسبى الله ونعم الوكيل ! ..

فكان الناس يخرجون من عندها باكين ممزقى القلوب رغم أن بعضهم كان ذاهبا اليها بقصد التشفى ، ثم سرعان مايميلون الى كره البنية والسخط عليها فى المجالس وفى دورهم ، والحقيقة رغم ترديدهم للموال واعجابهم الشديد به وبيطلته فانهم قد تنبهوا على حقيقة أن هذا الفعل الذى فعلته هذه البنية الآثمة لايجب أن يحظى بالتشجيع .. وكانوا اذا أقيم فرح فى البلدة يظل الساهرون فيه منحرفى المزاج الى أن يبدأ المغنى فى غناء هذا الموال ، وتراهم يبعثون اليه النقوط بغزارة حتى يتشجع فيغنيه ، وحين يغنيه تعترى الكون كله حالة انصات عميق يتفجر من حين لآخر فى هياج عاصف ..

والأيام تمر والولية تزداد هزالا ويزداد وجهها كآبة وصدءا ، الى أن استيقظت البلدة ذات يوم ياولد ، لتتلقى فى الضحى خبرا بعودة الابنة . هذا الخبر هز البلدة كلها هزا ياولد ، حتى أن الواحد منهم كان يسمعه وهو نائم لايزال فينتفض منطلقا الى الطريق ، ويسمعه الشبان فى الحقول فيلهثون عائدين بالحمير ، وتجرى النساء والأطفال فى الشوارع ، حتى صارت شوارع البلدة كيوم عيد تشغى بالخلق المتجه كله نحو بيت الولية للفرجة على ابنتها بطلة الموال العائدة أخيرا بعدما ارتكبته من ذلك الفعل الخطير الذى لم تعد واحدة من صبايا البلدة تعرف ان كان فعلا يستحق قطع الرقبة أم يستحق كل هذا المهرجان الفرح . نعم

ياولد ، كانت نظرة الفرح تطل من عيون الجميع وهم يتدافعون بفضول عجيب وتطفل أعجب لرؤية وجه البنية والتحقق من الحال التى وصلت اليها ، هل هى فى عز وفخفخة ؟ أم فى ذل وبهدلة ؟ هل أنصفها الزمان أم انتقم منها القدر ؟ هل هى آثمة أم مجيدة ؟ .. حتى الرجال العجائز كانوا يبررون فضولهم الزائد قائلين أنهم يرغبون ـــ فقط ـــ فى اصلاح ذات البين بين الأم وابنتها العائدة ..

ظلت الحركة يومها تدب فى الطرقات بانفعال وحماس كبيرين لساعات طويلة مابين وفود رائحة وافراد غادية ، ولاحديث لهم فى الطرقات سوى أوصاف شكل البنية وماترتديه من ثياب وحلى كأنها البرنسيسة وأنها حقا لبرنسيسة أميرة كست الحسن والجمال وتستحق بالفعل أن يجرى وراءها الموال .. قرب صلاة العصر خفتت الحركة بعض الشيء وانهد العجائز فوق المصاطب فى الشوارع وأمام الدكاكين وتجمعت النسوة أمام الدور واتروت أسراب البط والأوز والدجاج مغتربة فى فراغات الشوارع بين الجدران ولابد أنها كانت هى الأخرى تتحدث فى نفس الموضوع لكن كانت تبدو عليها مسحة مأساوية كأنما تتوقع حدوث شيء جلل .. الكل حتى الكلاب الصامتة حتى شواشى اعواد الحطب وقش الأرز المتدلية من الأسقف حتى الجدران الطينية حتى الأبواب المنكفئة كان الكل يتحدث ، عن دخلة البنت على أمها فجأة ، عن الحقائب الكبيرة المليئة بالثياب والهدايا ، عن ارتماء البنت فى حضن أمها والانفجار فى البكاء طالبة الصفح والغفران مقبلة الأيادى والخدود والرأس والأقدام ، عن الأم التى لقيت كل ذلك كأنها لوح من الثلج ، لم تذرف دمعة لم تستجب لبكاء البنية لم تمكنها حتى من الاحتضان رفضت حتى أن تنطق اسمها بل أن تفتح فمها رفضت أن تلامس يدها أو يد زوجها فجلست البنية فوق الكنبة العتيقة كسنيورة كسيرة القلب تعيسة مكلومة الى جوارها يجلس زوجها ابراهيم افندى واضعا رجلا على رجل مكشر الوجه يتجاهل كل شيء حوله الا التدخين بشراهة وذب الذباب بالمنشة ذات المقبض العاج ومن حين الى حين يمد علبة سجائره الفضية للرجال الملثمين حولهما قائلا فى اخناعة ولهجة بندرية رقيقة : سيجارة ؟ فيأخذ منها الجميع حتى الذين

لايدخنون .. وحينما أوشك النهار على الانصراف دون أن تلين الأم أو حتى تعطيها وجها ، تقدم بعض رجال من عائلتها واستنهضوا الأبنة وزوجها لاستضافتهما فى دورهم .. اما ابراهيم افندى فقد رحب فى الحال على مضض وأما هى فقد رفضت أن تغادر مجلس أمها .. بات ابراهيم افندى ليلته مع الرجال وأكل لقمة بسيطة ، أما هى فبقيت طول الليل تستميل قلب أمها دون جدوى .. فما كاد الصباح التالى يقبل حتى كانت جفونها قد تقرحت من فرط البكاء والسهر .. عند الضحى ارتدى ابراهيم افندى ثيابه وذهب الى دار حماته بصحبة وفد من مضيفيه فأمر زوجته بارتداء ثيابها ففعلت ، وبدأ فودع الأقربين مسلما عليهم وهكذا فعلت هى مع النساء فقبلت الجميع وقبلها الجميع فيما عدا أمها .. ثم مضى ابراهيم افندى وهى فى أثره تسحب باحدى يديها ولدا ويحمل ابراهيم على صدره بنتا صغيرة ، فعرف الجميع أنها قد أنجبت مرتين ومع ذلك فها هى ذى فتاة صغيرة غريرة بريئة .. وكان من المفروض أن الركائب تنتظرهما على أول الحارة الملتحمة بالشارع العمومى لكن الموكب كان يكبر حولهما شيئا فشيئا وينضم اليه عشرات الكبار والصغار مسلمين مودعين مواصلين المشى معهما ، كان منظرا عجيبا ياولد ، بلدة بحالها تمشى مودعة زوجين محبين ، وصل موكبهم البطىء المتنامى بعد أكثر من ساعتين الى خارج البلدة حيث يبدأ الطريق الزراعى الموصل الى محطة القطار ، وهنا ثار الرجال الأقربون وطلبوا رجوع القوم ليركب الزوجان ويتكلا على الله ، وعلق الجميع على هذا الطلب بالتأييد ، لكنهم مع ذلك لاينصرفون بل يظلون فى توديع مستمر وكل واحد يطلب من الآخرين الاستئذان والانصراف ولا أحد يستذوق ، حتى بكت البنية بحرقة وكادت تجن من الفرحة والحزن معا ، كان الفرح بكل هذا الحب وهذه المودة يبلغ بها سماوات السعادة والبهجة ولكن الحزن من طعنة أمها يمرغ نفسيتها فى التراب ، وصاح فيهم ابراهيم افندى بكثير من الغضب والحرج أن كفى هذا القدر من الحب والوداع ، ثم سحب ركوبة رفع عليها زوجته وترك فى حجرها الطفلة ، ثم سحب ركوبة أخرى اعتلاها وفى حضنه الأبن ، وطوح ساقيه يستحث الحمار ويضرب الحمار الآخر .. جاهد الحماران

للخلاص من دائرة جموع المودعين الكثيفة وسط صياح وصراخ وبكاء لاأحد يدرى مصدره.. وكانت الشمس المسافرة الى المغيب قد سقطت فى قلب الجدار المواجه من خيمة السماء الرمادية، كالمتربصة، يمضى نحوها حماران أشهبان يحملان شبحين مصبوغين من قرص المغيب بحمرة الرمال كأنهما يدخلان دائرة اللهب، يجرى خلفهما ولدان، ويمتد وراءهما شريط من الرجال والنساء والصبيان المتناثرين كأنها كلمات ومقاطع الموال الذى راح ينساب فى السماء قادما من كل مكان .

بعد بضع سنوات ياولد .. تكرر نفس المنظر .. وكان يوم عيد الفطر ، حيث فوجئت البلدة بثلاث ركائب يجرى خلفها المكاريون تحمل أحد البكوات وزوجته وأربع أبناء وتتخذ طريقها الى بيت صاحبتنا صاحبة القلب الصخرى .. وماكاد الرجل يصل حتى كان هناك من يستقبله بصرف النظر عن حماته ، التى ظلت على موقفها لكنها تكلمت هذه المرة ، اندفعت تصب كل ماتجمع فى صدرها من لعنات مدخرة لمثل هذه اللحظة ، كان الزعيق كله لابراهيم افندى أما ابنتها فانها لم تعترف بوجودها أصلا ، اتهمته بأنه يعاود الكرة ويجيء ليتحداها من جديد ، ان مجرد ظهوره امامها بعد ماحدث يعتبر تحديا لها ، وأنها لن تتقبل منه ذلك ، ألم يكفه مافعل ؟ أيظن أنها تنسى ؟ أيتوهم أنه قد نفد بفعلته وانتهى الأمر ؟! هو اذن فاجر لكنه فاجر مغفل ! ولسوف يتلقى وعده إن عاجلا أو آجلا مهما طال الزمن ان لم يكن منها فمن الله .. وابراهيم يتلقى كل ذلك بسماحة وطول صبر ينفث غله فى السجائر ويرد بالابتسام المشمئظ على صهره واخوته الذين لايكفون عن الاعتذار له واعلان عجزهم عن اسكاتها .. لكن ابراهيم افندى كان حصيفا هذه المرة ، اذ أنه احتفظ بالركائب كنوع من الكرم المظهرى حتى يتغدى المكاريون وحميرهم ، فما أن انتهوا من الغداء حتى هب ابراهيم افندى قائلا فى حسم لايقبل المماحكة : يلا بينا .. فنهضت زوجته وجمعت أولادها وأشياءها .. وكان موكب العودة فى هذه المرة صغيرا ، اذ كان قرب صلاة العشاء ، والمكاريون الشطار ينخسون الحمير فتنطلق بهم مبرطعة على الطريق الزراعى ..

العجيب ياولد .. لا اله الا الله .. سبحان الله .. العجيب أن الله قد انتقم للولية بالفعل .. ويقولون أنها سلطت قوة السحرة بأعمال سحرية كانت تصرف عليها .. ويقولون أنها سلطت قوة من البريطان ! ومن رجال السراى ! ومن كل زبانية الأرض ! .. المهم أن البلدة استقبلت ذات يوم خبرا يقول أن الفرنوانى بيك قد اغتيل أمام باب محكمة النقض العليا وهو داخل ، وقيل وهو خارج ، ثم قيل أن ابراهيم افندى كان معه لحظة انطلاق الرصاص عليه وأنه مات هو الآخر .. وقيل ثانية أن الفرنوانى بيك مات فى حادث قطار وأن ابراهيم افندى لم يكن معه .. فى صباح اليوم التالى بعثنا فى شراء الجرنان من البندر .. فاذا بالحكاية منشورة على عدة صفحات ، واذا بصور الفرنوانى بيك وابراهيم افندى منشورة بالحجم الكبير بين صور للملك ورجال السراى والحكومة والوزراء والبريطان من أمثال رئيس البوليس السرى ورؤساء آخرين كثيرين .. فماذا كانت الحكاية ؟ .. الحكاية ياولد — كما يقول الجرنان — أن هناك رجلا انجليزيا كبيرا يدعى السيردار أو ماشاكل ذلك ، اغتاله شاب مصرى ، وأن هذا الشاب كان من بين الشبان الذين يترددون على الفرنوانى بيك باستمرار ، ويقال أنه من أقربهم اليه ، فاندفع البريطان يقبضون على الناس من مختلف المهن والملل ، طلبة على موظفين على سياسيين كبار ، يضربون ويقتلون من يعترضهم أو يقاومهم ، فلما دخلوا دار الفرنوانى بيك لتفتيشها والقبض عليه للتحقيق معه لم يجدوه بالمنزل انما وجدوا من اشتبك معهم وتبادل اطلاق الرصاص ، فكانت معركة استمرت نصف ساعة والجنود يبحثون عن مصدر الطلقات ويتسلقون الجدران والمواسير والدور المجاورة ، فاذا بمجموعة من الشبان الطلبة كانوا يقيمون فى غرف السطح وكان معهم أوراق خطيرة وأسلحة يخافون عليها فأرادوا شغل البريطان حتى يتخلصوا منها ، وقد سقط بعضهم قتيلا والبعض الاخر جريحا أثناء هروبهم ، وفى هذه اللحظة كان الفرنوانى بيك يحاول الصعود الى سطح داره بأمر من البريطان المحاصرين لكى يأمر شبانه بالكف عن اطلاق الرصاص ، فما أن اقتربت خطواته على السلم حتى عاجلته رصاصات أردته قتيلا يتدحرج على الدرج ، قيل أنها

من رصاص البريطان ، وقبل أنها من رصاص شبانه ، لكن الطبيب الشرعى يؤكد أنها من رصاص البريطان ، ورد المدعى العام البريطانى بأن شبان الفرنوانى بيك ضربوا برصاص سرقوه من معسكرات البريطان فلاعجب أن تكون الرصاصة بريطانية واليد التى اطلقت الزناد مصرية كالعادة دائما .. أى أن الفرنوانى بيك مات فطيسا والسلام ، ثم انهم قبضوا على شابين أحدهما مصاب والآخر سليم فى حين مات ثلاثة وهرب آخرون ، وقد اختلفوا فى عدد من هرب ، قدروهم بأربعة ، وقيل بل ثلاثة ، وقيل ربما أقل ، لكنهم كانوا متأكدين من هارب واحد معروف لديهم هو ابراهيم افندى الخواص ، الذى قالوا أنه حمل الأوراق السرية التى تدين استاذه وجماعته وحمل معه بعض الأسلحة حيث قد مكن له الشبان طريق الفرار بأن ألبسوه ملابس جندى بريطانى كاملة وأعطوه بندقية كبنادق الانجليز واختلط هو بهم قليلا حتى تمكن من الخلاء فانطلق الى حيث لايعرف أحد .. ثم ان الجرانين صارت كل يوم تنشر صورته بخبر عن مكافآة لمن يقبض عليه أو يرشد عنه ، وكل يوم تقول الجرانين أشياء جديدة عنه وعن الحادث .. ثم ان حكما بالاعدام قد صدر ضده ..

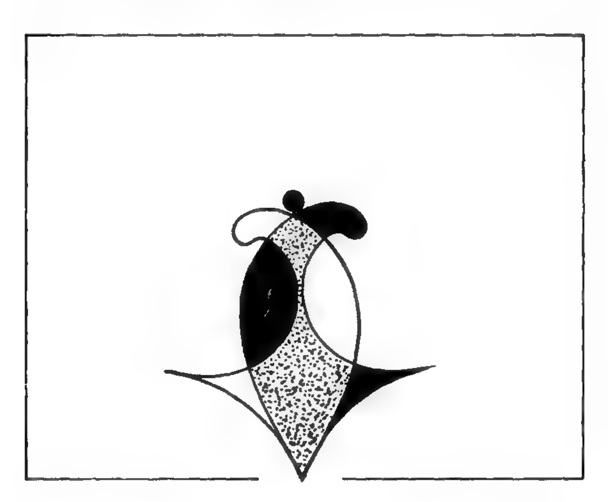
هذه حال الدنيا ياولد .. بعثر مكتب الفرنوانى بيك وصودرت أوراقه ونقوده وارتحل أولاده الى بلدته فقراء مساكين .. وشردت البنية زوجة ابراهيم افندى شهورا طويلة سوداء تعيش على هبات يبعثها لها فى السر بعض الناس الذين لاتعرفهم لكنهم يعرفونها .. وذات يوم تجمع وفد من أهل البنية فذهبوا الى القاهرة وجاءوا ببطلة الموال كسيرة القلب والخاطر تجر خلفها أربعة أبناء ولاتملك من حطام الدنيا سوى بعض حلى كانت تتزين بها .. شف حكمة الرب ياولد .. حكم على هذه البنية التعيسة أن تدفع ثمن حبها فادحا ، أن تعيش رغم أنفها مع أم لها ترفضها وتمقتها ولاتريد أن تقيم معها أى ود ، ولم يكفها ماهى فيه بل كانت عيون الشرطة والمخبرين مسلطة عليها ليل نهار ، وفى كل بضع ليال تهاجم الشرطة دار أمها وتفتشها وتبهدل الجميع بحثا عن الزوج الهارب ، حينئذ لم تكن أمها مقصوفة الرقبة تتركها فى حالها ، بل كانت كلما داهمتهم الشرطة وانصرفت تنظر

اليها فى تأنيب ولوم قائلة : هذا مأخذناه منك ! فضيحة فى الأول وفى الآخر ! ..
والبنت لاتجد ملاذا غير البكاء والنحيب ..

ظلت المسكينة تنتظر عودة زوجها صبح مساء ، والأسابيع تجر الشهور ، والشهور تجر السنين ، ولا حس ولا خبر ، حتى يئست من عودته تماما ، وأيقن الجميع أنه قد مات فى ظروف غامضة .. وكان عود الفتاة يجف ، والوردة تذبل ، وتزداد اصفرارا ولاتجد من يشفق عليها ، الى أن أراحها الله بالموت الجميل ، فبكل هدوء أغلقت عينيها على الألم الدفين ذات فجر فلم تفتحهما بعدها الى الأبد ، ومضت الى القبر تاركة خلفها أربعة أطفال ، ولدين وبنتين ، ليس لهم من عائل أو نصير سوى الرب ، ولابد أنه سبحانه قد رقق لهم قلب الولية فلم تعد ترعبهم أو تنهرهم ، تركتهم يعيشون فى الدار مع أبناء خالهم .. وكانت رقة المدنية قد زايلتهم تماما وذابت هدومهم الأنيقة فلبسوا خرقا وأسمالا من مخلفات أبناء خالهم ، وغلظت أقفيتهم ونشفت أعوادهم واغبرت وجوههم وتشققت أقدامهم ، أى والله ياولد كان الله فى عونهم ، لقد عاشوا مثلا لليتم الحقيقى .. لكنهم سرعان ماكبروا وعرفوا أن أمهم قد ماتت وأن أباهم قد مات هو الآخر ، ولم يعد أحد منهم يذكر شكل أبيه أو شكل أمه .. ثم انهم صاروا رجالا وصبايا يشتغلون فى دار خالهم وأرضه ولايأكلون سوى الفتات ..

رح يازمن تعال يازمن .. فوجئت البلدة بظهور رجل ممصوص البدن يرتدى جلبابا وحذاء قديمين ، لم يعرفوا أصله ولا فصله ، لكن بعض الناس عرفوا أنه ابراهيم افندى الخواص الهارب من البربطان ، وأنه قد تلطم طوال هذه السنين فى بلاد الله بين خلق الله حيث اشتغل شيالا على المحطات وجرسونا فى المقاهى وفراشا فى لوكاندة للنوم ثم سرح بعربة بطاطة ثم أمضه الشوق والحنين فجاء يبحث عن زوجه وأولاده ، ففوجىء بالحقيقة المرة ، فأصابته غصص من آلام لايحتملها بشر ، ركبه السأم والقرف واليأس لظهوره بعد فوات الأوان ، فظل يؤجل الكشف عن نفسه لاولاده حتى لايصدمهم بما آل اليه حاله مع علمه بأنهم قد عرفوا

حقيقته بالفعل ولكنهم يستمرئون لذة عدم التصريح بها لعشرات الأسباب النفسية الغامضة .. ثم انه فقد الرغبة نهائيا فى الكشف عن نفسه لاحساسه انه مكشوف من حاله وليقينه أن الكشف عن حقيقة نفسه لايخدم شيئا .. ثم ان الذين عرفوه آثروا عدم تقليب المواجع خاصة أن الاولاد قد نسوا أمر أبيهم تماما ووطنوا النفس على عدم وجوده ، والواقع أن الجميع قد خشى افتضاح أمره فتكتموا الخبر .. واكتفى ابراهيم افندى بأن يعيش قريبا من أولاده يراهم من بعيد لبعيد ويجتمع بهم فى بيت واحد فى كثير من الأوقات ، صحيح أنه لايملك لهم نفعا ولاضرا ، وأنهم كذلك لايملكون له نفعا ولا ضرا ، ولكن هكذا الدنيا ياولد وهكذا الانسان ، يجب أن يبقى بجوار أبنائه وأن يبقوا بجواره حتى ولو كان أحدهم غير نافع للآخر ! .. حتى ولو كان يعرف أن اولاده قد باتوا لايعترفون الا بموته ! .



(١٧)

فاتحة
شيـــــخ البلـــد

اقامت مدرستنا حفلا بمناسبة عيد جلوس الملك ، دعيت فيه شخصيات كبيرة من المنطقة التعليمية ومن المديرية ، وكنا قد مكثنا شهورا نتدرب خلالها على تمثيلية سنمثلها أمام الحضور ، وقصائد شعرية سنلقيها بصيغة حوارية يتحدث فيها الفلاح والملاح والطبيب والقائد ، وفى يوم الحفل حضر جميع آبائنا فملأوا الحوش العريض جلوسا فى أدب جم وانبهار حقيقى ، وصفقوا جيدا حتى اهتزت سماء القرية فى كركرة بهيجة مهيبة ينقلها الميكرفون ، فتزغرد أمهاتنا على أسطح الدور ، فأمهاتنا يتدفعن مزغردات كلما طرأ على الأثير صخب بهيج ..

على خشبة تشبه خشبة المسرح صنعها محل الفراشة ، تعاقب كل من الناظر ووكيل المدرسة ومدرسها الأول ، مرحبين بالضيوف الأجلاء فى خطب عصماء فيها شعر وقرآن وحديث شريف . كل واحد منهم حرص حرصا شديدا على تعيين أسماء الضيوف وعلى رأسهم المفتش «خلف» الذى هو مفتش التعليم الالزامى فى المنطقة كلها ، والذى أرهبتنا زيارات عديدة له فى سنوات الدراسة السابقة . كان أبيض الوجه أسمره فى نفس الوقت ، ذو شارب أبيض مزموم على الشفتين فى حزم وقوة ، مفلوق الشعر من الجانب الأيمن بشعر مصفف ناعم أبيض على أسود . وكان هو الذى رتب لقيام هذه الحفلة مثلما رتب فى مدارس المنطقة كلها على مدى أيام متباعدة بحيث يحضرها جميعا ، وهو الذى أمر المدرسين أمامنا بأن يجمعوا من كل « ولد » قرشا ، ليكون كل ولد منا قد عبر عن شعوره نحو مولانا المفدى ، فكل ولد منكم ياشطار لابد أن يظهر حبه لجلالة .

الملك فاروق ، إن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب سوف يغنون لجلالته وأنتم أيضا ياشطار يجب أن تفرحوا بعيد جلوس مليككم المفدى ..

ليلتها طالت الخطب وردح الميكرفون حتى دفق على الأسطح أطناناً من النواح الغريب المنفعل لا تدرى ان كان تعبيرا عن فرح أم أنه مأتم أم أنه مزاح فى مزاح .. وأيدى الحضور لا تكف عن التصفيق . ولقد تقبل الحاج « مصطفى الحداد » كل ذلك بقبول حسن ، الا شيئا واحدا رفض أن يتقبله بحال ، ذلك هو تكرار اسم المفتش « خلف » . فأيها الساده .. ضيوفنا الأجلاء .. سيادة المفتش خلف .. ونخص بالذكر المفتش خلف .. وبفضل السيد المفتش خلف .. المفتش خلف .. المفتش خلف .. المفتش خلف .. سلامات ياسى خلف ..

هكذا علق الحاج « مصطفى الحداد » وهو فى كرسيه البارز عن الصف قليلا فى مواجهة الخشبة المنصة مباشرة ، وعلى جانبيه عدد مهول من عمداء الزعالكة والبكاروة والنجار والسوايفة والجرانة . يلبسون الجلابيب الكشمير السوداء المخططة وفوقها العباءات الجوخ ، ورهط من أفندية لابسى البذلات مكرشين ملغدين منكسى الوجوه فى وقار وجدية خطيرين ، الطرابيش فوق كافة الرءوس كغابة من شواهد المقابر تكتنفها ظلمة عجز ضوء الكلوبات الشاحب العليل عن دفعها ..

رنت كلمة الحاج « مصطفى الحداد » وسط الصخب فسمعها كل جيرانه . اكتفى رهط الأفندية الضيوف — الذين من بينهم المفتش خلف نفسه — بأن رفعوا وجوههم كلهم دفعة واحدة فى اتجاه الحاج « مصطفى الحداد » ولكن بلا أى انفعال كأنهم يبدون الاستعداد التام لعدم تصديق آذانهم . أما رهط العمداء فقد قصرت رقابهم بأن انضغطت فى الأكتاف بفعل زم الضحك وكتمانه بقوة عصبية هائلة . ولم يكن قد بدا على الحاج « مصطفى الحداد » أنه قال شيئا ، فرحب رهط الأفندية بتكذيب آذانهم ثم عادوا الى تنكيس وجوههم من جديد بنفس الجدية والوقار والاستماع بعمق شديد .. الى أن

جاءت اللحظة الخطرة ، حيث كان اسم « الحاج » « مصطفى الحداد » مدرجا فى برنامج الحفل باعتباره العمدة ليلقى كلمة البلد يرحب فيها بالضيوف ويهنىء جلالة الملك المفدى ، وكان « السيد جابر » مدرس الحساب هو المنوط بالتقديم يمسك بورقة مطوية ويروح ويغدو على الخشبة فى جدية واهتمام كأنه صاحب الحفل ، ومع أنه منوط باذاعة اسم المتحدث القادم فقط الا أنه ينتهز الفرصة ويتلاعب هو الآخر بالحديث والانفعال ، ويشكر — أيضا — المفتش « خلف » . فما أن بدأ « السيد جابر » يقدم حضرة العمدة الشيخ الأستاذ مصطفى افندى الحداد حتى نهض الأخير متقدما نحو الخشبة فى هدوء وهرولة على ايقاع العصا الأبنوس ، وشعره الأشيب كالأسلاك يتصاعد متكورا . فكأن طربوشه القصير الداكن مغروس فى طاجن من اللبن . ثم انه صعد فى وقار مهيب الى الخشبة وتقدم نحو العمق غير عابىء بهيئة المدرسة الجالسة فى العمق لصق الجدار المصنوع من خيمة السرادق ، ثم توقف تجاههم لبرهة ، خبط العصا فى الأرض الخشبية خبطة أفزعت الميكرفون فبصقها فوق أدمغتنا فانحطت أبصارنا جميعا فوقه ملجمين ، ثم التفت قليلا مشيرا بالعصا نحو السيد افندى جابر قائلا :

حد منكم ياحضرات الساده الأفاضل يقدر يقولى الأفندى ده منفعل قوى كده ليه ؟ أما والله دى حاجة تتكتب فى الجرايد .. دى ملاحظة بريئة على كل حال .. ثم تقدم نحو الميكرفون بحركة مسرحية رصينة فى اتجاه المشاهدين ، تنحنح ، خرج صوته الهادىء المصطباوى :

السلام عليكم .. انتو بصراحة شرفتونا وانستونا .. ودى من ليالى العمر بحق وحقيق .. الواحد يقول ايه ؟ .. آه .. ربنا يديم علينا جلالة الملك ونحتفل بعيد جلوسه الألف .. عشان نشوف الوجوه الحلوه دى مشرقانا على طول.. أهلا وسهلا بيكم .. دى شباس عمير كلها نورت .. كل مخلوق فيها بيرحب بيكم ويغنى بعيد جلوس المليك المفدى .. واحنا بهذه المناسبة وفى ظل حكومتنا

الرشيدة سوف تنشىء فى هذه البلدة مزرعة كبرى للدواجن تغذى الناس بالكتاكيت والفراريج .. ونطلق عليها اسم : مزرعة الفاروق تيمنا باسم المليك المفدى .. دى حتى المزرعة أقمناها بالفعل بس حنوسعها شويه .. بالجهود الذاتيه . كل أبناء البلد حيساهموا فيها ماهى دى الجدعنه طبعا .. واحنا على فكرة بلد جدعة قوى قوى .. حضراتكم طبعا .. ما انتو عارفين .. حضرات السادة المدرسين ربنا يخليهم ويطول فى عمرهم بيعلموا الأولاد حاجات كثير من تاريخ بلدنا .. أمال .. هى قرية صحيح لكن اسمها ورد فى التاريخ .. لها تاريخ .. صدت الحملة الفرنسية .. وما هذا البرج ببعيد .. نعم ياحضرات .. هذا البرج الذى يقف خلفكم هو آخر بقايا فيلق من الأبراج كان يستر بلدتنا هذه يوم هاجمتها الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال مينو .. مش كده ولا ايه ياقنديل افندى ؟ .. وبالامارة البلد قتلت حصانه .. حصان مينو نفسه ، بلدنا دى قتلته ياحضرات .. وصاحبه اتدارى .. سحب هلاهيله واتكل على الله .. بس قبل ما يمشى راح مولع فى ابراج الحمام .. بقى الحمام المولع يطير من حلاوة الروح ويقع فى السطوح ، تروح مشعللة .. بلدتنا دى بقى .. انتو نورتوها .. وبالنيابة عنها باقول انها مستعدة تضحى بأرواحها فداء لجلالة الملك .. نورتونا كلكم .. حضرات الأساتذة الأفاضل الأستاذ المفتش خلف .. والسيد الأستاذ المفتش خلف .. وحضرة جناب المفتش خلف .. وسعادة البيه الفاضل المفتش حلف ..

دوى التصفيق لبرهة ثم سرعان ما انقلب الى قهقهات عالية مرحة ، فى حين اخذ عمداء العائلات يضحكون فى حرج محاولين تبسيط الأمر فى نظر الضيوف وتطييب خاطرهم . انتظر الحاج « مصطفى الحداد » حتى كف هذا اللغط ، ثم واصل :

عدم المؤاخذة ياأسيادى .. أنا لا أقصد شيئا بالنسبة لحضرة جناب المفتش الأستاذ خلف .. انما اريد القول بأننى طوال هذا الزئيط لم أسمع سوى المفتش خلف المفتش خلف ، كأن الله أوصى قائلا وكيلى فى الأرض هو المفتش

خلف .. عدم المؤاخذة يا أستاذ خلف .. لقد خشيت أن يتصور الناس هذا .. فما معنى خلف أيها السادة من أهل بلدنا ؟ انه شخص مثلنا اسمه خلف . هذا هو الأمر باختصار .. وفى النهاية أنت شرفتنا يا أستاذ خلف .. أى والله العظيم أقولها بصدق .. أنتم أهل الخير والبركة فى هذه البلاد ، يا من تربون الأجيال .. أهلا بكم والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم انثنى ماضيا ليهبط عن الخشبة وسط عواصف التصفيق والضحكات حتى لم يعد أحد يعرف ان كانت تقديرا أم سخرية . فى الحال تقدم حضرة الناظر فأوقف هذا اللغط فى صيحة داوية : « ايها السادة .. » . وفوجىء بأن صوته قد اختفى تماما من الأفق ، فتنحنح لبرهة ثم خيل اليه أن هدوءا خرافيا شمل المكان فجأة ، فأخذ يصيح : أيها الساده ، فلا يسمعه أحد . حينئذ تقدم عامل الميكرفون الذى استأجرته المدرسة مع الفراشة من « عباس الملا » فى دسوق ، فراح ينقر على العصا المعدنية المثبت فى أعلاها الميكروفون ، فلا يسمع لنقره رنين ، فأخذ ينفخ فى مسام الميكرفون قائلا : آلوه . ألوألوألو آ .. لو .. ه ، فلا يصل صوته أبعد من أنفه . ترك الميكروفون وانطلق يجرى نحو ماكينة صغيرة كانت لا تزال تتكتك بصوت عال فى ركن من حوش المدرسة بجوار دورة المياه ، اندهش ان الكهرباء لم تنقطع فما السبب اذن ؟ ثم انطلق يجرى خارج الفناء ومعه ناس كثيرون يستطلعون الأمر . خيم على المفتش « خلف » وصحبه غم ونكد ، فى حين تململ العمداء شاعرين بالحرج . بعد قليل دخل عامل الميكرفون يجرى يصيح بشىء من الفزع والخوف :

ــ الهورن مش موجود ياحضرة الناظر !

والهورن هو ذلك النفير الكبير الذى يضخم الصوت ويرسله فى موجات عالية ، وكان مربوطا بالحبال فى نهاية عرق من الخشب مثبت فوق برج حمام مهجور على مقربة من المدرسة صاح الناظر بعد أن استوعب الخبر :

ــ مش موجود يعنى إيه ؟ اتسرق يعنى ولا إيه ؟!

ثم نظر فى اتجاه العمدة مصطفى الحداد نظرة ذات معنى . وكنت أنا قريبا منه فى هذه اللحظة مع مجموعة من تلاميذ سنة رابعة أول ، نستعد لدخلتنا حيث سنؤدى مشهدا تمثيليا نلقى فيه القصائد الشعرية التى تنادى بمجد الفاروق ، ورأيت على وجه الناظر ما يشبه التشفى والغيظ الممزوج بالفرح الشرير لما حدث ..

هب العمدة « مصطفى الحداد » واقفا وصاح فى طلب شيخ البلد ، الذى كان جالسا على مقربة منه فى صف خلفى ، والذى نهض على الفور صائحا فى طلب شيخ الخفراء . وكان شيخ الخفراء مشغولا بضرب الناس الذين كانوا يتسلقون سور المدرسة للفرجة واثارة اللغط ، فناداه أكثر من صوت ليكلم شيخ البلد ، فترك مهمته لوكيل شيخ الخفراء وجاء مهرولا . قال له شيخ البلد فى غيظ :

ـــ شوف ياجدع الهورن بتاع الميكرفون بيقولوا انسرق .. نهاركم أسود من شعر رأسكم لو ما جاش فى خمس دقايق .

اندفع شيخ الخفراء مهرولا . هرول وراءه كثير من الخفراء والرجال والأولاد . وبعد قليل خرج وراءهم شيخ البلد . غابوا طويلا وصياحهم يرتفع شيئا فشيئا . ثم خرج العمدة ليرى ومن ورائه عمداء العائلات واحدا وراء الآخر . ثم صعد المفتش « خلف » الى الخشبة ، ورغم علمه أن الميكرفون لم يعد ينطق فانه مع ذلك عدل الميكرفون فى مواجهة فمه وراح يصب فيه الكلام . قال انه يشكر رجال المدرسة ، ويشكرنا ، ويشكر أهل البلدة الكرام على حسن استقبالها وكرمهم واثبات حبهم للمليك المفدى ، وكل عام ونحن جميعا بخير ومليكنا المفدى فى خير حال ، والسلام عليكم ورحمة الله . ثم نزل ، فاذا بصحبه قد نهضوا واقفين ، فأشار لهم ثم تقدم خارجا ، فأسرع حضرة الناظر خلفهم ومن خلفه بقية المدرسين . وهكذا فوجئنا بأنفسنا واقفين وحدنا ، وبعد برهة فوجئنا بصبيان « عباس الملا » يفكون اعمدة الخشب ويرفعون قماش المشمع وينزلون الكلوبات ،

فاضطررنا الى الانسحاب . وفى طريق عودتنا رأينا تجمعا كبيرا عند دوار العمدة « مصطفى الحداد » يتصاعد منه صياح ولغط وسباب وكلام كبير لا نفهمه .. وكانت كسفتنا بعدم ظهورنا على المسرح قد صدت نفوسنا عن متابعة الصياح ، فانسللنا الى دورنا فى خيبة أمل .

ظلت البلدة مشغولة بهذا الحادث أياما طويلة ، والمخبرون السريون يجوبون البلدة ليل نهار ويندسون بين الجماعات لكى يعرفوا من الذى سرق الهورن وتسبب فى افساد احتفال المدرسة بعيد جلوس الملك ؟ من الذى سولت له نفسه أن يفعل هذا الفعل الجرىء الخطير ؟ انه ليس تحديا للمدرسة ، ولا للعمدة ، بل ولا للبلدة كلها ، انما هو تحد للملك نفسه .. هكذا كان يقول « أبو سماعين » بشىء من الانفعال المصطنع مظهرا تعاطفه الزائف مع موقف العمدة ، يودى وشه فين ؟ انه حادث يدل على أن العمدة ضعيف الشخصية لا قيمة له فى البلد ..

أفراد قليلون فقط ، ربما معلمى سعد الله وأبى وبعض الناس الفقراء من عزبة العلمين ، هم الذين يعرفون أن هذا الحادث الخطير كان من تدبير « أبو سماعين»، حيث اقتاد ثلاثة أولاد من عزبة العلمين ورسم لهم كيف يتسللون الى موقع « الهورن » ويفكونه بهدوء أثناء انشغال الجميع بالفرجة ، وكيف يتسلمه واحد يقف الى بعيد راكبا حمارا رهوانا حيث يلف الهورن فى ثوب قديم ويضعه فى مقطف لينطلق به حيث يواريه فى بلدة بعيدة جدا ، وحيث يسلمه هناك لمن يدفنه فى حفرة الى الأبد ..

المفتش « خلف » بالطبع لم يسكت ، ولابد أنه كتب تقريرا ضد العمدة بعد ذلك الاستقبال الحافل بالتريقة . ذلك أن العمدة قد بات يستقبل كل يوم ضيوفا من الأفندية المهمين مخفورين بالعسكر السوارى ، وأصبح يسافر كل بضعة أيام الى المركز والمديرية . وكان « أبو سماعين » وحده يعرف سر ما يدور ويهمس لنا أن العمدة فى تحقيق مستمر وأن الأمر سوف يتطور الى أبعد من ذلك ، جاء أمر بايقاف العمدة عن العمل ، وباسناد مهامه ــ مؤقتا ــ الى شيخ البلد .

شيخ بلدتنا ما أجمله ، الشيخ أحمد افندى الصواف ، اسمر الوجه ضخم الرأس مدببه . ملغد من الأمام ، وأما من الخلف فيبدو بلا رقبة . لا هو بالطويل ولا بالقصير لكنه ضخم الجثة مثل فيل ذكى لماح . اذا مشى لابسا الطربوش يرسل من تحته نظرات مستطلعة وجلة لكنها طيبة مع أنها تفترض الخيانة والغدر فى كل خطوة . واذا جلس لابسا الكلبوش بدلا من الطربوش بدا منظره كشجرة الجوافة المقلمة تقليما جيدا فى حديقة داره ذات الفراندات ، التى تعج بأشجار الفاكهة من كل نوع ، والتى يذوق حلاوتها كل رجال البندر والمسئولين فى الداخلية . املاكه — فيما يقول أولاده بمسكنة مفتعلة — قليلة لا تتجاوز خمسمائة فدان وحظيرة ماشية وثلاثة دكاكين للبقالة فى مدينة البندر . كان يرانا نتسلق أشجار حديقته فيكتفى بالفرجة علينا من بعيد فيما هو متربع فوق المصطبة أمام دكان « سرور » الذى يحوى صنوفا غريبة من العلب الصفيح والكرتون ليس بها أى شيء على الاطلاق ولا احد يعرف ماذا يبيع ، الا انه يفترش المصطبة المواجهة لزريبة أحمد أفندى ، شيخ البلد ، حيث تجيء المساند الوثيرة ويتراص الرجال يشربون شايا وقهوة يصنعها لهم « سرور » . وكان « احمد افندى الصواف » لما يتركنا نتسلق أشجار حديقته المحاذية للطريق يغرينا بمزيد من التوغل داخلها لنقطف ثمار الجوافة والكمثرى والمانجو والعنب ، لكنه فى الواقع كان يتركنا لقدرنا ، حيث يلتقطنا من الداخل أحد التملية فيشبعنا ضربا وتلطيشا وتشليتا ، أما ان تمت عملياتنا بنجاح فاننا نتسلل منسربين فى الطريق نتحسس انتفاخات جيوبنا وعبنا ، فاذا حاذينا المصطبة التى يجلس فوقها « احمد افندى » شيخ البلد فاننا نتباعد قدر الامكان عن مجلسه منكسى الرؤوس نتوقع من خوف أن ينقض علينا ويعلقنا فى المشنقة كما يهدد الناس دائما حين يتعاركون مع أولاده ، غير أنه كان يكتفى بأن يجعر فينا بصوته الجهورى كأنه ثور تخور فى حلقه دفعة واحدة : « عارفك ياابن الكلب انت وهو .. حاخرب بيت أبوكم بس أما أشوفهم » . وفى العادة لا يفعل شيئا من ذلك ..

كان جده فيما يقولون صوافا يتاجر فى صوف الأغنام الذى يجمعه من

القرى بواسطة صبيان شطار ثم يبيعه للمغازل . لكننا نفتح أعيننا على « احمد افندى » باعتباره من أعيان البلدة منذ أزمان بعيدة . له شوكة حادة ، فزوجه من عائلة تملك بلدة بكاملها فى نواحينا ، كلهم محامون وقضاة وضباط شرطة وأعضاء مجلس شيوخ ونواب ، يصنعون مهرجانا رهيبا فى بلدتنا حين يزورون صهرهم . أما هو ــ احمد افندى الصواف ــ فله هو الآخر أولاد يتعلمون فى البندر تعليما عاليا فى الكليات ، وأولاد آخرون فلاحون ، وقد تزوج ثلاث مرات فوق زوجه الأصلية لكنها كانت تطردهن فى النهاية حاسرات وتضم أولادهن الى أولادها يرعون فى الدار والحقول ..

أشيع فى البلدة أن « أحمد افندى الصواف » شيخ البلد سوف يتزوج بنتا فى عمر أحفاده احتفالا بالعمدية التى آلت اليه ولو كانت مؤقتة ، لا بأس فالزيجة هى الاخرى ستكون مؤقتة ، هكذا يعلق « أبو سماعين » فى دكاننا ضاحكا ضحكته الشهيرة . وقد كنا نظنها مجرد اشاعة لولا أن الواقع صدقها بحفل قراءة فاتحة شيخ البلد على « صفاء » بنت « زاطه » شقيق « محمد عبد المنعم أبو سيف » عمدتنا الأسبق . كيف ؟ انها طفلة تلعب الاستغماية معنا وان كانت جميلة وكيف رضى السوايفة ؟ الأدهى من هذا كيف يمكن لشيخ البلد أن يصاهر السوايفة ؟ هذه سابقة خطيرة فى تاريخ بلدتنا لا يمكن أن تمر هكذا ..

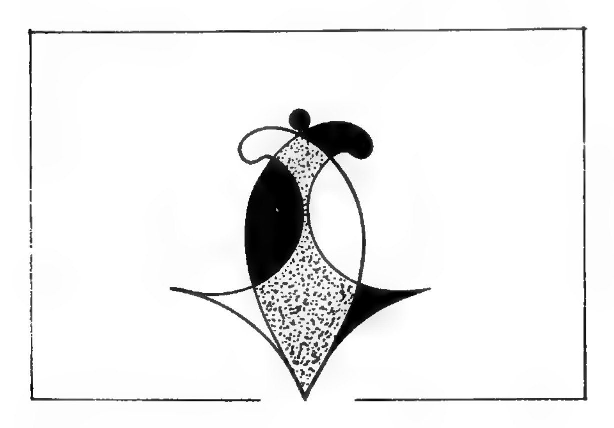
أيام طويلة وهذا الموضوع هو اللبانة الوحيدة فى الأفواه حول طبالى العشاء وركية نار الشاى وفى كل مكان و « أبو سماعين » تملؤه الزأططة ، اذ يجد فى كل خطوة احتفالا سريا صغيرا على مصطبة فى الشارع فى عمق الليل . ينتقل من حقل الى حقل تداخله البهجة العظيمة ان يمتلىء الليل بهذا الأنس المفاجىء ، حتى أن الحوارى الفرعية المظلمة بكثافة كانت هى الأخرى تمتلىء بالأنفاس والأشباح المتمددة حول ركية النار تزفر ، ولابد أن يمسيهم « أبو سماعين » بالخير ، ولابد أن يقولوا له بأريحية غير طبيعية : تفضل ، ولابد أن يتفضل ويشرب من الشاى ، ويلقى عليهم تعليقا استمع اليه فى قعدة سابقة منذ لحظات بعد أن

يطوره ويحبكه ، ولا ينسى وهو منصرف أن يأخذ منهم ـــ دون أن يشعروا ـــ تعليقا جديدا من تعليقاتهم يستقر فى نفسه ليطور به التعليق السابق او يتذكر على هديه تعليقا أفرس وانقح ، وكل التعليقات تسخر من هذا النسب الجديد المفاجىء وتحذر منه فى نفس الوقت : للصواف أن يتزوج كيف يشاء ، ولكن أن يتزوج من عائلة السوايفة بالذات فهذا شىء خطير وغير عادى وله دلالته ، فى الأمر « إنه » بل «أنات» و «أنات» لقد تصاحب القط والكلب والفأر فهذه اذن من علامات الساعة . المدهش أن هذا الزواج ليس لعبة ، فالسوايفة ليسوا بالهفية حتى يطلق « احمد افندى » ابنتهم بعد زمن يقصر أو يطول والا تكون الطامة الكبرى باصطدام عائلتين رهيبتين . انه اذن زواج أبدى زواج مصلحى أو على حساب البلدة بالطبع ولكن ، لم الاصطدام ياعم ؟ ـــ هكذا يعلق ابو سماعين فى ابتسامة مريرة أسيفة ـــ ان العائلتين باسم الله ما شاء الله سمن على عسل ، عائلة السوايفة وعائلة الدوايدة أصهار احمد افندى ورجال العائلتين أصدقاء فى البندر يتبادلون المصالح والزيارات وأحمد افندى يعرف هذا من زمن فلا خوف اذن من صدام ..

تصدق نبوءة « أبو سماعين » ، اذ تفاجأ البلدة بعد بضعة أيام بخبر ينقض عليها كالرعد المتوحش كالبرق العاصف : لقد رجعت العمدية من جديد للعمدة الأسبق « محمد عبد المنعم أبو سيف » كيف بحق الله ؟ .. هذا ما حدث ..

انقلبت البلدة سائرة فى الشوارع والحوارى تشد فى شعرها تلطم الخدود تبكى . انتشر النواح والزعيق والعصبية فى كل أنحاء البلدة بلا استثناء . كثر العراك بدون اسباب . طلقت نساء . فطست بهائم . اقتلعت زروع . عم البلدة نكد وغم شديدين . الوحيد الذى كان يبدو مبسوطا لا يكف عن الضحك والابتهاج هو « أبو سماعين » بل اننى لم أره فرحا طول حياته كما كان فى هذه اللحظات ، كأنه فرح اليأس إذ اندفع يضحك ويسخر ويهزأ بكل شىء وسط كل هذا الصخب البائس المنكود . وكان الناس جميعهم يشخطون فيه فى لحظات

الحرج والغضب صائحين : « كفاية بقى يا أبو سماعين شايفها مضحكه ؟ كل وقت وله أدان يا أخى » . فيضحك أبو سماعين قائلا : « والله انتو مخكم صغير .. أنا قلبى حاسس ان المسألة قربت .. هى ما دام لخبطت كده تبقى خلاص بالسلامة » . فيفتح الجميع أفواههم غير فاهمين شيئا من كلامه ، لكنه يستطرد : « وحياة النبى قربت خلاص » . ويقول معلمى سعد الله : « لكن ازاى الراجل ده يرجع تانى بعد البلد كلها ما كتبت فى حقه وبصمت على كده ؟ » . ويصغى الجميع فى انتباه ، فيرد أبو سماعين فى لهجة مزاح : « اصل الوزارة اتغيرت » . قالوا جميعا : « ازاى دا الوزارة لسه متغيرة ديك النهار » . قال أبو سماعين ضاحكا : « واتغيرت تانى .. ورجعت اتغيرت بقى لها ساعتين .. وربك العالم إيه اللى حيحصل تانى .. الدنيا أصلها ملخبطة حبتين » . ويخبط الشبان الأرض بأرجلهم قائلين فى حقد دفين : واحنا كان مش حنسكت . ثم ينصرفون وهم ينفخون من الغيظ .



(١٨)

يـــوم الوسعايـــة المحـــاذيه للمدرسة

كان ضوء الصباح يبدو كأنه يحاول انتزاع نفسه بصعوبة شديدة من جراب الليل وكان يخرج محملا بالصدأ . قرص الشمس الأحمر يقترب وراء صفحة السحاب الداكنة فيبدو مرهقا فى رحلة عذاب مضنية تجاهد السنته الحمراء فى اختراق السحب الرمادية . وكنت ممسكا بمخلاتى التى هى فى الأصل رجل سروال قديم من سراويل أبى والتى حشوتها بالكتب والكراريس وأقلام البسط والكوبيا كما بقعتها ببقع الحبر الكثيف . كنت أحاول فتح عينى وأنتفض من لسعة البرد ، انحناء رقبتى بالأمس فى الدكان على شغل العراوى وتخزيق عينى بغرزتها الدقيقة الدءوبة المثابرة جعلنى أتمنى لو أستغرق فى النوم الى الأبد . غير ان ثقل المخلاة فى يدى ذكرنى بما فيها ، فما لبثت أن شعرت بزهو عظيم نشطت له ساق فرحت أخب فى خطو عسكرى ذاهبا الى المدرسة ..

فما أن زايلت حارتنا وحودت فى شارع داير الناحية حتى تسمرت فى وقفتى مع رهط من رفاق ومن الفلاحين . كان ثمة شبح يقبل من بعيد تكاد رأسه تلتصق بقرص الشمس البنى المحتجب خلف السحب . بدا كأن هذه السحب كلها ظلال له . كانت مقدمة الشبح تتمطى الى الأمام فى كبرياء مهيب وهى تنشد الى الخلف لتمتد أكثر فى حركة ايقاعية ، فاذا هو جمل كبير وسنامه فى ارتفاع جبل أسود كالقطران اللامع . فاذا ما اقترب قليلا بدا متقمطا متلفف الساقين بثياب العسكر تلمع فى صدرها وأكمامها أزرار صفراء ، يلف حول رأسه بعمامة فى عرض الغربال متلففة حول نفسها بشال أبيض لكنها مسودة بلون

السحب ، يمسك فى يده اليمنى كرباجا أسود مطويا ، طرفه حاد كذيل الثعبان ، ما كاد يمعن فى الاقتراب حتى ظهر خلفه شبح آخر ، ثم ثالث فرابع فخامس ..

حدثت رجة عنيفة . توقف الفلاحون عن ركوب حميرهم أمام دورهم . انفتحت الأبواب نصف فتحة . بزغت الأجساد فوق السطوح . دمدم فى الصدور صوت غاضب تناقلته الأنفاس المتثائبة فى رعب : الهجانة وصلت . صرخ تلاميذ كثيرون وارتدوا مذعورين وقد تبعثرت مخاليهم وتناثرت كراريسها وكتبها . عدت بظهرى الى مدخل حارتنا ، وقفت بداخله مستعدا للجرى والترقب . اذا بى أسمع صوت انشراخ الهواء ، يليه صوت طرقعة فازعه ، تلاه صوت صرخة ، تبعها جعير رجل . ارتعدت مفاصلى ، رغم ذلك مددت رقبتى فى شارع داير الناحية ، رأيت « حفناوى » الفلاح العجوز يضع يديه على إليتيه ويهرول صارخا كالكلب نحو داره تاركا بقرته وحماره . ثم اذا بالكرابيج تندفع شارخة الهواء آخذه فى طريقها كل من يضعه سوء الحظ فيه . ما أدرى الا وطلقة رصاص تلحس رقبتى وجانبا من وجهى باللهب الحارق ، اندفعت أصرخ وأتلوى من الألم ، أنشال وأنحط . خرجت كل النساء تصوتن وتلطمن الخدود فى مناحة صباحية تليق بوجه الشمس المربد الذى ما لبث ان اختفى تماما ، ثم ما لبثت الشوارع بدورها أن خلت تماما من المارة لدقائق طويلة ..

يومها أصر أبى أن أذهب الى المدرسة مهما كان الأمر ، وقد تورم موضع اللسع واحمر وصار كتلة من الألم . ارتدى أبى ثيابه وأمسكنى من يدى ومضى بى الى المدرسة ومضيت ابكى كلما شاهدنى أحد . عرضنى أبى على الناظر وعلى المدرسين قائلا كلمات كثيرة غامضة مدمدمة والرذاذ كان يتطاير من بين شفتيه وهم يهدئونه ويشيرون بأصابعهم نحو أفواههم اشارة أن يصمت عن هذا الكلام الخطير ويدع الأمور تمضى على خير ..

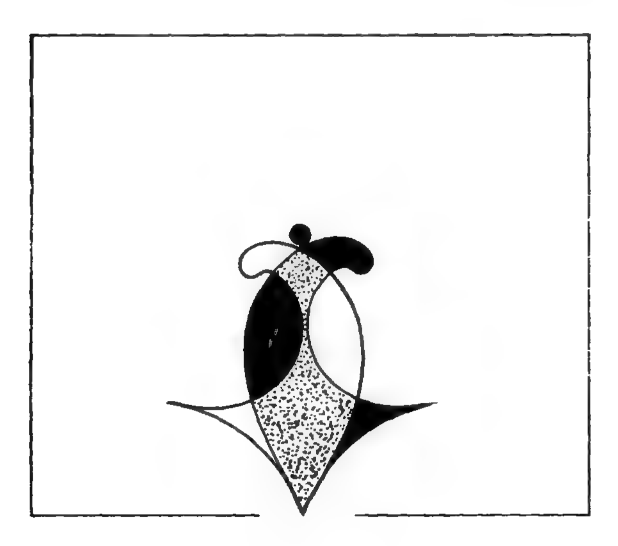
دخلنا الفصول ، فوجدنا ان ثلث التلاميذ لم يحضر . أخذ المدرسون يوصوننا أن نمشى جنب الحيط ، وليس لنا دعوة بأى شىء ، ومنخافش أبدا ، فلن

يأكلنا أحد ، بل لن يأكل أحد أحدا ، وكلها يومين ويعدوا على خير ..

قرب موعد خروجنا من المدرسة كانت المظاهرة عظيمة ، امتلأت الوسعاية المحاذية للمدرسة بخلق كثيرين ترش عليهم الملح فلا ينزل الأرض ، رجال ونساء وشبان جاءوا يأخذون أولادهم . كان منظرهم مخيفا ، يتزايدون ركضا من الشوارع والحوارى ويتكاثف لغطهم ويرتفع فيزلزل علينا جدران المدرسة . أخذ اللغط يزداد ارتفاعا بشكل غير طبيعى ثم انقلب الى صياح وجعير يتخلله اصوات نساء . اندفع المدرسون نحو الشبابيك ، اندفعنا كلنا فى أثرهم نشرئب برءوسنا لنرى من خلال حديد الشبابيك آباءنا وامهاتنا واشقاءنا واقعين تحت لهب السياط . ثم حدث الهياج الأكبر ، حيث اندفع الفراشون فأغلقوا أبواب المدرسة بالجنازير الحديد والأقفال ، وظهرت لنا الجمال تخترق الجموع والكرابيج تتهاوى فى الهواء راسمة أصواتا من الصراخ والفزع ونثيثا من الدماء الساخنة ، واذا هى المذبحة ..

شاهدنا النبابيت ترتفع فى الهواء راقصة رقصتها المجنونة ، والخناجر والبلط والفئوس والكريكات تخترق أجساد الجمال وأفخاذ الهجانة ورءوسهم . وشاهدنا من يتهاوى كالجدار المنهار ورهط من النساء يعاجلنه بضرب الشباشب وقوالب الطوب . شاهدنا الجمال تفزع وتبرطع فوق الأجساد المنكفئة . شاهدنا رصاص البنادق ينطلق من أسطح مجهولة محكما النيشان على رؤوس الهجانة . شاهدنا عمائمهم الكبيرة البيضاء تنفرط مبقعة بالدم الأحمر . شاهدنا خيولا تقبل بالعسكر السوارى ترمح بأقصى سرعتها فى الشارع رائحة غادية لتفض الجموع وتفرقها . شاهدنا — فى الوسعاية المحاذية للمدرسة — أكواما أكواما من الجثث البشرية بعضها هامد وبعضها يئن ويتوجع ، بينها جمال باركة وأخرى منطرحة . شاهدنا أوتومبيلات تقبل من بعيد ينزل منها أعداد كبيرة من الضباط والكنوستبلات ولابسى الطرابيش والقبعات والأصفر فى أصفر . شاهدناهم ينحنون على الجثث واحدة فواحدة ، يقلبونها وينصرفون ، او يدخلون معها فى حوار ويكتبون . شاهدنا اكثر من عربة اسعاف تقبل مصلصلة بأجراسها لتتوقف

وينزل منها لابسو الأصفر فى اصفر فيحملون على محفاتها جثثا هامدة وأخرى تتوجع . وشاهدنا العسكر السوارى يظهرون من جديد فى الساحة يجرون خلف جيادهم اعدادا هائلة من الرجال والشبان والنساء مربوطين فى بعضهم البعض بالحبال والعسكر ممسكون بمقودهم ، وكانت الخيول تجرهم فى منظر أضحكنا لبرهة ثم أفزعنا . وشاهدنا النهار وهو ينتهى دون أن يظهر للشمس أثر . وشاهدنا الجنازير وهى تنزاح عن أبواب المدرسة ويسمح لنا بالخروج فى نظام . ورغم صرخات المدرسين التى أمرتنا بالانصراف فورا ظللنا واقفين مدة طويلة يشلنا الخوف والترقب ، نستعيد كل ما حدث وشاهدناه من جديد ، فى نفس هذه الوسعاية المحاذية للمدرسة .



(١٩)

يـــوم القيــامــة

أبدا لم تكن مجرد ساعات ينقضى على أثرها ليل يعقبه نهار . فرغم انصراف العسكر ومجيء أفواج أخرى من الأشباح الفخارية تجوب شوارع البلدة بين لحظة وأخرى ، يعقبها شيخ البلد مصحوبا بالشيخ فرحات الأعمى المنادى ينادى على أهالى البلدة طالبا منهم الهدوء التام وانعدام الشغب والا فمن يشاغب الحكومة فهو الجانى على نفسه وقد أعذر من أنذر . ورغم أن كل الناس رجعوا الى دورهم وانغلقت عليهم الأبواب فانهم لم يستطيعوا حصر خسائرهم الا بعد وقت طويل كدهر امتد الى مساء اليوم التالى . الرجال فى بيوتهم كانوا فى حالة من الذهول وغياب الوعى والعصبية والجنون لم يروا معها شيئا مما حولهم ، الكل يهذى بكلمات مرتعبة . الكل ينادى على أولاده وذويه فيردون عليهم ومع ذلك يعاودون النداء من جديد . الرعب يولد رعبا والصراخ صراخا . تردد الشبابيك والأبواب المطلة على شارع داير الناحية طرقات رنانة حاسمة غليظة ، تارة بيد الكرباج الصلبة وأخرى بدبشك البندقية وثالثة ببوز القدم ، تعقبها صيحة آمرة غريبة اللهجة صفيقة جبارة : « بس ياولد انت وهو بطل هوسه .. دى آخر مرة واللى مش ناوى يجيبها البر ذنبه على جنبه » .

لم ينم أحد تلك الليلة ، حتى الذى هدّه التعب ونام لم ينم فى حقيقة الأمر ، بل ظل يواصل الهذيان والصراخ المفاجىء . فى الصباح بدا الذى نام اكثر ارهاقا وتعبا ومهانة ممن لم ينم . لكن الجميع فى مقترب الضحى خرجوا الى الشوارع كالغزلان الشاردة لا تدرى الى أين تذهب أو ماذا هى فاعلة . انما كانت

الحوارى تدلق فى الشوارع أفواجا من البشر يمشون فى ذهول متنمر ، مترهلى الثياب شاردى النظرات تفح العصبية من أجسادهم . كلما التقت جماعة فى الطريق بشبح فخارى يعدو جمله فى كبرياء متعجرف مثير للضحك فانهم يتبعثرون فجأة كسرب من العصافير داهمته قذيفة غادرة . يطرقع الكرباج فى الهواء المتاخم للوجوه والمؤخرات طرقعات فنية يقصد بها بث الرعب ولو بنسبة من الاصابات الفادحة . فاذا ما تهادى الجمل مزدهيا الى الامام التأم شمل الجماعة فى الحال وصار ظهرهم فى مواجهة ظهر الشبح ولكنهم سرعان ما يديرون الرؤوس دفعة واحدة يتابعون الشبح بنظرة غاضبة مقهورة ، بعد برهة يستديرون غارقين فى ذهولهم من جديد ، قد تطول البرهة بأعناقهم الملتوية ناظرة الى الشبح الغارب فاذا بالكرباج يخرم جماعتهم فى لسعة واحدة ترتج لها الأرض من صراخهم وشتائمهم التى لا تفهمها الاشباح الفخارية ، واذا بالشبح الآخر المقبل يدوس فوقهم أثناء مروره كأن لم يفعل شيئا . ذلك أن الأشباح الفخارية لا تمشى فرادى ، انها ، فقط ، تخدعنا بأنهم فرادى ، لكن الشبح لايكاد يشرف على نهاية الحارة أو حوداية الشارع حتى يكون الاخر قد لحق به ليحمى ظهره من اى عدوان متوقع . لهذا لم يكن أحد من أهل البلدة يطمئن للمشى بمفرده لأبعد من أمتار قليلة ، بالكاد الى أن تلوح له جماعة تمشى فلذا هو يلتحم بها ترعشه رعدة لذيذة وخوف بهيج كأنه مقبل على مغامرة خطيرة ولذا فانه بالتحامه بهم يستفز الجماعة ويحرضها على فعل شىء رهيب ..

من ساعة الى أخرى بدا الرجال غير هيابين من الكرابيج ، بل صاروا يجدون لذة فى اختراق حصار الكرابيج ، ربما لأنهم كانوا قد بدأوا يفيقون من الذهول ، وأول علامات الفوقان هى انهم ادركوا الى أين ينبغى ان يكون اتجاههم . وهكذا تجمعت القوافل الضالة امام بوابة دوار العمدة الجديد القديم « محمد عبد المنعم أبو سيف » . وصولهم الى المكان الصحيح أوعز اليهم بالطلب الصريح : « أين رجالنا أبناؤنا أولادنا نساؤنا الذين أخذتموهم بالأمس وما مصيرهم وأين جثث من ماتوا منهم ؟ ..

وهكذا افترشت الجموع أرض شارع الخمارة بل حى الخمارة كله بجميع حواريه ومنعطفاته ، وبدا الشارع العريض على امتداد لا يحده البصر مفروشا بالمتربعين والمتقرفصين والواقفين ، عائلات بأكملها كانت تبحث عن بعضها البعض وتتعرف على بعضها البعض مخترقة زحام الكتل مدهوسة فى الجلوس تطلق صياحا وجعيرا فاجعا . وكنت تلمح « أبو سماعين » بجسده الممصوص ورقبته المحنية يخترق الجموع فى دربة ليتوقف كل حين مسلما على مجموعة أو مهزرا معها رغم الغم أو ملقيا بنكتة أو نصيحة أو حكمة أو عزاء . وكان من المستحيل على قوافل الجمال أن تقترب ، فمنظر الجموع كان مخيفا مخيفا مخيفا ، حتى لقد كانت الجمال تجيء مبرطعة لتدوس فى الأطراف البعيدة أطفالا ضالين أو رجالا عجزة لكنها سرعان ما ترتد خائفة مطلقة صياحا فيه نفس الفجيعة ، ثم تندفع الى الخلاء بركابها فى جنون شرس ، فينبت لها فى الخلاءات العريضة صبيان خبثاء لا أهل لهم يفعلون حركات تخيف الجمال أو يضعون فى طريقها معوقات ، أو يقذفون راكبيها بالطوب والنبال ويشردون جريا فى الحقول البعيدة لا يعرفها ولا يعرفهم أحد ..

العجيب الطريف معا أن ناسا فى وسط هذا الضجيج لم ينسوا موعد « العصر » ، فسرعان ما وقف رجال على امتداد الجموع على مساحة طولها لا يقل عن عشرة أفدنة ، فأذنوا لصلاة العصر ، فكانت التكبيرة تخرج من صوت أول الواقفين ليتلقفها صوت الرجل الواقف على مبعدة قليلة فيلقيها للذى يليه فالذى يليه ، فكانت التكبيرة الواحدة تظل تتردد عشرات المرات وفى الأفق البعيد مئات المرات حتى لكأن الكون كله يؤذن ويبتهل ، فكان منظرا فى غاية الامتاع ، ابتهج له كافة القوم ، ومن لم تكن فى جبينه علامة الصلاة قام وصلى ، بل ان معلمى « سعد الله » هو الآخر ، القبطى الذى اقتاده العكاز الى مكان فى قلب الجموع ، قام أيضا وصلى مع المصلين فلم يستنكف ذلك ناس كثيرون من ملته ، ومن لم ينضم منهم اليه نظر الى فعله باعجاب وتشجيع وأريحية ، وطفا على

وجوههم فرح طفولى فابتسموا وهم يقولون له بعد انهاء الصلاة : حرما ياحاج سعد الله ، فرد عليهم بنفس البسمة الطفولية وبلهجة شيخ ورع : جمعا إن شاء الله ..

الى أن اقترب « أبو سماعين » من البقعة التى نتقرفص فيها أنا ومعلمى وأولاده ، كنت قد يئست من العثور على احد من اخوتى أو أبى ، رأيت فقط بعض وجوه من الحوارى القريبة من حارتنا ، سألتهم وسألونى عن ذوى وعن ذويهم ، أجبت وأجابونى بكل صدق واهتمام ومؤاساة ، ولم أكن قادرا على اختراق الكتل فى كل هذه المساحة . وكانت جلستنا فى مواجهة دوار العمدة مباشرة ، لأننا حين تجمعنا فى الضحى أمام دكان معلمى المغلق ومشينا سويا كان « أبو سماعين » معنا ، وهو الذى تميز عن الجميع بمشيته شديدة الهدوء وفروغ البال وعدم اعطاء أى اهتمام للاشباح الفخارية ، وهو الذى أوعز لمعلمى « سعد الله » أن يكون الاتجاه الى دوار العمدة لتسقط الأخبار ، وكانت جموع من الناس تألفه وتألفنا فتمشى وراءنا ، فلما توقفنا عند دوار العمدة توقفوا وكلما خرجت علينا جماعات من الحوارى الجانبية ورأونا واقفين وقفوا معنا يستطلعون الأمر ، وهكذا تزايدت كثافة الجموع واحلوت الوقفة وبدت كأنها حصن الأمان الوحيد ، وبدا كأنهم يشعرون أن الانفضاض يعنى الاستفراد بهم يعنى هلاكهم فردا فردا ، كل الجماعات الصغيرة المقبلة ترى الجموع فتحس كأنها قد أنقذت ، قد وصلت الى شاطىء الأمان فتتوقف فى الحال منضغطة فى بعضها ، ثم سرعان ما يبدو كأن الخطر شيئا صغيرا تافها وها هم يتكلمون بصوت عال ويقولون ما يشاءون بكل حرية دون أن يحتك بهم حكومى نجس . وكان « أبو سماعين » يظهر ويختفى من حين لآخر ، وكلما ظهر تزايدت الجموع وارتفع صوتها اكثر وقيل كلام أهم وطرأت جرأة جديدة ..

صارت الأخبار والتعليقات تنتشر بين كتل الجموع فى سرعة البرق . جاءت من أول شارع الخمارة أخبار تقول أن العمدة محبوس فى الدوار من صبيحة

ربنا وأنه تلفن للداخلية لتجيء بعسكرها تنقذه وأسرته . وجاءت من آخر شارع الخمارة أخبار تقول أن العقلاء الساهرين قد سافروا الى وزير الداخلية نفسه يستنجدون به لانقاذنا من هذه المهانة ، فضلا عن برقيات يرسلونها فور وصولهم المدينة صائحين فيها : مظلوم بالباب ياسيدى ينتظر الاذن بالدخول . لم ينس « أبو سماعين » وهو يقترب منا أن يحيينى ، وأن يلقى نكتة يشهر بها اسلام المعلم « سعد الله » ، الرجل الذى رعى خاطر الجموع فاتجه معهم الى الله ، ثم انسلت واختفى ..

أنهيت أعجب صلاة وبدأت صلاة جديدة عبارة عن هتافات وترديدات تشبه التراتيل والأوراد يستنزلون بها اللعنة على الظالمين الغادرين . رأينا — نحن القريبين من الدوار — جوادين مقبلين من غربى شارع الخمارة من الطريق الزراعى الموصل الى محطة القطار ، سرعان ما تبينا أنها « كارته » العمدة مقبلة من محطة القطار التى تبعد عن بلدتنا مسافة ستة كيلو مترات وتسمى باسم البلدة اللصيقة بها ، ولابد أن « الكارتة » كانت تستقبل أحدا من أسرة العمدة أو من ضيوفه ، ثم ان « الكارتة » أخذت تقترب الى أن حاذت الجموع ولم تجد طريقا تدخل منه الى الدوار ، فتوقفت برغمها ، ولم يكن ممكنا لمن فى « الكارتة » أن يمشى على الأرض فضلا عن أن يدخل بيتا من بيوت السوايفة . تراجعت « الكارتة » متقهقرة ، ثم عادت فتقدمت منحرفة ، وتراجعت مرة أخرى ، ثم تقدمت منحرفة اكثر ، لتدخل فى حارة جانبية تعودت أن تقف فيها ، لكنها لم تستطع الدخول إذ أن الحارة هى الأخرى — التى تشبه حجرة مستطيلة لا ينقصها غير السقف — كانت هى الاخرى مليئة بنوع من الجالسين ، هو ذلك النوع الذى لابد أن ينشأ فى الحال لدى أى تجمع على أرض مصر ، ناس تنزوى فى ركن كهذا لتشعل الوابور وتضع شايا تبيعه للجموع ..

توقفت « الكارتة » تماما بطولها فى عرض الشارع ، ثم أزيح سقفها المطاطى ، وبرز العمدة «محمد عبد المنعم أبو سيف» واقفا وعلى يمينه رجل فتى

من أهله وعلى يساره آخر كل منهما ممسك بعصا عوجاية منكفئة . تقدم أبو سيف خطوة واحدة بجسده القصير القمىء ووجهه المحروق فى لون وجه الخنزير ، فصار واقفا على سلم « الكارتة » مواجها للناس رافعا ذراعه علامة السلام صائحا بلهجته المعووجة من فرط الأنفة والغطرسة المتأصلة لكنها هذه المرة منداة بقليل من الود :

ـــ يا أهل البلد .. أهالى بلدتى الكرام ..

فصاح الرجل الفتى على أثره مرددا نفس الكلام صانعا من كفيه ما يشبه النفير أمام فمه :

ـــ الرجل يقول لكم يا أهل بلدتى الكرام ..

فوقف الذين كانوا يتبادلون أذان العصر وصاروا يفعلون مثلما حدث فى الأذان ، اذ يتلقف كل منهم الجملة ويعيد ترديدها ليتلقاها الذى يليه فالذى يليه حتى يستمع هذا الجمع الغفير . صاح العمدة « أبو سيف » :

ـــ يا أهل بلدتى الكرام .. انتو متجمعين قدام بيتى ليه ؟ أنا مالى ؟

تلفت الجميع نحو بعضهم البعض وقالوا لبعضهم البعض كلاما كثيرا ساخرا ، ثم صاح فيه أكثر من واحد :

ـــ لأنك العمدة ياحضرة العمدة .. وانت اللى جبت الهجانة وعملت فينا ده كله فصاح وهو يبتسم فى سخرية مريرة :

ـــ أنا لا عمدة ولا حاجة .. مين قال لكم انى بقيت عمدة ؟

ثم ضحك فى مرارة وتهكم شديدين . حط الذهول على الجميع لبرهة طويلة ، قالت أصوات منهم بعدها : « ازاى الكلام ده بقى ؟ » . فصاح أبو سيف وجوقة الأصوات تردد خلفه :

ـــ دى اشاعة .. وانا كان مش عايز العمدية دى .. لو عرضوها عليه حارفضها .. متأسف . مش عايز ابقى عمدة .. حد شريكى ؟ أنا حر .. وعلى فكرة عشان نبقى واضحين .. العمدية اتعرضت عليه بالفعل .. بس أنا رفضتها .. عمدية إيه وبتاع إيه ؟ أما ماعدتش فايق للكلام ده بعد السن دى .. وعلى فكرة برضه عشان نبقى واضحين كمان .. أنا ضد اللى حاصل فى البلد ده .. لأن اللى حصل حصلنى أنا وعيلتى .. فيه ناس من ولاد خواتى مضروبين زيكم بالضبط .. ولو كنت أنا العمدة صحيح ماكانش فيه اى حاجة من دى حصلت .. آه وراس ابويا .. فياولاد الناس ربنا يبارك لكم فى العمدة اللى تختاروه .. أنا أول واحد يكون مبسوط لكم دانتو أهلى .. وعلى العموم ربنا يجازى اللى كان السبب .. استهدوا بالله بقى كده ووسعوا لى طريق أدخل بيتى دانا راجل كبير وصاحب مرض .

ثم استعد للهبوط . وبأسرع من البرق كانت التعليقات قد وردت من هنا وهناك تفيد بأنه كان قد قبل العمدية بالفعل ولكن لابد أنه قد أزيح عنها اليوم . ثم راجعه اكثر من صوت :

ـــ أمال مين اللى جاب لنا الهجانة وبهدلنا ؟

قال فى أسف :

ـــ العمدية كانت فى ايدمين ؟

قالت الأصوات :

ـــ فى ايد شيخ البلد .

قال باسطا كفيه :

ـــ اذن .. اسألوا شيخ البلد .. اتجاهكم الحقيقى دلوقت شيخ البلد .. هو الوحيد اللى عارف كل حاجة عايزين تعرفوها .. ولازم تعرفوا ان حكاية الجوازة اللى مالية البلد دى .. أنا مش راضى عنها .. لسه ما وافقتش ومش حاوافق .. هذا للعلم عشان تفهموا .. وأصارحكم .. لو سمعتوا بعد كده انى بقيت عمدة .. أو كان لى دخل فى اللى حصل .. ابقوا تعالوا كسروا البيت ده ..

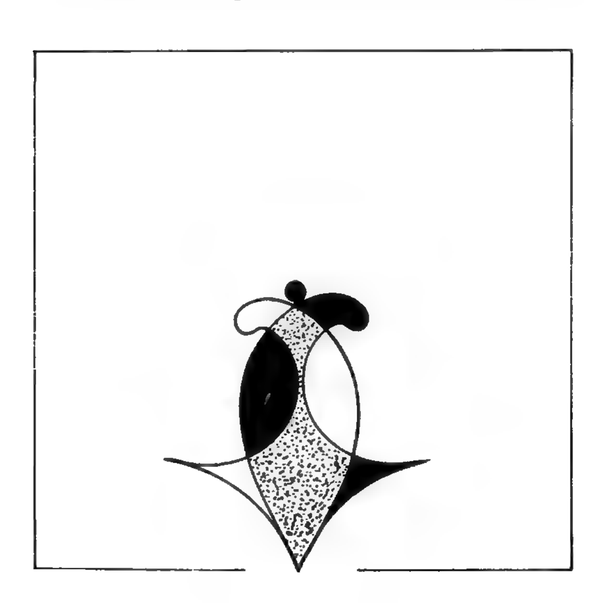
وأشار الى بيته . ولم يكد ينهى كلامه حتى كانت جموع الدهماء قد بدأت تخف عن شرقى شارع الخمارة . وفى نفس الوقت كانت أخبار تزحف قادمة من ناحيتها تفيد بأن وفدا من أهل البلدة العقلاء رجع الآن من البندر ، وأنهم عرفوا أن الذين تم القبض عليهم كلهم كانوا من غير المشتركين فى المعركة بالفعل وانما كانوا مجرد متفرجين هلعين ، وأن الذين ماتوا من أهل البلدة لم يكونوا هم الذين قاتلوا بل لم يكن لهم أبناء فى المدرسة وان سوء حظهم هو الذى اوقعهم فى ساحة القتال ..

كنا آخر المنصرفين من أمام بوابة « أبو سيف » ، فشاهدناه وهو يتنفس بعمق ويتسلل الى بيته مخفورا برهط من شبان عائلته ، وقد لاحظنا أنهم بالفعل قد حصلوا على نصيبهم من كرابيج الهجانة التى كانت آثارها لا تزال واضحة للعيان ، ولهذا كانوا مفرغين من اى عدوان تجاه اهل البلدة ، لم يحاولوا الاشتباك مع أحد ، بل كانوا يواسون الناس ويتوددون اليهم . ولاحظنا كذلك أن اتجاه الجموع كلها قد أخذ سمته نحو الجهة الشرقية لشارع الخمارة ، فأخذنا نفس السمت تلقائيا ، ومضينا نثرثر ونستعجب من هذه الفزورة الغامضة ، حتى وصلنا الى جهة حينا ، فاذا بالجموع متكاثفة وعواصف الدخان والضجيج والصراخ تملأ الجو . كانت الجموع قد انهالت على دار شيخ البلد أحمد افندى الصواف قذفا بالطوب والحجارة ينزعونها من جدران سور حديقته التى انتهكت تماما وانتزعت فروعها وثمارها . اقتحمت الجموع الدار . ديست السجاجيد بالأقدام الملوثة بالطين . تهشمت زجاج الشبابيك والأوانى . بقرت بطون الأبقار والبهائم . اشتعلت النار فى سقف الزريبة وامتدت الى خشب الدار ثم اندلعت ألسنتها حتى أتت عليها والجميع يتباعدون ويتفرجون الى أن همدت وأحالت القصر الى كومة فحم ذى رائحة مقرفة . غير أن أحدا لم يعثر على أحد من ذرية شيخ البلد ، الذين تسربوا كلهم هاربين الى بلدة أصهارهم الداوايده ..

انصرف الجميع الى دورهم بعد أن اطفأوا آخر ذبالة يمكن أن تستأنف الاشتعال وهم نيام ، وقد همدوا جميعا هذه الليلة واختفت أصواتهم . وكان « أبو سماعين » ينتقل من دار الى دار فى السر ليبلغ أن النيابة جاءت وعاينت ، وأنها

تحيرت فى نسبة الفعل الى فاعل بعينه ولكنها فى الغد سوف تقبض على مجموعة من الأبرياء ، وهذا — فى نظره — ليس منه أى خوف ، انما الخوف المؤكد هو الخوف من عودة أصهار شيخ البلد للعراك مع البلد ، هذا أمر يجب أن تستعد له البلد ..

فى صباح اليوم التالى خرج الجميع الى أعمالهم محاولين تجنب الاحتكاك بأى أحد ، وكل واحد يبدو كأنه فى حاله وغلبان وليس له دعوة بأى شىء . مع ذلك كان القلق يعترى النساء فى الدور ويصيبهن بالعصبية .



(٢٠)

البعـــــث

كنا ذاهبين لنصطاد السمك بالسنانير من مصرف نمرة خمسة . وكان علينا أن نمر فى الطريق بدار شيخ البلد ودار الحاج مصطفى الحداد . كنا مجموعة زملاء تتكون منهم أول دفعة من ابناء البلد تحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة البلد بعد تحويل الالزامى الى ابتدائى لمدة ست سنوات . وكانت هذه الأحداث قد شغلتنا عن المذاكرة فكنا نستعيض عنها بالكلام فى المقررات ونحن جلوس للصيد ، وكنا نستعد لدخول الامتحان الذى سيعقد لنا بعد اسابيع قليلة فى احدى مدارس البندر ، وأرقام الجلوس كسرت الحواجز بيننا وبين أبناء العائلات الغنية الذين كانوا يسافرون للحصول على الابتدائية من المدينة بمصاريف باهظة ، فاضطروا الى مصادقتنا والمشى معنا والنزول الى المذاكرة معنا فالمقررات باتت واحدة هنا أو فى المدينة باستثناءات طفيفة هى اللغة الأجنبية فقط ، الميزة الوحيدة التى كانوا يتيهون بها علينا خفية نلحظها فنشمئز من حظنا ، لكن حلما واحدا قد بات يجمعنا على أحاديث كثيرة شديدة الحلاوة والجاذبية ، ذلك هو الحلم بالتعليم العالى ، والانضمام الى الطلبة الذين نسمع عنهم بحق وحقيق ، أولئك الذين يتظاهرون ويعتصمون ويكافحون الاستعمار والمتسلطين ، وكان الحلم يستغرقنا فيرعش ابداننا عند الكلام كأننا بالفعل قد صرنا رجالا لهم كلمة فى البلاد وفى الأمور الخطيرة ، بل كثيرا ما كنا نندمج فى هتافات متنوعة دون أن ندرى بمنتهى الحماس فان افقنا ضحكنا حتى الثمالة ..

أثناء مرورنا على بيت شيخ البلد الصواف لم يقابلنا أى واحد من الهجانة ،

فاندهشنا من همودهم المفاجيء .. كنا نتلكأ فى السير ، خطوة تشدنا للهرب مما قد يحدث وأخرى تكبلنا لرؤية ما قد يحدث . جاءت وقفتنا الطويلة تحت شباك دوار الحاج « مصطفى الحداد » ، وكان احد ثلاثة فى بلدتنا يملكون جهاز راديو مثل صندوق كبير ويسمونه الفيليبس ويعمل ببطارية ثقيلة يملأونها من ماكينة الطحين كل بضعة أيام . وكان ما أوقفنا فى هذه الأثناء تحت هذا الشباك هو صوت الراديو الذى كان يذيع الموسيقى والأغنيات ، بجرد الاستماع اليه متعة فائقة . كان الراديو موضوعا فى ارضية الشباك من الداخل وصوته عاليا . وفجأة شد آذاننا صوت يلقى بيانا هاما بلهجة حاسمة فيها بعض التوتر والعصبية والتهدج ، يقول البيان أشياء شديدة الغرابة استمعنا اليها جيدا وبامعان فبدت كأنها الأساطير ، وبعد أن انتهى البيان كنا قد فهمنا وتأكدنا أن الدنيا قد انقلبت فى القاهرة رأسا على عقب ، فقد تنازل الملك فاروق عن العرش لابنه احمد فؤاد ، وان جيش البلاد قام بثورة ، وان هذه الثورة مباركة ، لم ترق قطرة دم واحدة ، لسوف تلتزم بتحقيق ستة أحلام شاهقة يسمونها المبادىء الستة .. ثم اكتشفنا أن هذه الأخبار أذيعت منذ أيام ولم نعرفها إلا اللحظة لعدم وجود راديو بجوارنا

بعد أن تجادلنا كثيرا تحت الشباك واستعرضنا مهاراتنا فى اللغة العربية الفصحى وفى الوعى السياسى والرجولة المبكرة نظرنا الى بعضنا واكتشفنا فجأة أن هذه الحال التى نحن عليها لا تليق بعظمة ذلك الذى حدث وسمعناه الآن ، انه لحدث جلل ، بل هذا هو الحدث الجلل الذى نقرأ تعبيره فى دروس البلاغة . ثم اذا بنا نلقى السنانير على طول ذراعنا ، ثم نندفع نحو البلدة صانعين من أنفسنا ــ وكنا حوالى سبعة شبان ــ ما يشبه الكتلة المتلاحمة ، وقد شملنا احساس واحد حلو المذاق خيل لنا أننا قد انتقلنا بالفعل الى مرحلة التعليم العالى ، الى داخل الحلم مباشرة ، الى المجتمع الطلابى بسيرته الخلابة وأخباره الساحرة ، ومضينا هاتفين والحماس يرجنا رجا من الانفعال : تحيا الثورة .. تحيا الثورة .. نحن فداء الثورة .. نحن فداء الثورة . وما كدنا نجتاز شارع داير الناحية

حتى كان منظرنا البهيج قد اجتذب مجاميع كثيرة من الزملاء والأطفال والرجال بل والصبايا المتفرجات بانبهار أشعل حماسنا الى ذروة الأوار . وكان موكب الهتاف المتعاظم يلتقى من حين لآخر بجمل يحمل شبحا فخاريا فيتعمد مواجهته واكتساح الجمل فى طريقه مما يضطر الشبح الفخارى الى سحب الجمل والانزواء بعيدا ..

لف الموكب شارع داير الناحية اكثر من عشر مرات . وأثناء عودتنا فى الليل لاحظنا ان الأشباح الفخارية قد اختفت تماما من شوارع البلدة ، واكدت الأخبار انها قد رأتهم يخرجون من البلدة الى طريق السفر ..

وكان القمر فى تمامه لحظة ان دخلت حارتنا مرهقا من الاعياء مبحوح الصوت من الهتافات . دفعت باب مندرتنا برفق . كانت مضاءة بالمصباح البترولى المتدلى من السقف . وكان أبى يجلس على الكنبة العريضة بثيابه الداخلية ، الفانلة أمّ كم والسروال أبو دكة والصديرى الذى تتدلى من ابطه سلسلتان احداهما للساعة والأخرى للمحفظة . وكان « أبو سماعين » متقرفصا بجواره يصنع الشاى ، وفى مواجهتهما على الكنبة المقابلة ثلاثة من اصدقاء ابى عشاق الحديث فى السياسة هم « صباح ابو صباح » و « الحاج قطان » و « الحاج زيدان » الأعمى ، الذى ما رأيت له نظيرا قط فى فهم امور السياسة والادب وكل شىء كأن طه حسين من عائلته . كانوا جميعا مصهللين سعداء كأنهم ارتدوا الى طفولتهم من جديد . فلما رأونى داخلا وصوتى مبحوح قالوا جميعا فى حسد : « أهلا برجل الغد » فجلست قائلا لهم : « مبروك » . فقالوا : « مبروك ياعم عليك وعلى صحابك .. جات لكم ياعم على الطبطاب انت واللى زيك .. ياما انت كريم يارب » .

ليلتها ظللنا ساهرين والبلدة كلها ساهرة ، وخرجت أثناء الليل العميق اكثر من خمس مرات لشراء ملحق شاى وسكر ودخان فأجد الدكاكين فاتحة ومنتعشة وبها ناس يشربون الشاى ويتكلمون فى السياسة عن الملك الذى ذهب وعن العهد

الذى بدأ والأيام التى هى دول والمستحيل الذى لم يعد له وجود ، وقد طرأ على جميع الناس فى خلال هذه الساعات القليلة منذ اعلان الخبر شيء جديد كل الجدة وخطير كل الخطورة هؤلاء الناس ليسوا هم قبل ذلك بساعات ، على وجوههم وفى أعطافهم وفى خطوهم ولباسهم وكلامهم وضحكهم وعبوسهم طعم جديد ، طعم الاحساس القوى بأنهم أخيرا قد استردوا بلدتهم ، وأنهم اهلها بالفعل وأصحاب الحق فيها ..

قبل أذان الفجر بقليل كان الضيوف كلهم قد انصرفوا ما عدا « أبو سماعين » الذى بقى يواصل التدخين وشرب الشاى مع أبى ، وفى تلك الليلة اتضح لى أنه يبارى أبى فى ثقافته ومعرفته ويتكلم معه فى التاريخ كلاما ساحرا ، يذكر أحداثا تاريخية درسناها فى المدارس باعتباره طرفا فيها ، ويتجرأ فيقول أن سعد زغلول باشا قال — له — ذات يوم كذا وكذا .... وأن النحاس باشا وعده ذات يوم بكذا .. ويذكر وقائع قام بها وكان معه فلان باشا وفلان بك من اعيان التاريخ .. ما أدار رأسى وكاد يسحقها من عظيم الدهشة أن أبى كان يؤمن على كلامه بل ويذكر شوارد نسيها أبو سماعين تؤكد صدق مزاعمه .. وكدت أجن فى فهم هذه الشخصية الكبيسة المحيرة ..

لكن ومضات بارقة لمعت فى ذهنى ، رأيت على ضوئها شخصية « ابراهيم الخواص » الذى حكى لى معلمى قصته ، فأحسست بأن بلادنا يمكن أن تكون محتوية على أعجب من هاتين الشخصيتين الفريدتين وقلت لنفسى أن الظروف التى تخلق شخصية كابراهيم الخواص هى نفسها التى يمكن ان تخلق شخصية كأبو سماعين ..

ما كاد ابى يتململ متثائبا حتى تناهى الى سمعنا صوت ملتاع قادم من خلف منزلنا . فزعنا . وسمعنا صوت هبوط أقدام على سلم دارنا الخشبى ذى الدرج المثبت بدرابزين داخل الدهليز ، كان صوت الهبوط مدمدما متلاحقا . انفرج باب الدهليز المطل على المندرة وبرز وجه أمى قائلة فى رهبة : « أبو

فكرى .. دا يظهر عمتى الكلافه ماتت » . انتفض « أبو سماعين » صائحا من الفزع كأن خيانة قد ارتكبت فى حقه شخصيا . « ماتت » .. وبرق فى عينيه مالم أعرف إن كان خيبة أمل أو حزن أو سخرية .. فى حين اعتدل أبى فى جلسته كأنه لا يقوى على الوقوف ، قائلا : « ايش عرفك يا مره ؟ » . فقالت امى : « انا بصيت لقيت الصوات جاى من دارها قربت على السطوح سمعت عرفت ان هى اللى ماتت » . نهض ابى واقفا على الكنبة ، سحب جلبابه الصوفى المعلق على مسمار فى الحائط ، فارتداه ، وسحب عصاه المعلقة هى الأخرى فى مسمار ، ثم سحب الطربوش من عامود طرابيش مثبت كذلك فى مسمار طويل ، فارتداه ، ومضى قائلا : « يلا بينا يا أبو سماعين .. اطلع نام ياولد » . وكانت هذه أول مرة أرى أبى يصطحب « أبو سماعين » فى أمر من الأمور كرفيق ينادده ..

خرج كلاهما وصعدت أنا الى الطابق الثانى لكى أنام . غير أننى بالطبع لم أنم ، ظللت بقية الليل ، على خلفية من العويل والنواح والصوات ، أفكر فى عمتى الكلافة ، شخصيتها ماثلة أمام عينى ، بكل غموضها ، بشخصيتها المعقدة ، وطبعها الحاد ، ولسانها الزفر . أستعرض تاريخها ، يلتبس على الأمر فى أشياء كثيرة أظنها من عمتى الكلافة ويتضح لى بعد برهة أنها من تلك الشخصية التى حكاها لى معلمى سعد الله تلك التى كانت حماة ذلك المناضل الشعبى الشريد . اختلطت الشخصيتان ببعضهما فأيقنت أن عمتى الكلافة ليست متفردة وأن من رأى بلوة غيره هانت عليه بلواه ، فطلبت لها الرحمة وقرأت على روحها الفاتحة : ثم غفوت قليلا غفوة عميقة ، رأيت خلالها « أبو سماعين » عريسا يجلس بجوار عروسه فى مندرتنا فوق منصة عالية وحولهما جمع من المحتفلين ، وثمة موسيقى عالية متداخلة ، وعمتى الكلافة هى التى تمسك بالدف وتدق عليه فى نقرة جنائزية مخيفة ، ثمة من يتطوحون كالمذبوحين من الألم ، الدموع تنثال على خدى العروس فتفسد زينتها ، أبو سماعين فى ثياب العرس غير ملق بالا الى أى شىء سوى الفرح ..

تيقظت على شعور بالكآبة يخنق صدرى . لبست ثيابى ونزلت . كانت مندرتنا قد اعدت لاستقبال المعزين . وكان الشارع ـــ ابتداء من دارنا حتى دار الكلافة ـــ قد امتلأ بالجالسين القرفصاء مستعدين لتشييع الجناز . ذهبت الى دار الكلافة فوجدت عمتى خديجة واولادها ، ووجدت أمى وكل نسوان المنطقة ، ووجدت أبى يجلس فى مندرة الكلافة ، و « أبو سماعين » يقوم بمهام التغسيل بنفسه واستحضار الكفن من أجود صنف والاشراف على تخييطه . وكان أبى يشرد وقد توفرت فى عينيه دموع سأمانه ، ولا ينى يردد لنفسه بصوت عالي : « ألا تموتين الا فى يوم كهذا ياكلافة ؟ تختارين يوما تلهى فيه الناس عن تشييع جنازك باستقبال مولود المستقبل ؟ » . وأبو سماعين يقول ودموعه منحدرة وهو يتجاهلها ويتجاهل صوته الباكي مفتعلا لهجة المرح : « سيكون أربعينها حفلا حافلا .. حينما يعلم أصحابها بالخبر فى كل البلاد ، سيكون أربعينها هو يوم جنازها الحقيقى » .

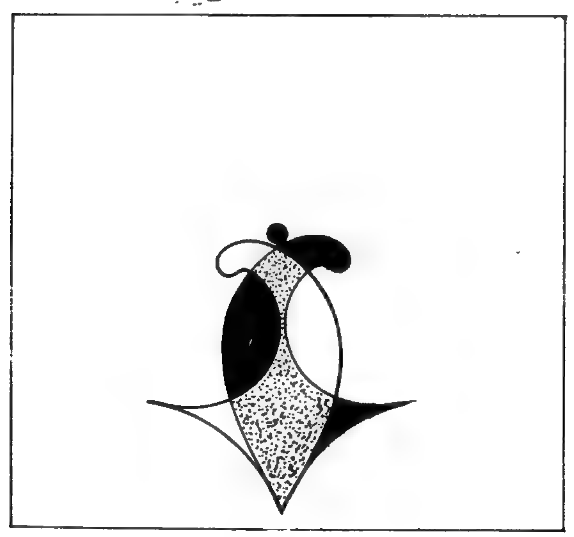
مع ذلك حين خرج نعش الكلافة بعد اداء الصلاة على الجثمان فى المسجد المجاور وجد جمعا غفيرا فى انتظاره ، انضم اليه عشرات وعشرات حتى دخلنا بها المقابر العالية المتربة . وعند تغييبها فى التراب ارتفع الصراخ الباكى فجأة الى ذروة عالية ، كان حول المقبرة كل من « عاطف » و « مرشدى » أخوه ، وأختهما « نفيسة » واختهما « نعيمة » ، الأربعة يودعون جدتهم التى كانت بالنسبة لهم أماً وأبا وسجانا وجلادا على طول الزمان. وكانت فزعة البكاء قد حشرجت حلقى وفزعتنى فرحت أبتعد هاربا بأحزانى الغامضة العميقة أجلس على جذع شجرة عالية عتيقة مرتفع فوق ربوة المقابر ، أحاول الانشغال بالفرجة على جموع المشيعين وهم يرجعون الى البلدة جماعات وفرادى .. حتى بدا أن المقابر قد فرغت تماما ولم يعد بها أحد ، أحسست بقشعريرة انقبض لها قلبى فأيقنت أن أنفاس الموتى قد بدأت تتصعد فى أرضها بعد أن زايلتها أقدام الضيوف الثقلاء . رأيت على البعد كتلة من الغبار الكثيف تزحف منسلخة من ربوة المقابر ملتحقة

بالطريق الممتد الى البلد . أخذت سحابة الغبار تخف وترق شيئا فشيئا ، لتكشف عن خمسة أشخاص يمشون فى كتلة واحدة متساندة متلائمة ، وأخذت كتلتهم تتباعد وتختفى شيئا فشيئا فى الأفق الظليل .

تمــــــت

المعادى ــ ديسمبر ١٩٨٣

فايتباى



كتب للمؤلف

الكتاب	النوع	الناشر	
١ ـــ اللعب خارج الحلبه	(رواية)	هيئة الكتاب	نفد
٢ ـــ السنيورة	(رواية)	هيئة الكتاب	(نفد)
٣ ـــ الأوباش	(رواية)	الكتاب الذهبى	(نفد)
٤ ـــ فلاح مصرى فى بلاد الفرنجه	(رواية)	دار المعارف	(نفد)
٥ ـــ رحلات الطرشجى الحلوجى	(رواية)	كتاب اليوم	(نفد)
٦ ـــ الشطار	(رواية)	هيئة الكتاب	(نفد)
٧ ـــ العراوى	(رواية)	دار المستقبل العربى	
٨ ـــ فرعان من الصبار	(رواية)	دار الهلال	
٩ ـــ الوتد	(رواية)	دار مصرية	(نفد)
١٠ ـــ صاحب السعادة اللص	(قصص)	دار الهلال	(نفد)
١١ ـــ المنحنى الخطر	(قصص)	دار الهلال	(نفد)
١٢ ـــ عمالقة ظرفاء	(وجوه فنية)	دار المعارف	(نفد)
١٣ـــ دراسات فى المسرح المصرى	(نقد)	دار المعارف	(نفد)
١٤ ـــ محاكمة طه حسين	(دراسة)	بيروت	(نفد
١٥ ـــ فتح الاندلس	(تحقيق ادبى)	هيئة الكتاب	(نفد)
١٦ ـــ صياد اللولى	(مسرحيتان)	هيئة الكتاب	
١٧ ـــ المخربشين	(مسرحية)	سلسلة المواهب	
١٨ ـــ أسباب للكى بالنار	(قصص)	تحت الطبع	

رقم الإيداع ٨٦/٣٣٦٦
الترقيم الدولى ٦ ــ ٠٤٤ ــ ٤٤٢ ــ ٩٧٧

مطبعة العروبة ٢٤٦٤٢٥٥

العراوى

■ كثير من الأعمال الروائية التي ينجح الروائيون العرب فى إبداعها هى التى ترتبط بترجمتهم الذاتية ، وقد وُفق الأستاذ خيرى شلبى فى رواية العراوى لنفس السبب ، لأنه نجح من خلال عمله لا فى تصوير قريته فحسب ، بل فى تصوير القرية المصرية فى الفترة التى سبقت ثورة ٢٣ يوليو . ونجاحه لايقتصر على جانب واحد ولكنه يمتد ليشمل النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها ..

■ ومؤلف العراوى الأستاذ خيرى شلبى له القدرة على الغوص بجسارة فى أعماق نفسية الفلاح المصرى فيكشف عن واقعها . وعن آلامها وآمالها . عن ردود أفعالها . عن إحساسها بالزمان والمكان . عن تحضرها وإنسانيتها ..

عبد المحسن طه بدر



دار المستقبل

٤١ شارع بيروت .
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهرة